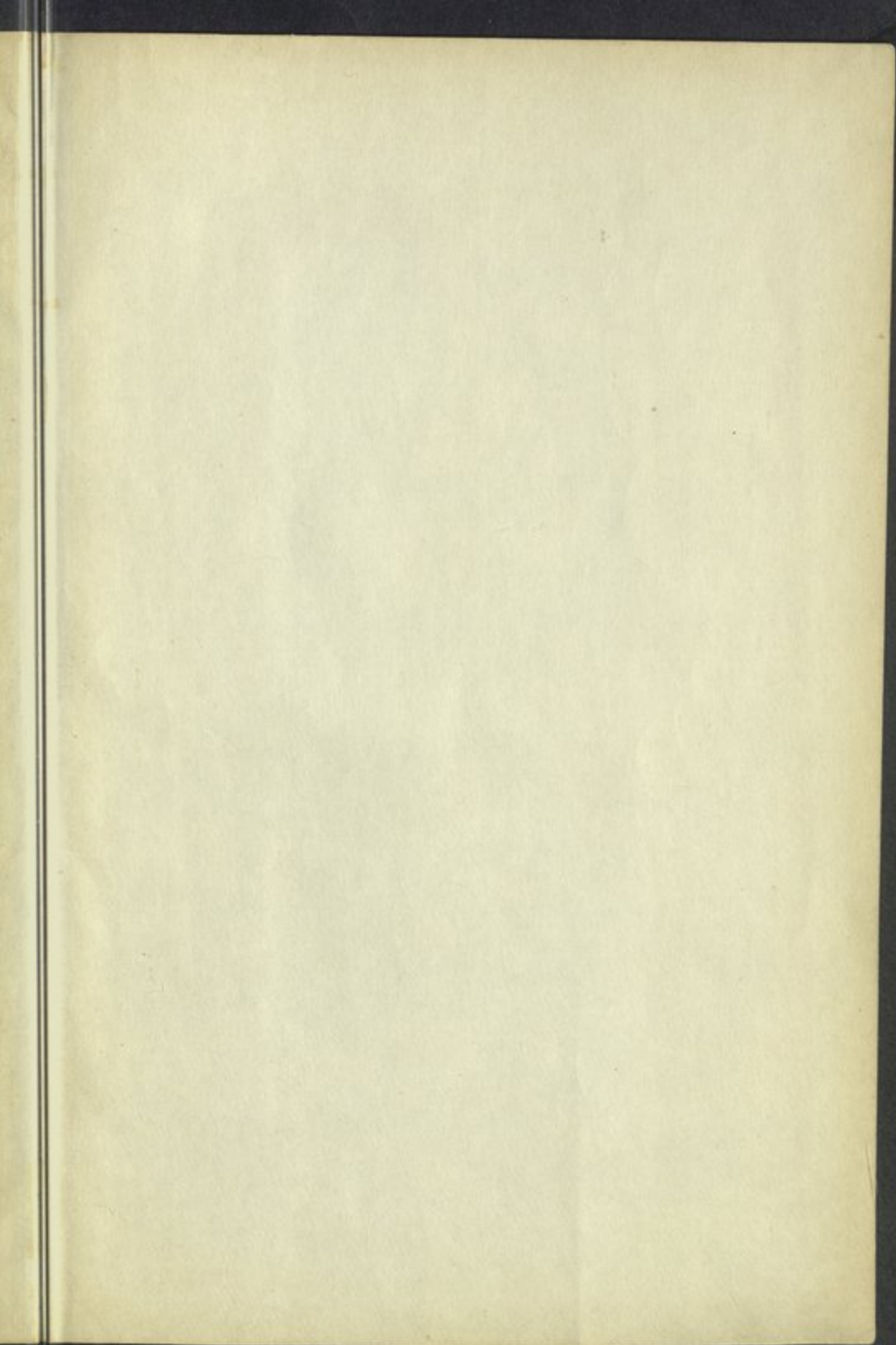


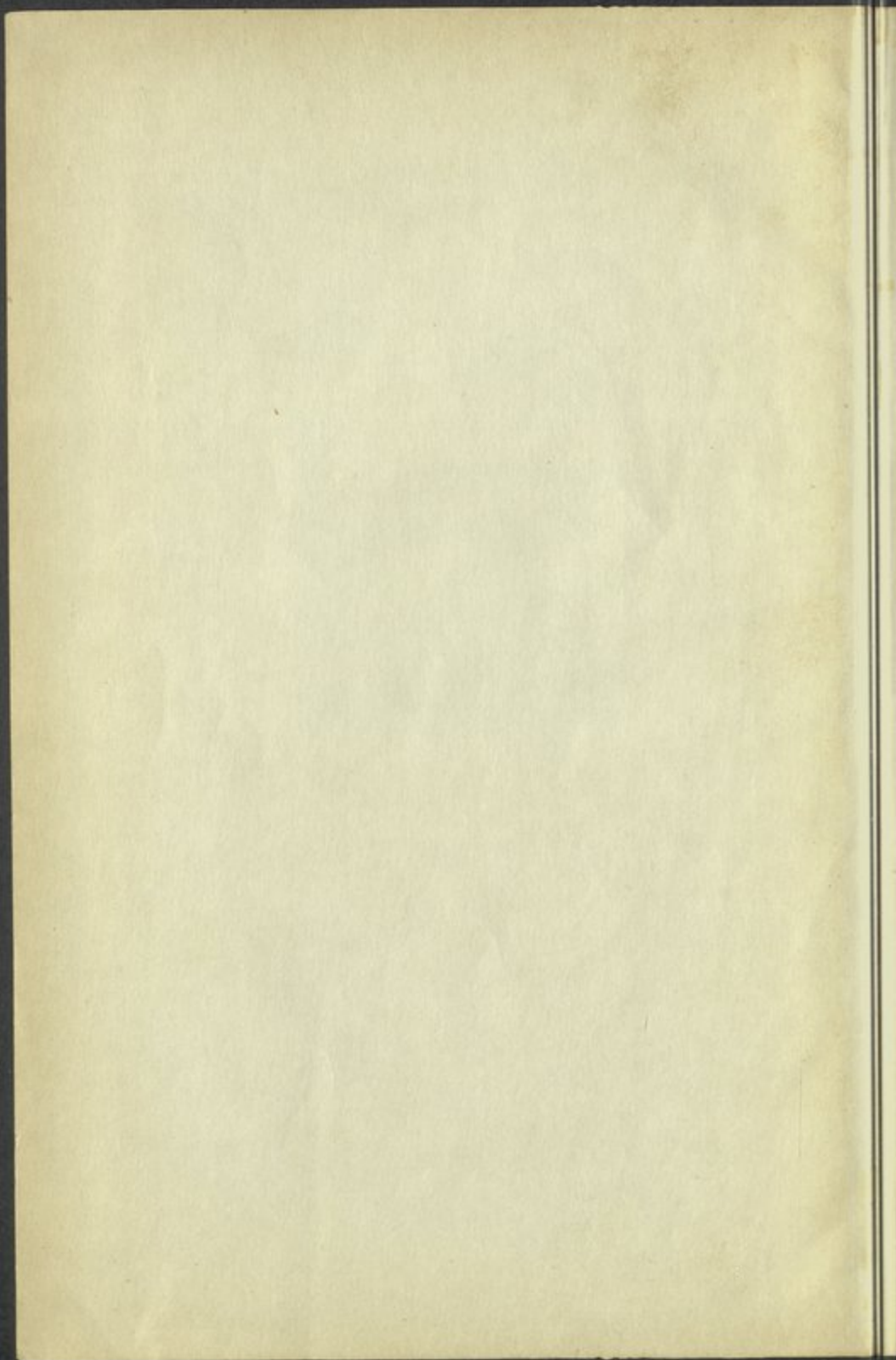
4
J3

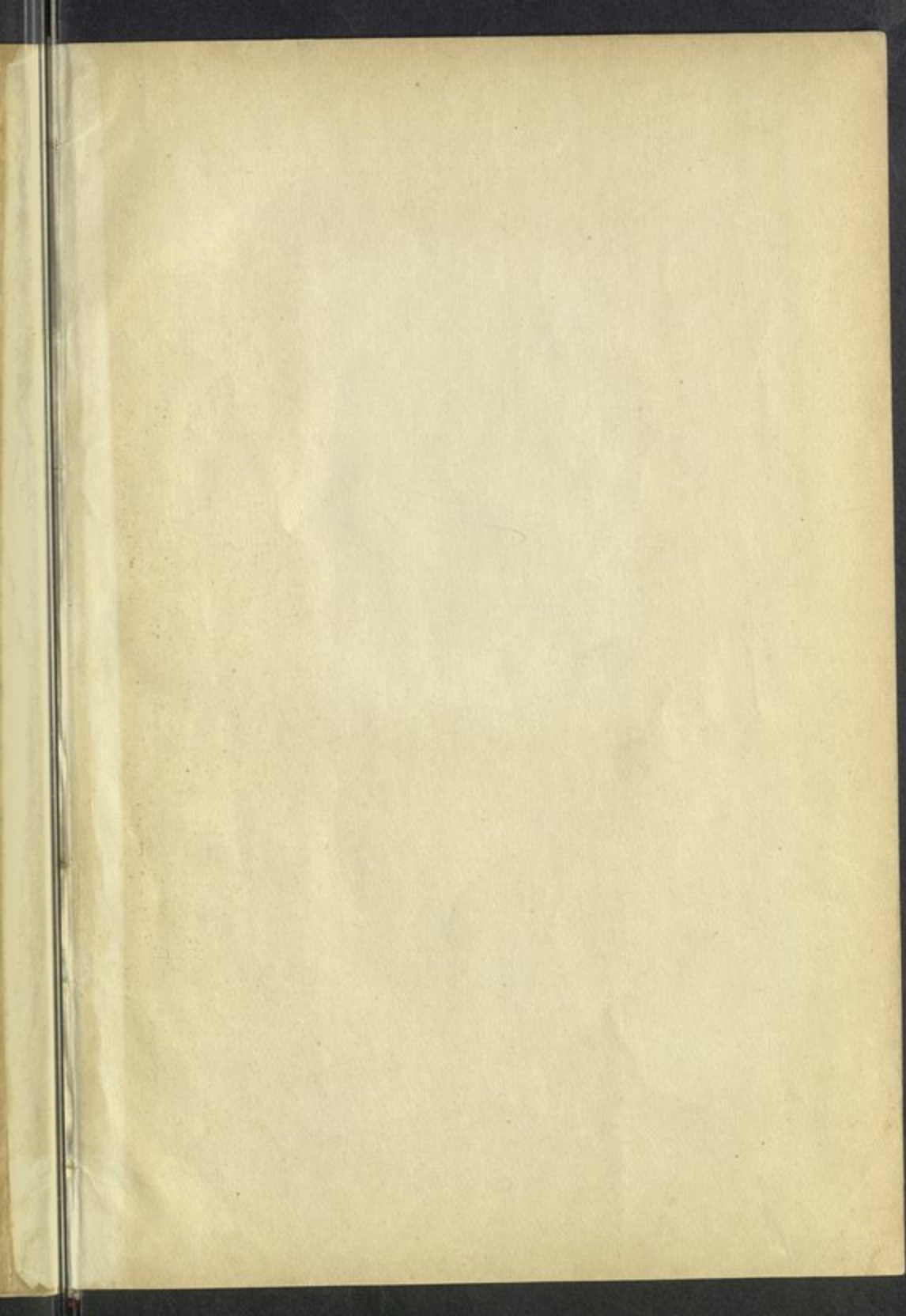
AMERICAN
UNIVERSITY OF
BEIRUT



مكتبة جامعة القاهرة
القاهرة ١٩٥٧







400
J58m9
في علم الاجتماع اللغوي :

اللسان
بين الفرد والمجتمع

تأليف
أوتو جيسبرسن

ترجمه بتصريف وعلق عليه
دكتور عبد الرحمن محمد أيوب
ماجستير ودكتوراه من جامعة لندن
مدرس بكلية دار العلوم — جامعة القاهرة

ملتزم الطبع والنشر
مكتبة الأنجلو المصرية
١٦٥ شارع محمد بك فريد (عماد الدين سابقا)



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

تقديم

سيدى القارىء .

لن أقدم إليك هذا الكتاب معترًا بمقدار ما أقدمه متعذرًا .

لقد دفعتنى ظروف العمل إلى عجلة لا تجدر بالإنتاج العلمى ، فأسرعت حيث تجب الأناة ، واكتفيت فى بعض الأحيان بما لا كفاية فيه . ولكنى لا أظن أن ذلك يضير هذا الكتاب كثيراً ، فؤلفه من أعظم المفكرين العالميين ، الذين خلت العربية من نتاج أفكارهم ، على غزارتها وجدتها وعمقها . ثم هو إلى جانب ذلك يعالج ناحية من نواحي الثقافة الإنسانية ، شغلنا عنها شكليات ثقافية تقليدية ، مكن لها من حياتنا العقلية كسل وخمول وشلل ، فى كل ما يتصل بثقافتنا اللغوية . لقد سيطرت القاعدة على الموهبة ، وتمكن الشكلى التافه من العبقرى الأصيل ، وأصبحنا فى تفكيرنا اللغوى مرددين لأبيات ابن مالك ، أو مفسرين لشروح هذه الأبيات .

ولن يقضى على مثل هذا الخمول النائم ، إلا صدمة موقظة . وليس لثلى من جاجة الصوت ما يقض مضجع الناعسين . ولذلك فقد آثرت أن أبدأ إنتاجى العلمى مترجماً . ونجرت من المؤلفين اللغويين مارداً من مردتهم ، اعترف له الجميع — على رغم ما خالفوه — بقوة العارضة وطول الباع .

والمؤلف — أوتو جيسبرسن Otto jespersen — وهو دانىاركى الأصل — كان كثير الإنتاج فى ميدان الدراسات اللغوية . ولا يزال لكتبه « اللغة » ، « فلسفة النحو » ، وسواهما من المؤلفات دويها ، على الرغم من انقضاء عشرات السنين من تأليفها .

(ب)

وفي الكتاب الذي أقدمه إليك اليوم ، أفكار وآراء يقبلها كثير من اللغويين الحديثين ، في شيء من التحفظ ، ولكنني أومن بضرورة تزويد المكتبة العربية بأمهات الكتب ، على الرغم مما يأخذ عليها المحدثون من قصور أو مغالاة .

وعندما قصدت إلى ترجمة هذا الكتاب ، صادفتني عقبة لا تصادف مترجمي القصص والتاريخ والأشعار . وذلك لأن المؤلف يعرض في ثنايا كتابه العشرات من الأمثلة من مختلف اللغات الأوروبية ، يشرح بها زعمة أو يفسر ظاهرة . ولن يتسنى للقارى العربى ، وكثيراً ما يكون جاهلاً باللغات الأجنبية ، أن يجد في هذا النوع من الأمثلة غناء كبيراً .

ولهذا فقد كان لزاماً على أن أمثل لما يعرض إليه المؤلف من أفكار وآراء ، بأمثلة عربية . وكثيراً ما كنت أجد في العامية المصرية مالا تسعف به العربية الفصحى . وكذلك لجأت إلى التطويل حيث اختصر المؤلف ، أو إلى الاختصار حيث أطال . بل لقد بلغ بي الحال في بعض الفصول أن أكتبها من جديد ، في ضوء ما كتبت . وقد كنت مدفوعاً إلى مثل هذا التدخل بطبيعة المشكلة التي تعالج . ولم يكن من المعقول مثلاً أن أسهب في الحديث عن نشأة بعض التعابير وتنوعها وعلاقتها المعنوية وارتباطها بإصولها القديمة ، عندما تكون هذه التعابير في لغة غير العربية . وإنى لأرجو أن أكون بذلك قد استطعت أن أعرض عليك سفرأً جديداً مفيداً ؟

الفصل الأول

الكلام واللغة

نبين في هذه الصفحات ، أول ما نبين ، علاقة اللغة بالجنس البشري بصفة عامة ، ثم علاقتها بالشعب والفرد . وليس ثمة لبس في تحديد معنى «الجنس البشري» أو «الفرد» ، ولكن كلمة الشعب لا تزال تحتاج إلى تحديد وإيضاح ، فأنها حتى الآن تستعمل استعمالاً شائع الدلالة . فهي تطلق على سكان سويسرا بالرغم من أنهم يتكلمون ثلاثة أو أربعة من اللغات المختلفة ، وينتمون إلى ثلاثة أو أربعة من الأجناس .

بينما كانت إلى عهد قريب تطلق على اليهود قبل قيام إسرائيل . وكان السبب - في اعتبارهم شعباً اشتراكهم اللغوي والديني . وفي نفس الوقت لم يكن الاشتراك اللغوي والديني أساساً كافياً لاعتبار سكان إنجلترا وسكان أمريكا شعباً واحداً . حيث كان للوضع السياسي دخل كبير في هذا التحديد ، بينما لم يكن للوضع السياسي أى اعتبار عندما أطلقت كلمة شعب على اليهود ، الذين كانوا عندئذ ينتمون إلى دول مختلفة .

كذلك أطلقت كلمة الشعب على الكنديين والاستراليين ، مما يحمل في طياته اعتباراً لذاتيتهم الاجتماعية ، واتخاذها سبباً كافياً لتقرير اختلافهم عن الشعب الأنجليزي ، الذى يشترك معهم في الناحية واللغة والتقاليد .

كما نجد هذه الحالة بين سكان البرازيل وسكان البرتغال ، وبين سكان الأرجنتين

وسكان أسبانيا . ولا يزال دوى عبارة شعب وادى النيل يتردد في آذاننا جميعاً بالرغم من عدم التوحد السياسى بين البلدين .

وهكذا نرى أن مجرد الاشتراك السياسى أو اللغوى أو الجنسى ، لا ينهض دليلاً على وحدة الشعب . هذه الوحدة التى تقررها فى الحقيقة أمور عدة ، كالاشتراك التاريخى والوحدة الجغرافية ووحدة اللغة وأمثالها ، من هذه العوامل التى قد يتخلف أحدها مع تحقق الذاتية الشعبية . وإذا صح أنه من العسير أن نخرج بتعريف لكلمة شعب ، نظراً لاستعمالها استعمالاً غير دقيق ، فأنتا فى دراستنا هذه نعى بعنصر اجتماعى واحد هو العنصر اللغوى . ولذلك فإنه لا يضرنا كثيراً أن تتخلف بعض الجوانب السياسية أو العاطفية ، هذه العوامل التى كان لها خطرها فى تكوين الذاتية السياسية للشعوب فى القرنين الآخرين .

وعلى هذا فعندما نذكر كلمة شعب أو أمة فى هذه المحاضرات ، فإننا لانعنى بها الجوانب غير اللغوية ، كالاشتراك فى الجنس أو الدين أو الوطن . وكل مانعنى بها هو مايسميه العلماء اللغويون باسم « الجماعة اللغوية » . وهى الجماعة من الناس التى تربط بينهم لغة واحدة . ولعلك تجد فى عنوان هذا الكتاب مايشعرك باعتبارين هامين ، هما من الأسس الجوهرية فى تفكيرنا اللغوى . فمن المقرر أن كلامنا هو فى لغته كما هو فى كل أموره الأخرى « شخص » له استقلاله وطابعه الذى يميزه عن غيره من الأشخاص . فهو ذكر أو أنثى فى سن معين وذو لمحات عقلية وجسدية خاصة . ثم هو بعد كل ذلك « فرد » يكون مع سواء من الأفراد جماعة معينة . فهو مصرى أو إنجليزى أو دنمركى . وانباء الفرد للجماعة يتحدد بتحدد الجماعة ذاتها . فالأسرة جماعة ، والقرية جماعة أشمل ، والمقاطعة ثم الدولة وأخيراً الجنس البشرى ، كل هذه جماعات تختلف درجاتها صغراً وعظماً . وقد يمكن أن نضع المسألة فى صورة عكسية ، فأنت أولاً إنسان لك طابعك الشعبى الذى يجعلك مواطناً مصرياً

أو سوريا أو إنجلترا ؛ يمتد إلى إقليم بعينه ثم إلى قرية بعينها . وأنت في النهاية محمد أو علي أو عثمان .

والذي يهمنا الآن وقد وضع لك أن عبارة « الجماعة اللغوية » يمكن أن تطلق على الجماعة صغيرة أو كبيرة ، هو أن نسجل الظواهر اللغوية المشتركة بين أعضاء الجماعة اللغوية الواحدة من ناحية ، وأن نقرر الدور الفردي في هذا النشاط اللغوي .

* * *

لقد مرت بكل منا في حياته المبكرة قبل أن يتعلم لغة غير لغة أمه تجربة لا بأس من الاستفادة بها هنا . وسأروي ما حدث لي أنا بالذات : فلقد كنت بين زملائي من من الصبيان ، أدعى الكلام بالإنجليزية وأياهم ، بألفاظ لا دلالة لها . ثم لاتمضي لحظات حتى تتصنع الكلام بالفرنسية ، فإذا بنا نعيد نفس الألفاظ دون قصد أو دلالة أيضاً ، اللهم إلا أن يكون هذا التظاهر والعبث دلالة في ذاته .

والحق أنه بالرغم من وجود فروق واقعية بين لغة وأخرى ، فإننا لاندري هذه الفروق ، قبل أن يمر بنا وقت طويل نتعرف فيه على هذه اللغات . وأظنك توافقني على أنه كثيراً ما يختلط عليك الصينيون واليابانيون ، كما يختلط على الأوروبي ، المصريون السوريون واليهود . وذلك لأن هناك اشتراكاً جنسياً بين الصيني والياباني ، يماثل الاشتراك الجنسي بين العربي واليهودي . ولكنك حين تدفعك ظروفك لأن تقابل الصينيين مرات عديدة ، أو لأن تختلط معهم وتعايشهم ، فإن هذه المخالطة والمعايشة ، تكشف لك عن خصائص تميز الصينيين عن سواهم من أبناء الجنس الأصغر . وهكذا نستطيع أن نرجع إلى قضية اللغة فنقرر أنه بالرغم من تشابه اللغات النتمية إلى عائلة واحدة كالعربية والعبرية ، أو المصرية والعراقية أو بشكل أضيق القاهرية والصعيدية ، نقول إنه بالرغم من الاشتراك في الخصائص العامة فإن لكل لغة أو لهجة ما يميزها عن سواها من اللغات أو اللهجات . وربما كانت جهالة

العرب بلغة سواهم من الأجناس ، سببا في أنهم قد أطلقوا كلمة العجم على كل من اختلفت لغته عن لغتهم ، لا فرق في ذلك بين فارسي أو يوناني ، فهذه اللغات لم تسكن في نظرهم سوى نجة صوتية ، لا يتبينون لها معالم أو خصائص . ولهذا اختلفت جميعها لديهم ، رغم ما هو موجود في واقع الأمر من فروق شاسعة بينها .

وعندما تتعلم لغة جديدة بطريق الدراسة التقليدية — لا بطريق التعلم المباشر بالحياة مع الشعب الذي يتكلمها — فإن اللغة تبدو لك في هذه الحالة واحدة لا تختلف باختلاف من يتكلم بها من أبناءها . فنحن نتصور أن معنى الجملة العربية « أنا أعطى » هو بالانجليزية « I give » ويؤكد لنا ذلك كتب القواعد والقواميس . ولكننا لو عشنا بين الانجليز لوجدنا بينهم من يقول مثلا « I gives » بل أن كلمة « I » وحدها ، وكلمة « give » وحدها لا تنطق بطريقة واحدة ، مما يجعل من الممكن للدارس الدقيق ، أن يحصى عددا عديدا من الجمل التي تختلف في طريقة نطقها وموسيقاها وعلاماتها الأعرابية اختلافا كبيرا .

* * *

✕ لقد نقل « ليفي بريل » Lévy Bruhl عن « أوجست كنت » Auguste Comte عبارته المشهورة التي تقول: « ليس من الضروري أن نعرف ماهو الإنسان حتى نعرف ماهي الإنسانية ، ولكن من الضروري أن نعرف ماهي الإنسانية حتى نعرف ما هو الإنسان » ومعنى هذا أنه لا بد من التعرف على الجماعة حتى يمكن التعرف على الفرد^(١) . ولكنني أجد نفسي على خلاف هذا الرأي . فإنه ليس من الصواب التعرف على أي منهما للتعرف على الآخر . فالإنسان شيء والإنسانية شيء آخر ،

(١) بتطبيق هذا المنطق على اللغة يتحتم على الإنسان أن يتعلم العربية في عمومها مثلا ليعرف لغة شخص عربي بالذات . أو بعبارة أخرى أن اللغة التي نتلقاها في الكتب وحدة عامة شاملة لا يختلف عنها النشاط اللغوي الفردي لمن يتكلمونها .

كل منهما يعرف بالمقومات المختصة به^(١). وهذا لا يمنع أننا نستعين في التعرف على الفرد بالتعرف على النوع ، أو في التعرف على النوع بالتعرف على الفرد . وإذا صح ما نقرره من أن الفرد موجود بذاته مستقل بكيانه ، فإن لغته موجودة كذلك بذاتها . وإذا صح أن الفرد أيضا يتعاون وينفعل ويتأثر بالجماعة التي يعيش فيها ، فإن لغته كذلك تتأثر بالاتجاهات الجماعية اللغوية . أو بعبارة أخرى ، فإنه لو سلمنا بوجود الفرد والمجتمع ، باعتبار كل منهما وحدة مستقلة ، فإن من الممكن من الجانب اللغوي أيضا ، أن نتكلم عن اللغة الفردية واللغة الجماعية ، وكلا هذين العنصرين يؤثر ويتأثر بالعنصر الآخر .

إن التقدم الواضح الذي أحرزته الدراسات اللغوية لطبيعة اللغة ، لم يحدث إلا بعد أن تقرر هذا المبدأ ، أعني مبدأ استقلال الفرد عن النوع والنوع عن الفرد ، مع الاعتراف بتأثر كل منهما بالآخر .

لقد كانت النظرية التي أثرت على التفكير اللغوي في عصوره المبكرة هي أن اللغة كائن حي ، أو مادة محدودة تعيش وتموت ، كما يعيش ويموت سواها من الكائنات^(٢) .

(١) وبالتالي يجب أن تدرس لغة الفرد باعتبارها وحدة لها كيانتها المستقلة . ولا بأس بعد ذلك من دراسة اللغة الجماعية باعتبارها الفواهر اللغوية المشتركة بين أفراد الجماعة اللغوية .

(٢) قبل بهذا الرأي على أثر أزدهار مدرسة « دارون » التي قالت بارتباط الكائنات الحية بعضها ببعض ، هذا الرأي الذي سيطر على التفكير الفلسفي في سيطرة جعلته أساساً لكثير من النظريات . ولقد كان نصيب علم اللغة من هذا أن قال كثير من المفكرين اللغويين بوجود عائلات لغوية ، كما قالت مدرسة علم الأحياء بوجود عائلات نباتية مثلاً . بل لقد تغالوا في رأيهم ، فقالوا إن العائلة اللغوية ، هي مجموعة من اللغات الأخوات وأنها جميعاً تنحدر من لغة أصلية هي اللغة الأم . وأظنك ترى في ذلك قياساً بالحياة المادية . ولعل ما يقولون من أن اللغة كائن حي يعيش ويموت وينال ، لا يحتاج إلى تدليل على تأثرهم بفلسفة الحياة العضوية ، التي بنتها النمو والازدهار والبقاء . وسنرى عما قريب نقدا لهذا التفكير اللغوي .

ولقد تقرر اليوم أن اللغة ليست في حقيقتها سوى نشاط إنساني، يتمثل من جانب، في مجهود عضلي يقوم به فرد من الأفراد، ومن جانب آخر، في عملية أدراكية ينفعل بها فرد أو أفراد آخرون. وأنت ترى أن هذا الوضع لمشكلة اللغة يجعل الفرد مركز الارتكاز في دراستنا، فهو العنصر الذي يستطيع أن ينتج أو الذي ينتج بالفعل أحداثاً لغوية هي ما يسمى بالجل والكلمات، أو الذي ينفعل بهذه الأحداث. وعلى أساس هذا الوضع أيضا نفهم الظاهرة اللغوية الثابتة « الاستاتيكية » والمحوطة « الديناميكية » أو بعبارة أخرى الظواهر الخاصة بعصر محدد، أو الظواهر التي تمثل تطورا من حالة محدودة في عصر محدود إلى حالة أخرى.

ولن نستطيع بحال أن نفهم تمام الفهم حقيقة اللغة عندما نعتبرها مجرد وسيلة للتفاهم ونقل الأفكار، إذ أن هذا الاعتبار ليس إلا تقريرا لجانب واحد من جوانب اللغة الإنسانية ولا شك أنه من ضيق النظر أن ندخل في حسابنا عاملا واحداً وأن نغفل بقية العوامل في فهم حقيقة من الحقائق. ولقد كان هذا مع الأسف عيباً سائداً في إنتاج كثير من اللغويين :

فلقد قال هرمان بول^(١) Hermann Paul في خطاب له في ميونخ München سنة ١٩١٠ عن وظيفة اللغة « أن الوظيفة الأصلية للغة، أن تكون أولا وقبل كل شيء، وسيلة لنقل العواطف والمعلومات أو سواهما من الأمور ». وإنني أبادر فأرفض رفضاً قاطعاً قبول هذا الرأي. فليس ذلك فقط هو وظيفتها في الأصل، أو في العصر الذي نعيش فيه. ولتو رجعنا إلى الوراء^(٢) مع تاريخ اللغات،

(١) عنوان الخطاب : علم النفس الجماعي « Völkerpsychologie » وقد نشر في مجلة :
Süd deutsche Monatshefte

(٢) راجع كتابي « Progress in Language » ، « Language »

تأليف Otts jespersen

تتفحص أقدم النصوص الموجوة بين أيدينا ، لوجدنا أن هذه النصوص ، ليست وسيلة لنقل الأفكار بالشكل المحدد الذي يفترضه هؤلاء الباحثون . بل إن الذي يبدو من هذه النصوص ، هو أن اللغة كانت على وجه العموم ، أمراً وسطاً بين الغناء والكلام ، أو بين مجرد التنغيم الصوتي الذي لا يقصد من وراء كلماته ومقاطعة غير الجرس والموسيقى ، وهما إن صح أن لهما جانباً تعبيرياً ، فلن يكون غير تعبير عام عن حالة شعورية تدفع لأصدار الكلام ، كما يصدر الغناء والبكاء للتعبير العام عن حالة نفسية معينة ، أقول ، كانت اللغة كاتبدو في هذه النصوص ، أمراً وسطاً بين هذا النوع من التنغيم ، وبين كونها وسيلة لنقل الأفكار والمعلومات بين فرد وآخر . ولو صح أن هذا هو الوضع المبكر للغة ، فليس هنالك ما يمنع أن تكون اللغة البشرية قد تطورت في العصور اللاحقة تطوراً جعل منها وسيلة دقيقة للتفاهم ونقل الأفكار .

وليس من شأني هنا أن أبحث حقيقة اللغة أبان نشأتها الأولى . بل أن الذي يعينني هو أن أعرف على اللغة في عصورها اللاحقة . نعم أريد أن أعرف على اللغة التي بين أيدينا اليوم والتي تعيش مع الأحياء في جميع زوايا الحياة الإنسانية . ولنبدأ بالأشارة إلى آراء ثلاثة متباينة في هذا الصدد .

أولها أن اللغة ليست سوى وسيلة للتعبير عن أفكار الأفراد .

وثانيها رأى تاليراند Talleyrand الذي يقول أن اللغة وسيلة لأخفاء آراء الأفراد . والرأى الثالث هو رأى كريكجارد Kierkegard القائل بأن اللغة قد تستعمل في كثير من المناسبات ، ليستر المتكلم بها خلوه من الأفكار والمعلومات . وهذا الرأى الثالث هو وضع للرأى الثاني في صورة أخرى . واستعمال اللغة لستر بعض الحقائق لا لكشفها أمر شائع ، فكثيراً ما نرى اللغة تستعمل استعمالاً خاصاً بين جماعة من الناس ، بحيث لا يتمكن الدخيل عليها من فهم ما يقولون ، كما يفعل اللصوص مثلاً عندما يواجهون بالبوليس ، فيحذر واحد منهم الآخرين قائلاً « فيه فصين

ياولد» ، أى « يوجد جماعة من رجال البوليس نفذ حذرك » أو مثل هذا مما يمكن أن نطلق عليه لغة التضليل . أما الرأى الأول فتأثير علماء المنطق فيه واضح . وعلماء المنطق يحصرون كل همهم فى اللغة باعتبارها وسيلة للتعبير عن الأفكار ، والأفكار موضوع دراستهم . وقد حدد جيفوز Jevons ^(١) أغراض اللغة فى أمور ثلاثة :

- ١ — كون اللغة وسيلة للتفاهم .
- ٢ — كونها أداة صناعية تساعد على التفكير .
- ٣ — كونها أداة لتسجيل الأفكار والرجوع إليها .

ونلاحظ هنا أن الغرض الثالث لا يختلف كثيراً عن الغرض الأول . فالرجوع إلى الأفكار المدونة هو نوع من تفاهم الإنسان مع نفسه ، أما فى حالة الغرض الأول فالتفاهم يجرى بين الإنسان وبين شخص آخر .

أما عن الغرض الثانى ، فنحن نسلم مع جيفوز بأن وجود اللغة أمر لازم لأمكان التفكير . فكما نسير بواسطة القدمين فأنا نفكر بواسطة الكلمات . ولكننا نلاحظ أن جيفوز قد أغفل أن كثيراً من الفلاسفة يشكون من أن اللغة الإنسانية العادية ، ليست أداة مرضية للتفكير الفلسفى الدقيق . إن لكل لغة طريقاً خاصاً أعده لها ماضيها الطويل . مفرداتها مثلاً محدودة العدد . ولا يمكن أن تكون الأفكار المجردة متساوية فى عددها مع الكلمات الموجودة فى لغة من اللغات .

وكذلك الحال فى عبارات اللغة ، فتركيب الجملة مثلاً ، ومعنى الأسناد أو الأضافة ، وما ينتج عن كل ذلك من الأفكار ، محكوم بالتقاليد اللغوية الموروثة ، لا بالعلاقات المنطقية . وسأوضح لك ذلك بمثالين :

١ — في اللغة العربية نجد كلمة «الجمع» وكلمة «الضم» وهما يعبران عن فكرتين متقاربتين. فلو فرض أن الإنجليزية تستعمل كلمة واحدة هي «Addition» للتعبير عن كلا هذين المعنيين، فأننا نتساءل أي اللغتين أقرب إلى المنطق؟؟ هل هناك نوع واحد أو نوعان أو عشرة للفكرة المعبر عنها بالجمع أو الضم؟؟ الواقع أنه ليس من الضروري أن تتساوى الأفكار المجردة مع عدد الكلمات. فقد تعبر كلمة واحدة عن مجموعة مختلفة من الأفكار، التي قد تعبر عنها لغة أخرى بكلمات متعددة.

٢ — الجملة العربية «ضربت محمداً» والجملة «أنا ضارب محمد»، فهما فكرة وقوع الضرب على محمد. ولكن التركيب يختلف، فهو في الأولى من علاقة الفعل بمفعوله، وفي الثانية من علاقة المضاف بالمضاف إليه. أو بعبارة أخرى يمكن أن نقول، إن فكرة وقوع الضرب على محمد لها طريقان من طرق الصياغة في العربية. وليس معنى هذا وجود فكرتين منطقتين مختلفتين. وهذا مثال لعدم التوافق بين التركيب اللغوي والمعاني المجردة توافقاً دقيقاً. ومثل هذه الأسباب تحاول الفلسفة الحديثة أن تتخلص من التعبير اللغوي إلى التعبير الرياضي^(١). ومهما كان الأمر، فأنى لا أوافق جيفورز عند ما يقول، أن الاستعمال الأصلي للغة كان لغرض التفاهم، في أغلب الحالات إن لم يكن في جميعها. كما أنى لا أوافقه على تحديد أغراض اللغة بهذه الاستعمالات الثلاثة التي سردتها. فهي استعمالات لا يمكن أن تتحقق للسواد العام من الناس، إذ أن الطائفة التي تستطيع التفكير المنظم طائفة محدودة العدد جداً، فهل معنى ذلك أن بقية البشر من غير من ينتمى إلى هذه الطائفة لا يتكلمون؟! وحتى من ينتمون إلى هذه الطائفة المحدودة، لا يمكن لهم أن يقضوا حياتهم في تفكير علمي دقيق، فهم أولاً وأخيراً بشر يخضعون للظروف الجماعية التي يخضع لها كافة البشر.

(١) من الأمثلة الواضحة لهذه المحاولة كتاب «The Logical Syntax of Language»

وهو من تأليف الأستاذ R. Carnap

(١) « Mme de Stael » وسأنتقل بك الآن إلى رأي سيدة نابغة هي مدام دي ستيل « ليست هذه اللغة مجرد وسيلة للتفاهم أو لنقل الأفكار والعواطف وأمثالها من الأمور، ولكنها أداة للعب المازح وللقفزات الروحية التي يعبر عنها بعض الناس بالموسيقى الحاملة أو الثائرة، والتي يتخذ الآخرون الخمر المعتقد وسيلة للحياة في جوها ».

وهذا ولا شك قول معجب. وكل ما أخذ عليه، هو أنها تحصر هذه الميزة في الفرنسية دون سواها من لغات البشر.

وقد تكون لغة من اللغات أكثر طواعية من سواها للتعبير عن اللعب المازح أو القفزات الروحية التي ذكرتهما مدام دي ستيل. ولكن مما لا شك فيه أن لكل لغة من لغات البشر نصيبا من التعبير عن هذه الشاعر. فالسكرة اللغوية - إن صح أن نصف أهازيج الروح الشاعرة بذلك - أمر أنساني يبدو في كل موطن، واستمتاع الخطيب أو الممثل بجرس صوته هو من المتع التي لم يختص بها قوم دون قوم.

ودعني أسألك هل مررت في صباحك بمقهى يطوف بين كراسيه « الجرسون » مناديا « أيوه جاى ياسيدى اطلع بالمطوب »؟ بل أهل استعمت لنفسك ذات مرة أو لزميل لك من طلاب الأزهر يستذكر بعض دروسه مغنيا؟ هل تراك وهل ترى هذا الزميل أو ذلك الجرسون مجرد ناقل للأفكار؟ ألا تحس أن هناك شيئا آخر غير هذا التفاهم الجاف المحدود؟ والحق أنه لو نشأ طفل^(٢) بين قوم من الفلاسفة لا يتكلمون بغير القضية والقياس والقول الحكيم، لما أستطاع أن يتكلم!! ولحكمة ما كانت الأم والربية (إلى حد كبير) آلة كلامية ترسل القول لحساب

(١) أقتبس رأيهما « Gerber » في 1. 79 Sprache als Kunst.

(٢) أنظر ما كتبه Jespersen في كتابه Language عن لغة الطفل.

ولغير حساب . ومن هنا كان لدى الطفل فرصة لا تنقطع لسماع اللغة مهما اعتدلت أو سقمت دلالتها . فأم الطفل وأبوه وأخوه وأخته يبدون له ويعيدون ، عالين كل العلم أن ليس لهذا المخلوق الصغير قدرة — أو ظل من قدرة — على فهم ما يقولون . هل ترى اللغة في مثل هذا الوضع تستعمل للتفاهم ونقل الأفكار ؟

ثم مارأيك فيما نشاهد كل يوم من حديث الإنسان للحيوان ، يداعبه ويلاطفه أو ينهره ويرجره ، إلى زمن قد يطول ؟ ولا أذكر لك ما يدور بين الإنسان والجماد من حديث !! . أما هذا النشاط اللغوي الذي أطلق عليه كلمة الرغاء ^(١) فسترى عندما نعالج موضوعه أن جانب الدلالة فيه ضئيل تأفه .

والواقع أن وظيفة الأعضاء الصوتية لا تقتصر على النشاط ذي الدلالة — أى إنتاج الكلام لقصد نقل الأفكار — بل أنها قد تتخذ أيضا وسيلة للهو والتسلية . ولقد صدق القائل « خير لعب الإنسان لسانه » . وهذا قول لا يقتصر على الأطفال والبدائيين من أبناء الجنس البشري وحدهم ، بل إن أكثر الناس فلسفة وتعننا في تفكيره ، كثيرا ما تراه يهتمهم بأصوات مرسلة أقرب إلى الخرافة منها إلى المنطق .

ولعلك تذكر ما سبق أن قررته لك من أن اللغة نشاط اجتماعي . وأضيف لك الآن أنه ليس دور الكلمات في كل الأحيان أن تنقل فكرة أو توضح حقيقة . بل ويمكنني أن أقول أنها قد لا تكون وسيلة للتعبير عن أحساس مشترك . وخير ما يمكن أن يوصف به الدور الاجتماعي للكلام أنه استجابة انزعج الإنسان الفطرية في أن يثبت وجوده الاجتماعي بأى لون من ألوان النشاط ، وسأمثل لك ذلك في المحاوراة

(١) تقصد بالرغاء الألفاظ التي توجد في اللغة دون أن يكون لها أى معنى محدود وتكثر في الأغاني والأمثال وإليك من أمثلتها في المصرية « أبوح يا أبوح » ، « وهوى يا وهوى » ، « على غلبه باللو » ، « حدارجة بدارجة »

الآتية، التي تجرى في ظرف اجتماعي يتلخص في عودة صديق، ومقابلته لمجموعة من أصدقائه لأول مرة. وفي مثل هذا الظرف قد تجد أحد الأشخاص يعانق هذا الصديق العائد، ثم يهز يده مرة واثنين وثلاثاً. وربما تجد صديقاً آخر من أفراد هذه المجموعة لم يكن له نصيب مماثل من ابتهاج الصديق العائد، يحاول أن يدخل نفسه في هذه الدائرة الاجتماعية، فيتحدث بدوره محيياً أوسائلاً، وهو في حقيقة الأمر لا يعني التحية أو السؤال. ولكنه في الواقع يريد أن يقرر بأنه هو الآخر هناك، له وجود جماعي في هذه الدائرة. وكما ترى فإن عبارة «أزيك» أو «حمد الله على السلامة» قد لا تعني على الإطلاق مدلولها اللغوي. أو بعبارة أخرى أنها كلمات لا تستعمل لنقل الأفكار المعلومات، ولقد درس الأستاذ البولندي الكبير «مالينوفسكي» Malinowski^(١) وظيفة اللغة الاجتماعية دراسة تؤكد المعنى الذي عرضته عليك.

كان مالينوفسكي يدرس حياة سكان جزر تروبرياند Trobriand القريبة من غينيا الجديدة. وقد لاحظ سلوك سكانها البدائي وعلاقة هذا السلوك بالاستعمالات اللغوية. وخرج من بحثه بأنه لا بد لدراسة اللغة في الجماعات البدائية، من أن ننهدها بدراسة أخرى هي دراسة النشاط الإنساني العام. إذ أن اللغة في الواقع هي طريقة من طرق السلوك الإنساني في ظرف عملي خاص. وهي بهذا الاعتبار عامل من عوامل ربط الفرد بجماعته. وربط الفرد بجماعته أمر يسعى له الفرد بشتى الوسائل. فهو يقدر ما يقدرسون ويأتى من الأفعال التقليدية^(٢) ما يأتون. وهو في كل ذلك يقرر عرف الجماعة على نفسه واجباً يتبع وإن خالف اعتقاده بالذات. ولقد بلغ من شأن اللغة باعتبارها وسيلة لربط الفرد بجماعته أن صار من لا يشارك الناس حديثهم - جادين أو عابثين -

(١) أنظر تذييله لكتاب «The meaning of meaning» الذي ألفه الأستاذان

Richards ، Ogden

(٢) كرفع اليد للتحية أو الوقوف عند مرور الجنائز

متكبراً فظاً أو خصماً ما كراً . وللجماعة البدائية شعور عنيف بالخصوصية لمن لا يشترك معهم في لغة اللسان . فمن لا يتكلم لغتك فليس منك ؛ ومن ليس منك فهو عليك . وتخيّل معي شخصاً يدخل على قوم دون إلقاء سلام أو مشاركة في قبلة تتداول أو أزجاء تهنئه أو عزاء ، هل تجد بينه وبين الجماعة ارتباطاً أو تعاطف ؟ الحقيقة أن اللفظ دوراً اجتماعياً — لا باعتبار دلالاته — بل باعتبار ذاته .

وسأضرب لك هذا المثل عند ما « يعطس » فرد في جماعة مصرية يبادر الحضور بقولهم « رحمكم الله » ، فيرد بقوله « هدا نا وهذا كم الله » . هل تظن أن المشتمين يستمطرون رحمة الله له ، وأنه يسأل الله الهداية لهم ؟ لو صح ذلك لأمكن أن يقال له « الله يرحمك يا سي محمد » وأظنك تدرك أن عبارة « الله يرحمك يا سي محمد » إنما تقال « لسي محمد الميت » ، وأن عبارة « رحمكم الله يا سي محمد » إنما تقال « لسي محمد الذي عطس » . وليس هناك من فرق بين الدلالة اللفظية بالمعنى الخاص وبين هاتين العبارتين على الإطلاق . ولكن أحدهما قد ارتبطت ربطاً اجتماعياً بحالة خاصة وارتبطت الأخرى بحالة متناقضة . ثم تصور معي أن « سي محمد » لم يقل « هدا نا وهذا كم الله » وإنما قال « وفقنا الله وأياكم لسبيل الرشاد » — وهي عبارة تحمل نفس المعنى التي تحمله عبارة « هدا نا وهذا كم الله » — هل يكون مثل هذا الرد مناسباً لهذا الظرف الاجتماعي الخاص ؟ الواقع أن العبارات في مثل هذه الظروف تقصد لذاتها ولشكلها المحدد للدلالاتها على الإطلاق .

ثم دعني أضف إلى هذا النوع من الوظائف الاجتماعية للكلام شيئاً آخر هو مثال لعلاقة اللفظ بالظرف الأقليمي أو الاجتماعي الخاص .

١ — لو قلت عن شخص يلعب الكره في نهاية الأتقان « داود خنزير » هل تراك تسبه أو تهينه ؟ أظن لا . وهل يكون الحال كذلك فيما لو قلت هذه العبارة ذاتها عن أستاذك أو أخيك الأكبر في ظروف من ظروف الجدل ؟

٢ — في هذه النقطة الثانية سأروى لك ما حدث لأحد أصدقائي المصريين بانجلترا . كان هذا الصديق يترجم قصة للأستاذ محمود تيمور تبدأ بالعبارة الآتية :
« جالس إبراهيم على الفرن يتحدث » وتخير صديق في كلمة الفرن وهل يترجمها بالكلمة الأنجليزية « Oven » ؟ لو فعل لأثار في نفس الأنجليزى تأثيره في نفسك العبارة « جالس إبراهيم وإخوته على وابور الجاز يتحدثون » !!

٣ — كلمة « Kossi » في اللغة النوبية^(١) معناها « جريد أخضر » . هكذا عرفتها . وكم كانت دهشتي حينما سمعت أولادا يتشاحنون واستعمل أحدهم للآخر هذه الكلمة ، فكانت مثار عراك عنيف . وفشلت في أن أفهم السر المطوى خلف هذه الكلمة . ثم مضى شه أو يزيد شهدت في أثناءه دفن رجل وذبح عنز . ثم رأيت الجريد الأخضر في كلا الحالتين عنصرا اجتماعيا له خطره . فقد كان يدس تحت التراب بعد الدفن ، ويوضع تحت رأس العنز عند الذبح . ودفعني ذلك بطبيعة الحال للتساؤل . فقبل لي إن هذا الجريد إنما يستعمل لاستمطار الرحمة على الميت ، والصبر للذبيحة . ثم ذكرت معركة هؤلاء الأطفال ، وربطت بين هذه لأحداث ، فعلمت أن الجريد رمز للرحمة ، ومن ثم استعمل عند الموت . واستعمال الجريد للموت جعله رمزا للموت ذاته . وهكذا أمكن لهؤلاء الأطفال أن يستعملوا كلمة « Kossi » هذه لاستمطار السكارة والدعاء بالموت .

أولاً ترى في هذه الأمثلة الثلاثة كيف تلعب الظروف والتقاليد الاجتماعية المختلفة في دلالات الألفاظ ؟ وهلا تؤمن على ما قاله المانفوسكى من ضرورة دراسة اللغة ، باعتبارها حدثاً اجتماعياً ، ينفعل بالتقاليد والظروف البيئية . وأنه لا بد والحال

(١) لهجة حلفا أنظر رسالتي للدكتوراه الموجودة بمكتبة كلية دار العلوم بالقاهرة .

هذه من دراسة المجتمع نفسه، إن أردنا دراسة اللغة ودلالاتها دراسة سليمة . ولقد لفت مالنوفسكى كذلك النظر إلى أن اللغة المكتوبة ، ليست سوى صورة هزيلة للنشاط اللغوى الإنسانى . وأن اعتماد الدراسات اللغوية التقليدية على تحليل النصوص المكتوبة فحسب ، هو اقتناص لريشة الذيل وترك القنينة ذاتها تعطير مع الريح .

• • •

ولقد اتجهت الأبحاث اللغوية الحديثة ، عند مناقشة طبيعة اللغة إلى التفريق بين أمرين ، اللغة ، والكلام . وصاحب فكرة التفريق بين هذين الأمرين ، هو العالم السويسرى فرديناندى سوسير « Ferdinand de Saussure » . كما كان تلميذه شارل بالى Charle Balley فضل إيضاحها والترويح لها . كذلك قال العالم الأنجليزى هارولد بالمر Harold palmer بمثل هذا التفريق ، حينما استدعته الحكومة اليابانية لتنظيم الدراسات اللغوية باليابان .

ويرى دى سوسير أن « الكلام » نشاط فردى . فالأفراد وليست الجماعة هم الذين يتكلمون . أما اللغة فهي على العكس من ذلك أمر جماعى ، إذ أنها مجموعة من الصور اللفظية تختزن فى ذهن الجماعى ، هذه الصور التى هى ذات قيم موحدة عند جميع الأفراد . واللغة موجودة قبل وجود الفرد لأنها خاصة بالجماعة ، وهذه ولا شك موجودة قبل وجود أى فرد من أفرادها . والفرد يولد بلا لغة ، ولكنه يرث اللغة باعتبارها تراثاً جماعياً . وليس له فى هذا الميراث أى نوع من الاختيار ، فهو لا يملك التدخل فى اختيار مفرداتها أو تنظيم قواعدها ، بل يرث كل ذلك على الوضع الذى يحده عليه عند ميلاده .

والكلام — وهو أمر فردى — يكون المادة التى تتكون منها اللغة . ولا يكون ذلك بواسطة فرد من الأفراد ، بل بنوع من الاتفاق الجماعى . ودور الفرد

فيه لا يزيد عن تقديم المادة الخام ، وللجماعة وحدها قبول ما تقبل ورفض ما ترفض من هذه المادة ، وإدخال ما ترى إدخاله في نطاق النظام الاجتماعي المسمى « لغة » . وأظنك ترى فيما يقول دى سوسير آثار مذهب روسو المسمى « بمذهب العقد الاجتماعي ^(١) » .

والفرق بين اللغة والكلام ، هو أن اللغة مجموعة محددة من المفردات والتراكيب والتعبيرات ، توجد في كتب القواعد والقواميس مدونة ومحفوظة . أما الكلام فهو نشاط فردي قد يختلف من فرد إلى آخر من أبناء الجماعة اللغوية الواحدة ؛ وذلك لأن عنصر الإرادة في الفرد يجعله قابلاً لمخالفة جماعته فيما اتفقت عليه . وكثيراً ما يرى من أبناء الريف من يقلد في حديثه أبناء المدن . ومثل ذلك ولا شك خروج أراذى عن الأوضاع اللغوية الثابتة بين جماعته اللغوية الخاصة . ومؤدى كلام دى سوسير ، أنه من الممكن أن ندرس اللغة وحدها بعيدة عن الكلام ، لأنها ليست سوى مجموعة من القواعد والمفردات المدونة كما ذكرنا . وبهذا الاعتبار يمكن أن أدرس اللغة الهيروغليفية لأن قواعدها ومفرداتها معروفة ؛ في الوقت الذي لا يمكن أن أدرس فيه الكلام الهيروغليفي ، لأنه لا يوجد من يتكلم هذه اللغة في هذا العصر . والكلام كما ذكرت لك ، نشاط لغوي يقوم به أحد أفراد جماعة لغوية خاصة . وهذه الجماعة اللغوية التي تتكلم الهيروغليفية قد انقرضت ؛ أما ما ألفظه أنا حين أتعلم جملة هيروغليفية ، فليس سوى تقليد للكلام الهيروغليفي الذي كان موجوداً في يوم ما .

(١) يرد على هذا المذهب بأنه من التعسف أن تقول بوجود اتفاق اجتماعي بين الأفراد لإقامة علاقاتهم الاجتماعية . لأن الاتفاق ذاته لا يمكن أى تم إلا بوجود علاقات اجتماعية ، وبهذا تكون المسألة دورية . أما من الجانب اللغوي فمن العبث أن تتصور إمكان الاتفاق على الاصطلاحات اللغوية ، دون أن يكون هناك لغة بالفعل لأن اللغة هي الوسيلة التي يمكن بواسطتها التفاهم للوصول إلى اتفاق .

وبالرغم من اختلاف الكلام واللغة بعضهما عن بعض ، فإن لكل منها علاقة وثيقة بالآخر . فلكلام أفراد الجماعة اللغوية دأثر في فلك القواعد والمفردات التي تتكون منها اللغة . كما أن اللغة ذاتها تتطور بتأثير الكلام . ولدينا مثلاً ظاهرة عامة اسمها « محاكاة النظير » (Analogy) ، وهي ظاهرة قياسية ذات تأثير كبير في التطور اللغوي . هذه الظاهرة تنطبق أولاً في الكلام ، ثم تنتقل بعد ذلك إلى اللغة . وسأوضح لك بالمثل هذه الظاهرة :

نعرف أن الفعل في العربية يتصل بياء التكلم بواسطة لحوق « نون » تفصل بين الفعل والياء ، يسميها النحاة « نون الوقاية » . إذ ليس من الممكن أن نقول « محمد ضربني » بل يتحتم أن نقول « محمد ضربني » . أما الإسم ، فتلحقه الياء دون توسط هذه النون . ولذلك نقول « هذا كتابي » و « محمد ضاربي » . وفي المثال الأخير ، قصدت إلى التمثيل باسم الفاعل « ضارب » ، لأن الموقف بالنسبة إليه قد تغير في العامية المصرية ، بتأثير ظاهرة « محاكاة النظير » . وتوضيح ذلك أن « ضارب » تشبه الفعل « ضرب » في الدلالة وفي أنها مشتقة من نفس الأصول الثلاثية « ض . ر . ب » . ولهذا الشبه بينهما نجد أننا في العامية المصرية نقول « محمد ضاربي » ولا نقول « ضاربي » كما هو الحال في العربية الفصحى .

ولاشك أن مثل هذا الاستعمال قد بدأ استعمالاً فردياً وفي أصل^(١) خاص . ثم شاع هذا الاستعمال من ناحيتين . أولاً من ناحية الألفاظ ، فلم يقتصر ذلك على « ضارب » بل تعداه إلى بقية أسماء الفاعل . وثانياً من ناحية الأفراد ، فلم يقتصر ذلك على فرد خاص من أفراد الجماعة اللغوية بل تعداه إلى سواه من الأفراد .

(١) نعتي بالأصل الحروف الثلاثة (أو الأربعة) التي يطلق عليها النحاة فاء الكلمة ، عين الكلمة ولام الكلمة . وهذه هي التي يمكن أن يقال عنها أنها مصدر الاشتقاق لا صيغة المصدر كما يدعي النحاة .

وعندما تصل المسألة عند هذا الحد — أعني عندما تنتقل من كونها أمراً فردياً إلى كونها أمراً جماعياً — فإنه يمكن أن نقول ، إن تطوراً ما قد حصل في اللغة . وفي هذا المثال ترى بجلاء كيف أن الأمر قد بدأ فردياً — أى كلاماً — ثم صار جماعياً — أى لغة — .

وعلم اللغة هو الدراسة التي تعنى بهذا النوع من الظواهر اللغوية بشقيها ؛ شقها المتطور كما رأيت في تغير الوضع بالنسبة لاسم الفاعل عند لحوق ياء المتكلم به ، وشقها الثابت الذي يبدو لك في دراسة القواعد . أما دراسة النصوص وفهمها وتحليلها وإعرابها ، فيعنى به علم آخر يعرف في الانجليزية باسم « Philology » أو علم تحليل النصوص ، ومثاله ما ترى في كتب شواهد النحو وما ترى في كتاب الكامل للمبرد من أعراب وشروح وتوجيهات لبعض النصوص . ولقد ظل اسم « Philology » يطلق يطلق خطأ على علم اللغة حتى عهد قريب مع الاختلاف الجوهرى بينهما .

ويقبل شارل بالي^(١) تفريق أستاذه دى سوسير بين اللغة والكلام ؛ ولكنه يرى أن دى سوسير قد غالى في اعتبار اللغة أمراً ذهنياً^(٢) ناتجاً عن العقل الجمعى ، بينما يميل هو إلى تغليب الجانب العاطفى . فمن رأيه (أعني بالي) أن هناك كفاحاً مستمراً بين الكلام — الذى هو أمر فردى — وبين اللغة . وإذا صح أن اللغة أداة للتفاهم الجمعى ، فإن الكلام نشاط لغوى فردى يعالج الحياة الواقعية للفرد ، ومن ثم ، فالكلام وحده هو الذى يعبر عن الواقعية والعاطفية ؛ بعكس اللغة التى ليست سوى إمكانيات تعبيرية .

(١) ننقل الأعلام هنا نقلاً حرفياً صارفين النظر عن طريقة نطقها . حيث أن هذا النطق خاص بالبلد الذى ولد فيه المؤلف . أما في خارج هذا البلد فإن النطق يتأثر كثيراً بالطريقة التى يكتب بها الاسم .

(٢) يرى دى سوسير أن اللغة موجودة بالفعل في ذهن الجماعة على شكل مجموعة من الصور الصوتية والدلالية . ولأنود أن نستطرد هنا في تفصيل هذا الرأى ونقده .

ولتوضيح ذلك ، نأخذ الكلمة القاموسية « أقاتل » فأقول لك ، أنها كلمة من كلمات القاموس العربي ، لها دلالة محددة متعارفة بيننا جميعاً . ولكنها بالرغم من ذلك لا تصور قتالا واقعياً ولا تثير انفعالا ، طالما ظلت كلمة قاموسية ، أى وحدة من الوحدات المكونة للغة . وعلى العكس من ذلك نرى أن الكلمة « أقاتل » المستعملة بالفعل في حديث فرد من الأفراد (وهي بهذا الاعتبار داخلية في حدود الكلام) تعبير عن واقعى مادى لها إلى جانب صفتها الواقعية صفتها العاطفية . فهي تصدر عن انفعال نفسى يسبق حديث المتكلم وتنتج انفعالا نفسياً آخر لدى السامع .

ويمكن تشبيه الكلمة اللغوية (أى فى القاموس) بأنها كالعملة فى خزانة البنك ، لها قوة التعامل ولكنها لا تمثل تعاملها بالفعل . أما الكلمة الواقعية (أى فى الكلام) فهي عملة جارية سيارة لها نشاطها وقيمتها الواقعية . ولما كان للكلام هذه الصفة الواقعية الفردية ، فإنه أكثر عرضة للتغيير والتبديل والتحريف ولكل هذا أثره على اللغة ، ولكن فى مرحلة متأخرة .

ورأى بالى هذا ، هو وضع سليم لمشكلة اللغة والكلام .

أما هارولد بالمر ، فيضع قضية اللغة والكلام الوضع التالى :

أن مانسميه لغة هو فى الواقع أمر مركب من شيئين ، فلدينا من ناحية نشاط ذهنى وعضى (١) من جانب المتكلم ، ونشاط مماثل من جانب المخاطب ، ولدينا من ناحية أخرى مجموعة من الاصطلاحات اللغوية من مفردات وتراكيب ، نظمها وتواضعت عليها جماعة المتكلمين ، ليتمكنوا بواسطتها من التفاهم فيما بينهم . وأول

(١) يشمل ذلك ورود فكرة الحديث على ذهن المتكلم وحركات أعضائه الصوتية وإشارات يديه ، وحركات وجهه عند الكلام وكل هذه الأمور التى لها دخل فى أداء أى « حدث لغوى » .

هذين الأمرين هو الكلام ، وثانيهما هو اللغة . وتختلف اللغة عن الكلام كما تختلف حقيقة « السفر » عن جدول مواعيد القطارات والقطار وأشخاص المسافرين .

وليست علاقة اللغة بالكلام كعلاقة القاعدة بالتطبيق عليها . حيث أن للكلام نظرياته المستقلة التي تعالجه ؛ وهي تدخل في نطاق علم النفس اللغوى . ولنظريات الكلام تطبيقات خارجية نشاهدها عندما نرى طفلاً يتعلم لغة أمه أو تلميذاً يتعلم لغة أجنبية . وفي مثل هذه المحاولات التطبيقية نشاهد نشأة انفعالات اللغة وتطورها . ولغة كذلك نظرياتها ، وهي داخلة في نطاق « علم اللغة » . ولهذه النظريات جوانب تطبيقية هي الأخرى ، من أمثلتها تأليف كتاب للقواعد أو تأليف قاموس للغة من اللغات . وفي كل مرة نحاول فيها - بطريقة لغوية - إيصال فكرة من الأفكار إلى شخص من الأشخاص ، نكون مزاولين « للكلام » . ولكننا عندما نحلل علاقة نوع من الألفاظ بنوع آخر ، أو ترتب هذه العلاقات في شكل خاص ، فإننا نكون مزاولين لعمل يدخل في نطاق « اللغة »



وعندما نتساءل عن الفائدة التي نجنيها من هذا التفريق بين اللغة والكلام بالشكل الذي صورته الكتاب الثلاثة ، فإننا نحس فعلاً بالقيمة النظرية والعملية لهذا التفريق . ولسكني ألاحظ عليهم أنهم قد حملوا هذا التفريق إلى حدود الغفلة والتطرف . وسأحاول الآن أن أضع الأمر في نصابه موضعاً العلاقة بين كل من الكلام واللغة .

أما قول دى سوسير الذى ذكرناه فيما قبل ، فإن ما ذكره من « محاكاة النظر » ، وتأثيرها على الصنيع ، وكيف أنها تبدأ أمراً فردياً ، ثم تنتقل بعد ذلك إلى مرتبة الأحداث الجماعية ؛ أقول أنه فى كل ذلك لم يأت بجديد . فمن التعارف عليه بين

دارسى العلوم الاجتماعية ، أن جميع الأحداث الاجتماعية تبدأ فردية ، ثم لا تلبث أن تشيع بين عدد من الأفراد ثم يتسع نطاقها فتتخذ صفة الجمعية . وهكذا نرى أن دى سوسير قد أسبع على ما قاله صفة الابتكار وهو فى حقيقة الأمر يعيد تقرير أمر متعارف عليه ، أو بتعبير أدق يستعمل فى « علم اللغة » بعض النظريات المقررة فى علم الاجتماع .

وأما قوله بأن « الكلام من نتاج الأفراد بينما أن اللغة من نتاج المجتمع » فقول مردود . حيث أن الجماعة ليست سوى مجموعة من الأفراد ولا يمكن بحال أن نعتبرها شيئاً آخر . ودى سوسير هنا لم يأت بجديد أيضاً ، فهو هنا كذلك ناقل عن بعض علماء الاجتماع الألمان الذين قالوا بوجود الجماعة ، وجوداً يختلف عن وجود الأفراد وبأنه إذا صح أن يقال أن للفرد عقلاً فردياً فإن للجماعة كذلك « عقلاً جمعياً » . والحق أن العقل خاصة توجد للفرد لا للجماعة ؛ وأن ما نراه من اختلاف بين تصرف الفرد حين يكون وحيداً ، وبين تصرفه عندما يكون بين عدد عديد من الأفراد ، هو اختلاف فى سلوك الفرد ناتج عن اختلاف الظروف التى توجد من حوله . كذلك لا يعدو الاتفاق فى العاطفة أو الرأى فى جماعة من الجماعات ، أن يكون مجرد اتفاق فى حكم يصدر عن عدة عقول فردية قد تأثرت بظروف ودوافع متشابهة ^(١) . لقد سعى علم الاجتماع فى أول نشأته باسم « علم النفس الاجتماعى » ^(٢) وهذه عبارة تخفى من وراءها خطأ جسيماً . وقد كانت الأساس الذى عليه قامت عبارات خاطئة

(١) من هذه الظروف الاشتراك التاريخى فى العادات والتقاليد . فنحن فى مصر مثلاً نسلم بكثير من المعتقدات والعادات تختلف عما يتقده ويسلم به سوانا من الجماعات . وكثيراً ما أسلم أو تسلم أنت بأمر من الأمور مجرد أن لنا من ماضينا الفسكرى أو السلوكى ما يجعل هذا الأمر فى غير محل المناقشة أو الشك . واللغة نوع من الميراث الاجتماعى التاريخى .

(٢) أساس هذه التسمية أن الجماعة كائن مستقل وأذا صح أن يوجد « علم النفس » وهو يدرس الحالة النفسية للفرد فيجب أيضاً وجود علم يدرس نفسية المجتمع هو المسمى بهذا الاسم .

أخرى من بينها عبارة « العقل الجمعى » وأمثالها من العبارات التى شاعت فى أوائل هذا القرن وأواخر القرن السابق .

ولست أدرى لماذا نقول « العقل الجمعى » ولا نقول « البطن الجمعى » . لقد كان السبب فى القول بالعقل الجمعى ، هو الشبه السلوكى بين عقول أفراد الجماعة الواحدة . ولا شك أن هناك شبيها سلوكيا بين بطون أفراد الجماعة الواحدة أيضاً . ومن ثم يصح أن نتحدث عن « البطن الجمعى » بل وعن « الرجل الجمعى » و « الأنف الجمعى » كما نتحدث عن « العقل الجمعى » . وأى فائدة سنجنحها من كل هذه « الجمعيات » التى يريدنا هؤلاء السادة ؟

الحق أن دى سوسير لم يقل صراحة بوجود العقل الجمعى بالشكل الذى قرره شتينهال « Steinthal » ووندت « Wundt » ؛ ولكنه ولا شك يخطو فى نفس الطريق حين يقول (إن اللغة توجد فى الجماعة بينما يوجد الكلام فى الفرد) ثم حين يقول بأن اللغة وجوداً مستقلاً كالأشياء المادية الأخرى وجود قائم بذاته . أولاً يشهد على ذلك مايزعمه من وجود اللغة فى كتب القواعد والقواميس ^(١) ثم تشبيهه للغة بالرموز التلغرافية أو بجدول مواعيد القطارات ، من كل هذه الأمور الثابتة المحددة المحصورة ؟ لقد وضع دى سوسير نفسه الأمر وضعا سليما فى عبارة أخرى من عباراته حين قال (إن اللغة هى مجموعة من صور الألفاظ مخترنة فى نفوس أفراد الجماعة اللغوية) أى أن اللغة ليست القاعدة ^(٢) وليست الألفاظ

(١) الواقع أن القواميس وكتب القواعد لا تحتوى على اللغة بل على بعض الظواهر اللغوية العامة فقط . وأظنك تسلم بأنه من الممكن أن توجد كلمات بالفعل لا توجد فى القاموس . كما أنك ترى فى كتب النحو العربى كثيراً من تعدد الروايات والأراء مما يدل على وجود قواعد أخرى إلى جانب القواعد التى تعتبر قواعد أساسية تعارف عليها النحاة .

(٢) يخالف هذا رأى المدرسة الشكلية الحديثة التى ترى أن اللغة هى نظام مبتكر لتنظيم العلاقات القائمة من مختلف أنواع الكلمات . وهو رأى قريب جداً من القول بأن اللغة هى القواعد والمفردات .

ذاتها ، بل هي شيء آخر يتمثل في الصور الذهنية ، الموجودة لهذه القواعد والألفاظ في نفوس أفراد الجماعة ؛ إلا في العقل الجمعي كما يؤخذ من عباراته الأخرى .

كذلك نأخذ على دى سوسير ما يقوله ، من أن اللغة الميتة يمكن أن تدرس باعتبارها لغة ، ولا يمكن أن تدرس باعتبارها « كلاما » . وهو هنا يغالى في تفريقه بين اللغة والكلام . والواقع أن الفرق ليس جوهرياً بين من يتكلم لغة ميتة وبين من يتكلم لغة حية ، فالعمليات النفسية في كل من الحالتين متماثلة . فهناك أولاً العامل المثير ، وهو الدافع للكلام . وهناك نشاط الأعضاء الصوتية نشاطاً ذا دلالة ثم هناك الطرف الآخر للكلام — أعنى السامع — الموجود بالفعل ، عندما يوجد سامع يفهم اللغة الميتة التي يستعملها المتكلم أو الموجود بالفرض عند ما يكون الشخص يكتب مثلاً ولا يتكلم بالفعل . ومتى توفرت هذا الجوانب في اللغة فهى ولا شك وسيلة لنقل الأفكار ، لا فرق في ذلك بين أن تكون حية مستعملة أو ميتة مهملة .

ثم إننا نرى طابع المغالاة أيضاً فيما يقرره دى سوسير ، من أن الفرد لا يستطيع التغيير أو التبديل في اللغة ، وأن الجماعة هي التي تقوم بذلك . والواقع أن الفرد هو مصدر التغيير والتبديل في اللغة ، فمن الممكن أن يتكرر الفرد لفظاً من الألفاظ — كما يحدث في الجمع اللغوى — أو أن يرتكب خطأ في نطق كلمة أو تركيب جملة ، ثم يؤخذ عنه ويشيع . وليس اشتراط شيوع الابتكار الفردى في اللغة مغيراً للأمر الواقع ، الذى هو أن الفرد — وليست الجماعة — هو السبب في التغيير اللغوى .

ولو سلمنا لدى سوسير ، بأن الفرد هو المتصرف في الكلام ، فإنه يجب أن نقيد رأيه بعض التقيد ؛ حيث أن هناك حداً لحرية الفرد في هذا التصرف ، لو تجاوزه لما صار كلامه « كلاماً » على الإطلاق . إذ أن تصرف الفرد في الكلام مشروط بالآلات يتجاوز حدود الأفهام . والأفهام أمر تشترك فيه الجماعة وليست أمراً خاصاً بالفرد وحده . ولتوضيح ذلك نمثل لك بالجملة المصرية « كتاب محمد فين » التي يمكن لفرد

من الأفراد أن يؤدي مدلولها كإرأيت أو على أحد الشكلين، « فين كتاب محمد » أو « محمد كتابه فين »، وهو مطلق التصرف في اختيار واحد من هذه الثلاثة . ولكنه لا يستطيع أن يقول « محمد كتاب فين » أو « فين محمد كتابه » أو « كتاب فين محمد » الخ . إذ أنه لو قال ذلك ، لما وجد عنصر الأفهام الذي هو شرط جوهرى في الكلام . ومعنى هذا أن حرية الفرد في الكلام ليست حرية مطلقة ؛ بل مقيدة بالمدى الذى يمكن فى حدوده للجماعة أن تفهم ما يقول . وعلى هذا فبالرغم من أن الكلام نشاط فردى ، إلا أنه فى نفس الوقت يرتبط بعنصر اجتماعى آخر هو « الأفهام » . وقد تكون الحالة الوحيدة التى يوجد فيها نشاط صوتى إنسانى فاقد لعنصر الدلالة ، هو ما يأتیه الطفل الوليد من « رغاء » فى أيامه الأولى ، عندما لا ترتبط الأصوات لديه بأية صورة ذهنية ، أو ما يأتیه الرجل الفريد من أصوات ليست فى نطاق اللغة التى يتكلمها ، يرسلها لمجرد اللهو الصوتى دون أن يكون لها أى ظل من الدلالة . أما فيما عدا ذلك فإن الفرد يتبع فى كلامه الاصطلاحات اللغوية العامة ، التى تمثل الحد الأدنى الذى يتفق فيه جميع أفراد الجماعة اللغوية . ومن الممكن أن نقول إن كل فرد يتلقى هذا الحد الأدنى المشترك ، عند ما يولد أو عند ما يتعلم لغة جديدة ، دون أن يكون له دخل فى تكوينه أو اختيار فى مقداره .

وعلاقة اللغة بالكلام فى رأبى شبيهة بعلاقة معنى الكلمة التى صيغة الجمع بمعنى الكلمة التى فى صيغة المفرد . فدلالة الكلمة « خراف » تتحدد علاقتها بدلالة كلمة « خروف » فى أن معنى الأولى هو أنها تدل على « خروف رقم ١ » و « خروف رقم ٢ » و « خروف رقم ٣ » على التوالى ، حتى تحصر كل العدد الذى أطلقت عليه صيغة الجمع « خراف » عند ما استعملت فى جملة خاصة . واللغة كذلك هى « كلام الفرد رقم ١ » و « كلام الفرد رقم ٢ » و « كلام الفرد رقم ٣ » وهكذا ، حتى تحصر جميع أفراد الجماعة اللغوية التى تحن بإزائها . وإذن فليست اللغة فى حقيقة

الأمر شيئاً آخر غير الكلام كما يرى دى سوسير ؛ بل هى الكلام ذاته ولكن باعتبار آخر . ومفردات اللغة هى جميع ما ينطق به كل أفرادها من ألفاظ ؛ مهما اختلفت درجة شيوعها ^(١) . والأمر كذلك بالنسبة للتراكيب ومخارج الحروف . وقد يقول قائل ، إن مثل هذا الاعتبار سيجعل من العسير جداً أن نحصر أية لغة من اللغات ، إذ كيف يمكن لنا أن نحصر كل المفردات والتراكيب وطرق النطق المختلفة التى يأتونها عشرون أو ثلاثون أو أربعون مليوناً من الأشخاص !! . والجواب على ذلك هين ويسير . فنحن فى الواقع نتحدث عن طبيعة اللغة وطبيعة الكلام . ومثل هذا الحديث نظرى بحت . ولكننا لا نفعل الجانب العملى الآخر الذى هو حصر اللغة وتحديد معالمها . ولهذا تبحث الدراسات اللغوية فى موضوع « اللغة المشتركة » أو ما نطلق عليه عادة عبارة « اللغة القومية » وهى مقدار مختار من التراث اللغوى الضخم ، الذى يتمثل فى نشاط جميع أفراد الجماعة اللغوية . وعلى هذا فليس كل ما يقوله أى فرد من الأفراد جزءاً من « اللغة المشتركة » ، وأن كان ولا شك جزءاً من اللغة بمعناها العام . وهذا الاختيار عملية اجتماعية تقوم على اعتبارات كثيرة سندرسها فيما بعد . ومعنى أن الاختيار عملية اجتماعية أنه يتم تبعاً لظروف خاصة . فمثلاً نجد الألفاظ التى تستعمل فى العواصم ذات مكانة اجتماعية ، تتميز بها على الألفاظ المستعملة فى الأقاليم . ولذلك فإن كلمة « الوريثة » ليس لها من المكانة الاجتماعية ما للكلمة « حمى » التى تناظرها فى المعنى . وكذلك طريقة نطق أبناء إقليم المحلة الكبرى لكلمة « بتاع » المصرية على هذا النحو « بتاعح » ليست مقبولة فى العاصمة ،

(١) كنت بالأمس فى زيارة صديق وعندما أردت الخروج قال لى « بكير » وقد فهمت أنه يعنى نظيراً لكلمة « بدرى » وكلمة « بكير » بالرغم من قلة شيوعها هى من مفردات العربية لأنها استعملت بين جماعة من متكلمي هذه اللغة .

ومن ثم فإنها ليست لهذا الاعتبار من اللغة المشتركة . وسنكتفي هنا بهذا القدر ولنا إلى هذا الموضوع رجعة .

وخلاصة القول أن علاقة اللغة بالكلام هي كعلاقة النوع بالفرد ، التي يتحدث عنها المناطقة . فكل « خروف » يختلف عن كل « خروف » آخر بالذات ، بالرغم من أننا نستطيع أن نتصور معنى عاما مشتركا من جميع « الخراف » ، نطلق عليه كلمة « خروف » في الجملة « الخروف خير من العنز » ، عند ما لانعني خروفا أو عنزا بالذات . والواقع أن الخروف بالمعنى العام ليس موجودا بالفعل ؛ بل هو أمر ذهني . وكذلك اللغة بالنسبة للكلام ؛ فالوجود بالفعل هو النشاط الأنساني وهو نشاط يقوم به فرد أو افراد . ولذلك فأني أرى أن أستبدل تقسيم دي سوسير بتقسيم آخر فبدلا من تقسيم النشاط اللغوي إلى « كلام » و « لغة » أقول بوجود نوعين من اللغة ، هما « لغة الفرد » و « لغة الجماعة » .

إن سر تقسيم دي سوسير المذكور ، هو تفرقه بين الأحداث اللغوية ، باعتبارها أمورا واقعة بالفعل وبينها باعتبارها أمورا عامة تجريدية . فهو يصف « الكلام » بأنه من « نشاط فرد من أفراد الجماعة اللغوية » . والنشاط أمر واقعي ؛ بينما اللغة لديه هي مجموعة من القيم والعلاقات ، وهذه أمور تجريدية . ومقتضى كلامه أن الحديث الواقعي مثل قول شخص كلمة « خروف » ، يصدر من الفرد ؛ حيث أنه لا يمكن أن تنطق الجماعة — التي هي أمر معنوي مغاير للأفراد في اعتباره — كلمة من الكلمات . وكلمة « خروف » القاموسية ، ليست كلمة واقعية ، بل هي عرف جماعي يربط مجموعة من الأصوات بدلالة من الدلالات . وهذا النوع من الاعتبار محل للنقد . وذلك لأن كلمة « خروف » التي أنطق بها بالفعل هي « كلام » في رأيه لأنها حدث واقعي . ولو نطقنا أنا أيضا بكلمة « حصان » ، فهل هذا كلام آخر أم هي نفس الكلام السابق ؟ لا أظن أن يكون نطق بكلمة « خروف » متضمنا نطق

بكلمة « حصان » . ولكن هل معنى هذا وجود كلامين مختلفين لى لأنى نطلقت بكلمتين ؟ وهل يكون لى ألف كلام حين أنطق بألف كلمة ؟

أظنك ترى نقطة الضعف فى رأى دى سوسير ، وأساسها هو أنه اعتبر التجريد عملية تجزئ فى حالة الجماعة دون الفرد . والواقع أن عملية التجريد تجزئ فى حالة الأفراد كذلك . فأنا لو قلت هذه الجمل ، « هذا خروف » « هذا خروف » « هذا خروف » ، فأن هناك ثلاثة جمل واقعية ، ولكن هناك جملة واحدة تجريدية منسوبة إلى فرد من الأفراد . وهنا تقدم لك ركنا آخر من أركان تقسيمنا للنشاط اللغوى هو « الحدث اللغوى » . وبهذا يكون لدينا أمور ثلاثة « حدث لغوى » وهو نطق فرد خاص لعبارة خاصة مرة واحدة . فلو فرض أن أعاد الفرد نفسه العبارة نفسها ، فهذا حدث لغوى آخر يغاير تمام المغايرة الحدث الأول . ولدينا إلى جانب الحدث اللغوى « اللغة الفردية » . وهى قيم لغوية مجردة لدى فرد من الأفراد كتصورى أنا أو تصورك أنت لدلالة كلمة « خروف » . وهناك « اللغة الجماعية » وهى مجموعة القيم اللغوية لدى فراد الجماعة اللغوية الواحدة .

لقد وصف دى سوسير اللغة بأنها مجموعة من الصور الذهنية للكلمات والتراكيب اللغوية الموجودة لدى جماعة لغوية خاصة . ومستقر هذا الصور أذهان الأفراد . وهل لنا أن نتساءل عن حقيقة الصور الذهنية المستقرة فى ذهن فرد خاص ؟ هل هى كلام أم لغة ؟

ولقد اشترط أن يكون الكلام نشاطاً واقعياً . والصور الذهنية لدى فرد خاص ليست نشاطاً واقعياً . وإذن فليست بكلام على حد تعريفه ، ولكنها ليست لغة أيضاً لأنها أمر فردى واللغة أمر جماعى . وإذن فماذا تكون هذه إن لم تكن كلاماً ولم تكن لغة ؟؟ هنا لانجد من كلام دى سوسير ولا من كلام أتباعه رداً .

كذلك يجعل دى سوسير القاموس وكتب القواعد تمثيلاً للغة ، وهى أمر

جماعى؛ لامتثالا للكلام الذى هو أمر فردى . ولكن ما قول دى سوسير فى وجود قاموس خاص بهوميروس الشاعر الأغريقى قاموس خاص بشكبير ، كما توجد كتب خاصة للقواعد التى جرى عليها كل من هذين الشعراء ؛ هل يكون القاموس مجالا لتسجيل النشاط اللغوى الفردى على غير ما قرره دى سوسير ؟ ؟ !

الحق أن حل هذه المشكلات يسير ؛ حين نقول بالتقسيم الثلاثى الذى قدمناه . فالواقع اللغوى يكون « أحداثا لغوية » . أما العلاقات والقواعد والأمور التجريدية فهى لغة . وقد تكون اللغة « فردية » ، حين تكون هذه القواعد والعلاقات والتجريدات خاصة بفرد من الأفراد مثل شكبير والمتنبى . وقد تكون اللغة « جماعية » حين تكون هذه الأمور عامة تشمل الجماعة كلها مثل كتب النحو العربى والقاموس المحيط .

ولقد قال همبولدت (Humoldt) أن اللغة ليست مجرد ما يقال ؛ بل ما قد قيل أيضا . ولعللى أكون على صواب حين أضيف إلى « ما قد قيل » ، « ما قد سمع » ؛ فإن الذى لاشك فيه أن عنصر الذاكرة اللغوية ذو دخل فى إحداث كل نشاط لغوى . وليس من الأمور التى أحاول تقريرها هنا عنصر « الذاكرة » والدور الذى تقوم به فى النشاط اللغوى ، حيث أن هذا الموضوع داخل فى حدود علم النفس أو الفرع الخاص منه الذى يسمى « علم النفس اللغوى » . ولكننى أقرر تقريراً عابراً أن الذاكرة اللغوية ذات علاقة وثيقة بالإحساس السمعى . فأننا حين نتعلم لغة من اللغات نتلقاها عن طريق الإحساس السمعى أو عن طريق الكتابة التى هى تمثيل صناعى لعملية السماع . ولذا كره اللغوية أساس من الماضى ، ونشاط هذه الذاكرة الواقعى يتعلق بالزمن الحاضر ، أما نشاطها بالمكان فعلاقته بالمستقبل . ومعنى هذا أن الذاكرة اللغوية جانبين أحدهما النشاط الواقعى أى إبراز « أحداث

لغوية « كما تقول « محمد قام » ؛ ونشاط بالقوة كما يحدث عندما تحاول أن تقول « قام محمد » ولكنك لأمر ما تتوقف عن قولها .

ولا شك أن الجملة في الحالة الأخيرة ذات وجود ذهني ، وإن لم تكن ذات وجود واقعي .

والحق أن لدينا ثنائيتين ؛ الثنائية الأولى هي الثنائية التي نطلق عليها (لغة الفرد — لغة المجتمع) والتي أطلق عليها دي سوسير وتابعوه (كلام — لغة) . والثنائية الثانية هي التي يمكن أن نطلق عليها (الحدث الواقعي — الحدث الإمكاني) . والحدث اللغوي هو الطرف الواقعي (لا الإمكاني) من هذه الثنائية الأخيرة .

وللجانب الواقعي (أي الحدث اللغوي) أركان عديدة . فهناك الفكرة التي نريد التعبير عنها ، وحركات أعضاء النطق ، والأصوات الناتجة عن نشاط هذه الأعضاء ، وكون هذه الأصوات قابلة للإدراك أو كونها تدرك بالفعل ؛ وذلك عند وجود سامع يدرك هذه الأصوات ودلالاتها إدراكاً فعلياً .

وعند وجود سامع تكون العملية اللغوية (أو الحدث اللغوي) مختلفة عن حالة عدم وجود السامع . وذلك لأن وجوده يجعل العملية اللغوية شاملة للنشاط اللغوي الذي يحدث في أعصاب السامع ، لأن العملية لا تنتهي بإنتاج أصوات ذات دلالة — كما هو الحال عند عدم وجوده — بل إن تكملة العملية تكون بإدراك السامع لدلالة هذه الأصوات . وذلك يستلزم نشاطاً عضوياً (في أذن السامع) وعصبياً يتمثل في وصول الإشارة السمعية من الأذن إلى المخ ، ثم أدراك المخ تبعاً لذلك . وهذا النشاط شبيه بالنشاط العصبي الذي يحدث في مخ المتكلم قبل النطق بالحدث اللغوي^(١) .

(١) يتمثل هذا النشاط العصبي في مرور تيارات كهربائية في أعصاب المخ تمكن علماء التشريح من تسجيلها عند القيام بالعمليات الإدراكية . وبالرغم من ازدهار دراسات المخ فأما لم نصل لحل مشكلة عملية الإدراك إلى اليوم .

ووظيفة الحدث اللغوي هي أنه وسيلة تثير في الذاكرة صورة لنشاط صوتي مماثل له، ارتبط بمعنى شبيه بالمعنى الذي يرتبط به الحدث نفسه. وهذه العملية، كما سبق أن ذكرت لك، عملية اجتماعية؛ أي أنها لا يمكن أن تكون بين الفرد ونفسه؛ بل لابد على الأقل من طرفين متكاملين ومخاطب. فلو فرض أني عندما أذهب إلى النوم أقول لنفسى هذه الأصوات « ستونفا » — وهي مجموعة من الأصوات لا ترتبط بأى معنى من المعانى لدى أية جماعة لغوية على ما أعلم — فإن هذه الأصوات ترتبط فى نفسى وحدى بمعنى الذهاب للنوم^(١). وهى بهذا الاعتبار كلام عند دى سوسير، حيث أنها — حين تقال — نشاط صوتى فردى ذو دلالة. ولكن ليس لها صفة جماعية، حيث أنه لا يوجد سوى أنا من يدرك ارتباط هذه الأصوات بفكرة الذهاب إلى النوم. ولهذا فليست هذه من وجهة نظرنا كلاما^(٢) على الإطلاق، فإن من عناصر الكلام الجوهرية عندنا أن تكون قيمته الدلالية معترفا بها جماعيا. ولن تكتسب مثل هذه الكلمة صفة لغوية على الإطلاق، ألا حين تتجاوز الحد الفردى فيعرفها خادى أو أمى أو أخى. ولو فرض أن آخرين عرفوا ما أقصد بهذه الأصوات، ولكنهم لم يستعملوها، فهى فى هذه الحالة من « اللغة الفردية » ولا أكثر. ولكنهم لو بدأوا فى استعمالها هم الآخرون، فقد أصبحت من « اللغة الجماعية ». « واللغة الجماعية » لا يتحتم أن تكون لغة الشعب كله، بل يكفي أن تكون مستعملة فى حدود الأسرة، أو فى حدود جماعة من الأصدقاء^(٣).

(١) هكذا يبدأ إدراك الطفل للرموز اللغوية فهو يرتبط بين مجموعة من الأصوات وبين بعض الأحداث أو الأحاسيس. وكثيرا ما لا تكون هذه الأصوات ذات دلالة لدى أى شخص سواء. ثم تلاحظ الأم علاقتها بهذه الأحداث أو الأحاسيس فتستعملها وبذلك تصبح كلمة خاصة بمعنى أنها صارت متداولة اجتماعيا ولكن فى دائرة ضيقة من دائرة الطفل والأم.

(٢) أى لن تكون من اللغة الفردية. لعلك تذكر أن المؤلف قد استبدل تقسيم دى سوسير « الكلام واللغة » إلى تقسيم آخر « لغة الفرد — لغة المجتمع ».

(٣) فى هذه الحالة تكون اللغة (لغة خاصة) .

وفي هذا المثال تستطيع أن ترى الطريقة التي يرق بها الابتكار الفردي إلى مستوى اللغة . وقد تم ذلك على درجات ، هي ابتكار اللفظ ، واستعماله لدلالة خاصة ، ثم تقليد اللفظ المبتكر باستعمال آخرين له . وهنا تكتسب الكلمة الجديدة صفة جماعية . ولو كانت الجماعة المقلدة جماعة محصورة كالعائلة مثلاً ، فإن الكلمة تسكون من اللغة الخاصة . أما لو كانت جماعة كبيرة ، كالشعب ، أو كل سكان الأقليم فنحن أمام لغة عامة .

وهذه الحالات اللغوية الثلاث تقابل أموراً اجتماعية أخرى ، هي الفرد ، والجماعة المحدودة ، والجماعة العامة .

ويلعب التقليد دوراً هاماً في الحياة الإنسانية بصفة عامة ، واللغوية بصفة خاصة . فالعقائد والتقاليد والعادات وسواها من الأمور الاجتماعية ، وليدة تقليد الفرد لسواه من أبناء جماعته ، تقليداً سلوكياً أو منطقياً ^(١) .

وليس التقليد قاصراً على الأطفال وحدهم ، بل هو أمر عام يظهر بين الصغار والكبار . وقد يأتيه المرء بطريقة شعورية كما تقلد أنت صوت أحد المغنيين ، أو بطريقة غير شعورية ، كما تقلد فتاة قاهرة السلوك الأوربي الذي بدأ يشيع بين أوساط الفتيات . وفي هذه الحالة الأخيرة يندفع المرء مع تيار (الموده) دون دراية منه بأنه في الواقع مقلد . ومن هذا النوع الأخير ، التقليد في إلقاء الشعر والخطب — فبالرغم من شعور الخطيب أو ملق القصيدة ، بأنه لا يأتي ألا بطريقة هو في إلقاء الشعر أو الخطبة ، ألا أن هذه الطريقة كثيراً ما تكون غير مبتكرة .

(١) التقليد في السلوك ظاهر أما التقليد في التفكير فيظهر في الأمور السامة في بيئته البيئات . وإليك مثلاً تسليمنا في مصر بنبوه محمد وتسليم المسيحيين بنبوة عيسى لله . وأظنك تلاحظ أنني أعني بالتقليد المنطقي والفكري اعتناق بعض الآراء لا القيام بعملية منطقية لتبرير أمر أو نفيه .

ولا يحنج التقليد اللغوى دائماً لاختيار أحسن التعبيرات ، فكثيراً ما تقلد الخطأ . وعبرة (خطأ شائع) معروفة لدينا نحن دارسى العربية وكثيراً ما تتداول الحديث عنها .

وليس التقليد عاملاً هاماً فى خلق الحياة المتمدة فحسب ، ولكنه عامل هام كذلك فى كسب اللغة ، فى كل مراحل تعلم الإنسان لها . ولولا تقليد الطفل لأمه وأخوته ومن حوله ، لما تكلم كلمة واحدة . ولولا تقليد الكبار بعضهم بعضاً ، لما كان فى اللغة تجديد أو تطور . وكما يكون التقليد اللغوى فى المفردات والتعبيرات يكون كذلك فى الأثر النفسى الذى تنتج عنه وتحدثه هذه المفردات والتعبيرات . ولقد مر بك أن للكلمة أو العبارة جانبين ، جانب صوتى وجانب دلالى . والجانب الدلالى يرتبط بعملية نفسية لدى المتكلم قبل النطق ، وبعملية نفسية لدى السامع بعد السماع . والتقليد اللغوى عملية تشمل الجانب المادى (أى النطق) والجانب النفسى (أى الدلالة) .

ولقد يقول قائل ، إنه من السهل أن تتصور التقليد فى الأصوات ، فإنتاج الأصوات عملية آلية خارجية يمكن تقليدها . أما الجانب النفسى فهو جانب غير مادى ، فكيف يمكن فيه التقليد ؟ . ولرد على مثل هذا التساؤل نقول ، إن علم النفس قد أثبت أن فى الإنسان غريزة اسمها (المشاركة الوجدانية) . فأنت لو جلست مع قوم يضحكون لوجدت نفسك تضحك معهم ، دون أن تدرك السبب الذى من أجله يضحكون . ولقد قيل إن الموسيقى الذى يزاول العزف على البيانو ، يحس بتعب فى عضلات ذراعيه ، عندما يسمع عزفاً عتيقاً على البيانو . ولقد قرر العالم النفسى « ستركر » Stricker أن الشخص عندما يسمع كلاماً يدرك معناه ، فإن أعضاء نقطة الداخلية (كمضلات الحنجرة والحبال الصوتية) ، تتحرك حركات شبيهة بالحركات التى تتحركها عند النطق ، مع فارق أنها لا تبلغ مبلغها من القوة . ولا شك أن من المشاركة الوجدانية ،

مانلاحظ من اشتراك السامعين في ترديد أغنية يفنيها أحدهم ، ثم ما يحدث من ترديد بعض السامعين لها ؛ عند ما يكونون منفردين .

والمشاركة الوجدانية تضيف على التقليد اللغوي صفة الأصالة . فأننا حين أتكلم « اللغة الإنجليزية » أقلد ولا شك الانجليز . ولكني حين أشارك الإنجليز إحساسهم بمعاني ألفاظهم ، وعواطفهم التي ترتبط بدلالاتها ، تكون هذه اللغة بالنسبة لي لغة أصيلة . وهكذا يمكن أن يقال ، إن « لغة الفرد » لغة تتمثل فيها ذاته المستقلة عن ذوات غيره من أفراد المجتمع ، وإن كانت هذه اللغة في حقيقة الأمر نقلا وتقليداً للغة غيره من الأفراد .

وهكذا نحس في أعماق نفوسنا حين نتكلم لغتنا القومية ، بأننا نبتكر التعابير والأساليب ، ونحن في حقيقة الأمر ناقلون . إن الأمر في الواقع تأثير بالجماعة وتأثير فيها ، وأخذ منها ورد إليها ، وإن كنا لا نستطيع تحديد مواضع الأخذ ومواضع العطاء . وإن الأمر ل يبدو كما قال الشاعر الألماني جوته :

بحسب نفسك قوة تسيير الكون ، وما أنت إلا مادة يسيرها الكون .
أو كما صوره الشاعر العربي .

كالبحر يطره السحاب ، وكالسحاب يأخذ من البحر .

الفصل الثاني

تأثير الفرد في اللغة

كتب الأستاذ ل. جوشات « L. Gauchat » بحثاً⁽¹⁾ عالج فيه تأثير الفرد في اللغة . وقد كان موضوع هذا البحث ، هو تتبع الفروق الصوتية بين أفراد الجماعة اللغوية ، التي تقيم في المنطقة الفرنسية من سويسرا ، المجاورة لمدينة بول « Bulle » ، في مقاطعة ، فريبورج « Fribourg » .

ولم يكن للفرنسية الأدبية في لغة الحديث في هذه المنطقة من تأثير يذكر ، اللهم إلا في بعض الحالات ، التي تقتض فيها لغة الحديث بعض المفردات أو التراكيب من اللغة الأدبية . أما من الناحية الصوتية ، فلم يكن لها أثر يعتد به . ولقد كان انعزال هذه المنطقة ، سبباً في عدم التقاء سكانها بمن ينطقون الفرنسية الأدبية . وبالتالي ، ظلت لغة الحديث لديهم تحتفظ بوضعها الخاص ، فيما يتعلق بمخارج الحروف ، والنبر ، وسوى ذلك من الظواهر الصوتية .

ويتوقع الإنسان لأول وهلة ، أن يكون هناك اتفاق ، في طريقة نطق الألفاظ بين أفراد هذه الجماعة اللغوية . ولكن جوشات يقرر عكس ذلك ؛ فقد اكتشف فروقاً كبيرة ؛ بين أبناء الجزء الأول من هذه المنطقة . ولما انتقل إلى جزء

(1) L' unité Phonétique dans Le patois Comune. (Festschrift Monf. 1905)

آخر ، يبعد عن الجزء الأول مسافة ثلاثة أميال ، وجد فروقا صوتيه بين أفرادها ، تماثل الفروق التي وجدها بين أفراد الجزء الأول . وكذلك كان الحال في الجزء الذي يليه ، والذي يليه .

وقد خرج جوشات من ذلك ، بأن الفروق ليست فروقا مكانية ؛ بمعنى أن اللغة في جزء ما من الأقليم تختلف عنها في جزء آخر ؛ بل إنها كانت فروقا زمنية ، أي فروقا بين جيل وجيل . لقد كان الاختلاف اللغوي بين أبناء جيلين مختلفين في جزء واحد ، أكثر مما بين أبناء جيل واحد في جزئين مختلفين . وقد كان ذلك بالرغم من انعدام صلة التخاطب بين جزء وآخر ؛ حيث أن الظروف الجغرافية ، قد عزلت أجزاء هذا الأقليم بعضها عن بعض .^(١) ولو حدث وقارنت لغة اثنين من الشيوخ ، كل منها ينتمي لجزء من هذا الإقليم يختلف عن الجزء الذي ينتمي إليه الآخر ، لوجدت بين مخارج الحروف لهما من الشبه ، أكثر مما تجد بين أحدهما وبين شباب الجزء الذي ينتمي إليه .

ولهذا قسم جوشات السكان ثلاثة أقسام : —

- ١ — المعمرون . وهم بين الستين والتسعين . وهؤلاء ينطقون الكلمات بطريقة قديمة ، كثيراً ما تبدو غريبة لسواهم .
- ٢ — المحدثون . وهم دون الثلاثين ، وهؤلاء ينطقون ألفاظهم بطريقة حديثة .
- ٣ — المتوسطون . وهم بين الثلاثين والستين . وهؤلاء يكتفون في نطقهم حداً أوسط بين المعمرين والمحدثين . ولقد لاحظ جوشات أن هؤلاء يستعملون الأصوات القديمة ، إلى جانب الأصوات الحديثة ، دون أن يكون لهم في اختيار هذا أو ذاك قاعدة خاصة . كما لاحظ أنهم يلتزمون في بعض الكلمات طريقة النطق الحديث . وفي بعضها الآخر طريقة النطق القديم .

(١) لاحظت مثل هذه الملاحظة ، عند قيامي بأبحاثي لرسالة الدكتوراه في إقليم النوبة بشمال السودان .

أما النساء ، فقد كن أكثر ميلاً لاتباع طريقة النطق الحديث . وقد حدا هذا بجوشات إلى أن يقرر ، أن دور المرأة في التطور الصوتي ، أكبر خطراً من دور الرجل . وقد علل ذلك بأن النساء لا يعشن جيلهن فحسب ؛ بل يشاطرن الأجيال الناشئة حياتهم كذلك ؛ فهن أكثر من الرجال صلة بالطفل والفتى . والأمر على العكس من ذلك بالنسبة للرجال ، حيث أن مجال نشاطهم هو المصنع أو المزرعة ، حيث يشاركون هذا النشاط سواهم ممن يماثلونهم في السن . وعند ما يرجعون إلى أهلهم ، يكونون على حالة من الإجهاد ، تجعلهم غير ميالين للحديث الكثير في شؤون المنزل والأطفال ، ومعنى ذلك أن البيئة اللغوية للمرأة هي بيئة الجيل الناشئ ، بينما أن البيئة اللغوية للرجل ، هي بيئة الشباب والكهول .

* * *

هذه الفروق ولا شك ، تمثل تطوراً انوياً . ولكن مادور الفرد في هذا التطور ؟ هل بدأ التطور أمراً فردياً ، بمعنى أن الاختلاف الصوتي ، في مثال ما ، بين الطريقة القديمة والطريقة الجديدة للنطق ، بدأ أمراً فردياً ثم انتشر من فرد إلى أفراد ؛ ومنهم إلى دائرة أوسع ، حتى أصبح أمراً مقبلاً مقبولا لدى الجميع ؟؟

لا يبدو من كلام جوشات أنه يقول بذلك . بل إنه يقول صراحة (ليس للفرد أى دخل في هذا التطور الصوتي ؛ فإن الشخص الأول الذى نطق ، « du Pa » بدلا من « dou pa » ^(١) ، لم يلاحظ بينهما أى فرق ، بل ولم يلاحظ سواه أى فرق أيضاً ، بين مايقول وما يقوله الناس . وهكذا لا يمكن أن يكون محل تقليد منهم ، والملاحظة تسبق التقليد دائماً ^(٢) . ولم يجد جوشات في المادة التي جمعها بقلد

(١) فوق الصوت a من كلمة Pa في كل من المثالين علامة أنفية مدونة بالطريقة المصطلح عليها عند الجمعية العالمية للدراسات الصوتية . ونأسف لعدم إمكان تسجيل هذا بحروف الطبعة العربية .

(٢) هكذا يبدو من كلام جوشات وعند عدم إمكان الملاحظة لا يمكن بناء على ذلك أن يكون تقليد .

دراسة ما يبلغ خمسين لغة فردية لأبناء هذه المنطقة ، ما يثبت لديه مثل هذا التأثير
الفردى ، فى تطور اللغة التى يتكلمها أبناء هذه الجماعة اللغوية .

ونلاحظ على جوشات ، أنه فى حكمه هذا عظيم المغالاة . بل إن القارىء
يستطيع أن يجد بين ثنايا ما كتبه هو ، ما يصحح هذه المغالاة . فقد صرح (صفحة
١٩٣ من هذا البحث) ، بأن تأثير الفرد فى دائرة المفردات ، عظيم جداً . وبأن
الآباء يؤثرون على أبنائهم ، والأصدقاء على أصدقائهم ، فى تفضيل تركيب على تركيب ،
أو لفظ على لفظ . كذلك لاحظ جوشات ، أن بعض العائلات قد تخصص ببعض
المفردات التى لا يستعملها سواها من أبناء الجماعة اللغوية .

وهكذا تراه يعترف بتأثير الفرد فى نطاق الألفاظ والتراكيب . ولسنا ندرى ،
لماذا يقتصر تأثير الفرد على جانب خاص من جوانب النشاط اللغوى ؟! ولماذا ينفرد
الجانب الصوتى ، دون الألفاظ والتراكيب ، بأنه غير خاضع للتأثير الفردى ؟! ؟
كذلك يناقض جوشات نفسه (ص ٢٠٧) ، حين يقول بأن التقليد — وهو
أمر فطرى — يسبب كثيراً من التجديد فى طريقة نطق الأصوات ، وخاصة لدى
الأطفال . وكثيراً ما يحدث ، أن يكون التجديد جنوحاً عن نطق عسير ،
وخلوصاً إلى نطق سهل يسير .

ويشبه جوشات عمالية التجديد هذه بقوله ، « فلنتصور أن طريقاً ما يصل
إلى نقطة معينة ، بعد أن يدور حول حقل من الحقول ، وأن شخصاً ما أراد أن يصل
إلى هذه النقطة معينة ؛ ولكنه لم يسلك الطريق المذكور ، بل اخترق الحقل
بدلاً من أن يدور حوله . أما صاحب الحقل ، فلم يبد اعتراضاً ؛ وأما سواه من المارة ،
فقد رأى فى هذا الطريق الجديد وسيلة أسرع للوصول إلى النقطة المذكورة .
وهكذا سار فى الطريق الجديد ثان وثالث . وعبء السابق للآحق ، حتى هجر
المارة الطريق القديم العسير . إلى الطريق اليسير الجديد : تصور كل ذلك ، وقس

عليه ما يحدث في حالة التطور الصوتي . وهنا يعترف جوشات صراحة بتأثير الفرد في مجال الأصوات ، وهو التأثير الذي نفاه من قبل نفياً قاطعاً ! ! .

ولكن جوشات ، بالرغم من تسليمه بضرورة وجود الشخص الأول الذي شق الطريق الجديد ، يتساءل في حكم عن الرائد اللغوي ، الذي تسير على أثره قافلة التقليدين ! « هل تراه طفلاً موزه غنى أبيه ؟! أم هل تراه ابناً لأحد المدرسين العارفين ؟! » .

ويحسب جوشات أنه بتساؤه هذا ، يهدم حجة القائلين بتأثير الفرد في التطور الصوتي .

والإجابة عن تساؤه هيئة يسيرة ، لمن يلاحظ سلوك الأطفال أثناء لعبهم الجمعي . فمن الملاحظ ، أن لبعض الأطفال مركز الزعامة بين زملائهم الصغار . وهؤلاء هم دائماً منهم في محل التقليد ، في كل ما يفعلون وفي كل ما يقولون . وليس ما يضي على هؤلاء مركز الزعامة ، هو مكانة آبائهم الاجتماعية . بل صفات ذاتية لهم تميزهم وتضعهم في محل الصدارة .

* * *

ومع كل ذلك ، فإن جوشات يقول بأن التغير أمر حتمي طبيعي ، وليس أمراً خاضعاً لإرادة فرد متميز أو غير متميز . ومعنى أنه أمر حتمي طبيعي ، أنه يحدث لأول مرة بصفة غير فردية ؛ وذلك بأن ينطق النطق الجديد شخص في مكان ما ، ثم يتألف ؛ وينطقه في نفس الوقت شخص ثان في مكان ثان ، وثالث ورابع في مكان ثالث ورابع ، ثم يتألفون وهكذا . وقد يبدو النطق الأول بالطريقة الجديدة ، خطأ غير مقبول ؛ ولكنه يشيع بالتقليد حتى يصير أمراً مقبولا .

وعلى فرض التسليم برأى جوشات هذا ، فإنه لا يعني عدم تأثير الفرد في التطور . ولو قبلنا ما قال ، من أن طبيعة اللغة ، تقتضي أن يبدأ التطور أفراد

متعددون في أمكنة متعددة وفي وقت واحد ؛ فإننا بالرغم من ذلك لانفي تأثير الفرد بل تؤيده .

أما ما يعنيه جوشات بمباراة « طبيعة اللغة » ، فأمور عديدة تتحدث إليك عن بعضها ، موضحين ما ذكر لك بالمثل :

١ - سهولة المخارج وصعوبتها : والسهولة والصعوبة أمران نسيان . فنطق « ق » سهل لدى طلاب الأزهر ودارسي اللغة العربية ، ولكنه عسير على نساء الريف غير المثقفات ، اللاتي ينطقن بدلا منها الصوت « ك » فيقلن « كران » بدلا من « قرآن » . كذلك من العسير على غير المثقفين من المصريين نطق الصوت الانجليزي « V » . ولذلك نجد أن هذا الصوت ، يستبدل في الكلمات الانجليزية المتقدمة في العامية المصرية ، إلى « ب » أو « ف » . فمثلا نقول خادمتي ، عن المسحوق الذي يستعمل لغسل الأواني ، والمسمى « Vim » ، كلمة « بيم » (بالباء) . وفي نفس الوقت يقول عنه البدال الذي يبيعه لي كلمة « فيم » (بالفاء) . وأظنك تلاحظ أن البدال متأثر بطريقة الكتابة العربية لحرف « V » ؛ وهو تأثير لا تخضع له خادمتي ، التي تعرف الكلمة بسماعها في المنزل تنطق نطقا إنجليزيا سليما . ومثل هذا أيضا كلمات « برانده » وأصلها « Varende » و « بانيليه » وأصلها « Vanilla » و « وابور » وأصلها الفرنسي « Vapeur » أي بخار أو قارب بخاري .

٢ - الطبيعة التركيبية للغة : وهذه مسألة متعددة الجوانب ، فقد تكون خاصة بتركيب الجملة أو الكلمة أو بسلوك خاصة صوتية معينة ؛ وإليك أمثلة توضح كلاً من هذه الجوانب .

(١) لاحظت أن بعض العاميين ، ممن اشتغلوا أثناء الحرب في معسكرات الإنجليز ، يستعملون عبارة « يا بلاد الفول » عندما يتشائمون . وقد أمكنني ، بمساعدة

جندى انجليزى ، أن أعرف أن هذه العبارة تقليد للعبارة الإنجليزية « Bloody fool » . وألفت نظرك إلى الشبه الصوتى ، بين كلمة « Bloody » وكلمة « بلاد » ، وبين وكلمة « fool » وكلمة « فول » . ولكن الذى يعينى الآن هو الجانب التركيبى للعبارة ؛ فإنها بهذا الترتيب فى الإنجليزية تدخل فى نطاق الصفة والموصوف ؛ أما فى المصرية ، فهذا الترتيب يدخل فى نطاق « المضاف والمضاف إليه » . وهكذا تم القرض من الإنجليزية للمصرية ولعب الجانب التركيبى دوره ، فأصبحت العبارة الإنجليزية فى الأصل ، مختلفة الدلالة بتأثير تركيب الجملة فى المصرية .

(ب) من المعروف عن علماء اللغة العربية ، قولهم ، إنه من غير الممكن توالى ساكنين . ولذلك نجد التلميذ الذى يبدأ بتعلم الإنجليزية ، لا يستطيع أن يقول « Street » بسهولة ، إلا إذا أضاف همزة مكسورة فى أولها . ولذا فهو يقول عادة « إستريت » .

وفى اللغة النوبية ، لا يمكن البدء بالراء . ولذلك فإن همزة مكسورة تسبق الراء فى الكلمات التى تقرر ضها النوبية من اللغات الأخرى . ولهذا يقولون عن « راديو » ، « إراديو » وعن « رمضان » ، « إرمضان » .

(ح) من المعروف عن اللغة العربية ولهجاتها وجود ظاهرة التفتيح . وهذه ظاهرة صوتية لها طبيعتها المستقلة التى تتخذ شكلا خاصا فى كل لهجة من لهجات العربية . ومن المعروف ، أن هناك حروفا مفخمة ، لها تأثيرها على الأصوات المجاورة لها ؛ حيث تجعلها مفخمة أيضا . وفى العربية الفصيحة مثلا نلاحظ عمل هذه الظاهرة ؛ حين تتحسس الفرق بين الميم فى كلمتى « مرض » ، « موت » ؛ فالميم فى الأولى مفخمة ، ولكنها فى الثانية غير مفخمة . وذلك بتأثير وجود « الضاد » فى الأولى .

وفى العامية المصرية ، نلاحظ هذه الظاهرة أيضا . ويبدو أن « الراء »

في المصرية لها خاصة التفخيم ، ولم يكن لها هذه الخاصة في العربية . وعلى هذا فإن الكلمة « درب » ، بمعنى « حارة » ، تنطق بدال مفخمة — أى بضاد — في المصرية . وسبب ذلك أن للراء في المصرية خاصة نفخيم الأصوات المحيطة بها ؛ كما نلاحظ في كلمة « كرب » وفيها كاف مفخمة ، وفي كلمة « غرب » ، « شروع » ، « فرع » ، « أرع » (أى كوسة) ، وسواها من هذه الكلمات ، التي نلاحظ فيها تأثير الراء .

ولقد استعملت المصرية كلمة « درب » ، بعد أن أخذتها من العربية الفصيحة . ولما كانت للراء خاصة التفخيم ، التي امتدت الى الدال ، فإننا نرى هذه الدال تنطق تماماً مثل « الضاد » . وهكذا لانجد فرقاً ما ، في نطق الكلمة الأولى في العبارتين « درب الجماميز » ، و « ضرب الأولاد » . ومعنى هذا أن الاختلاف بين العربية والمصرية في سلوك ظاهرة التفخيم ، قد أثر في تطور نطق كلمة « درب » عند المصريين الذين ينطقونها ^(١) مماثلة لكلمة « ضرب »

ولمثل هذه الأسباب ، يرى جوشات أن التطور في النطق أمر تفرضه طبيعة اللغة ذاتها ، ولهذا لا يعترف بتأثير الفرد في مثل هذا التطور .

والحق أننا لا ننفي أثر طبيعة اللغة في التطور . ولكن خطأ جوشات ، ناتج من أنه بالغ في هذا الأثر . وطبيعة اللغة ليست في الواقع سوى عامل مهين . أما الذي يحدث التطور بالفعل فالأفراد ولا شك . واليك مثالا ترى فيه دور طبيعة اللغة ومدها بهذا الاعتبار الذي ذكرت لك .

تنطق الكلمة المصرية « وابور » على أشكال عدة . فمن الممكن أن نقول ،

(١) ولو كان ذلك عند حديثهم بالعربية الفصيحة . وفي هذه الحالة تكون العربية الفصيحة التي تتكلمها اليوم في مصر ، قد تطورت لإحدى كلماتها (درب) في النطق ؛ فصارت تنطق بالضاد بدلا من الدال .

« واپور » و « بابور » أو « باجور » . وقد ذكرت لك أن أصل الكلمة هو « Vapeur » ونلاحظ أن التغيير في نطق الكلمة ، بعد اقتراض المصرية لها يبدو في نقطتين :

أولاً ، عند الصوت « V » وثانياً ، عند الصوت « P » . ومن دراسة الحالات السابقة ، نرى أن الصوت « V » نطق بإحدى طريقتين ، « ب » أو « و » . وأن الصوت « P » نطق بإحدى طريقتين أيضاً ، « ب » أو « ج » . ولو تتبعنا إمكانيات النطق المصري لهذه الكلمة بناء على هذا ، فإننا سنخرج بهذه الإمكانيات : « باجور » ، « واجور » ، « واپور » وأخيراً « بابور » . ولكننا نلاحظ ، أن الموجود بالفعل من هذه الإمكانيات الأربعة ثلاثة بحسب ؛ لأننا لا نطق بالكلمة هكذا « واجور » . كذلك نلاحظ أن كلمة « بابور » تقال في محيط اجتماعي خاص ، وكلمة « باجور » في محيط آخر ، وكلمة « واپور » في محيط ثالث . والذي يقول « باجور » فلاح أو على الأقل قروي . أما من يقول « واپور » فمن أبناء المدن الذين يبالغون مستواً ومستواك الاجتماعي . وكلمة « بابور » بين بين ، ومن الممكن أن توصف بأنها من نطق العمال .

ونسائل جوشات الآن ، من الذي اختار نطق الكلمة على أحد هذه الأوضاع الثلاثة دون الوضع الرابع ؟؟؟ ثم من الذي اختار نطقاً خاصاً في إقليم خاص ، أو بين بيئة اجتماعية خاصة ؟؟؟ لو كان الأمر مجرد طبيعة اللغة ، لما كان هناك اختلاف في نطق الكلمة الواحدة . وذلك لأن طبيعة الشيء أمر واحد لا يتعدد . الحق أن طبيعة اللغة عامل مساعد ولا أكثر ؛ أما التغيير بشكل خاص فمن مجال نشاط الأفراد اللغوي .

ولقد سبق أن ذكرنا ، أن جوشات لم يعارض في القول بتأثير الفرد في محيط التغيير ، الخاص بالمفردات والتراكيب ؛ وأنه يعارض في القول بتأثيره

في تغيير الأصوات، فقط . ولم يبين جوشات سبب التفريق بين الأصوات وغيرها من ضروب النشاط اللغوى .

ويبدو لي، أن مادعى جوشات لهذا التفريق، هو أمر شعورى بحث، لعلاقة له بالدرس والتحليل العلمى . ومن المعروف أننا نتخذ الأصوات وسيلة للدلالات ؛ وشعور الانسان بالغاية ، أقوى بكثير من شعوره بالوسيلة . ولو رجعنا إلى الأمثلة التى سردتها لك من قبل ، لوجدنا أن شعورك بالمشكلة الصوتية أقل بكثير من شعورك بالمشكلة المتعلقة بالدلالة . فلو أنى وضعت الألفاظ فى الجملة « كتاب محمد جميل » وضعا مغايرا فقلت « محمد كتاب جميل » ؛ لآثار هذا التغيير اتبهاك ولا شك . وسبب ذلك أن تركيب الجملة ووضع الكلمات علاقة مباشرة بموضوع الدلالة . أما كون الكاف فى كلمة « كرب » مفخمة أو غير مفخمة ، فليس ذا علاقة جوهرية بدلالة الكلمة . ولهذا فلو صح أن يمر هذا التغيير الأخير دون ملاحظة ، فإن النوع الأول ، لابد من أن يكون محلا للملاحظة لديك .

والملاحظة أمر لا يتعلق بالظاهرة نفسها ؛ بل بالشخص الذى يدرس الظاهرة . ومن ثم فإنه ليس من اللازم ، أن يكون هناك فرق بين الظاهرة التطورية الصوتية وسواها من ظواهر التطور اللغوى ، لجرد أننا لم نلاحظ الظاهرة المذكورة . ولذلك فليس من العجيب ، ما يقرره جوشات من أن سكان منطقة فريبورج ، لم يلاحظوا ، بل قد انكروا إنكاراً شديداً ، أن نطق فريق منهم يختلف عن نطق فريق آخر (١) .

(١) أذكر لك ملاحظته بنفسى فى منطقة حلما . فقد لاحظت أن علامة المفعول بعد الكلمات التى تنتهى بحرف (b) هى (Pa) عند بعض الأشخاص و (ba) عند آخرين . وعندما أبدت هذه الملاحظة لبعض أصدقائى من أبناء هذا الإقليم ، أنكروا هذا الفرق أشد الإنكار . ولم يقتنعوا إلا بعد أن سجلت نطق كل فريق منهم على جهاز تسجيل الأصوات ، ودعوتهم لسماع الفرق مرات عديدة .

والظاهر أن « جوشات » ، قد عني برأى الكبار من أبناء هذا الأقليم ، عندما قرر هذا . ويقيني أنه لو سأل صغار السن ، عما إذا كان هناك فروق في النطق بينهم وبين الكبار ، لأقروا بذلك له . بل إنه لو حاول أن يحمل طفلاً على أن ينطق كما ينطق من هو أكبر منه سنّاً ، لتبين له أن الطفل يدرك الفرق في النطق بينه وبين الكبار ، ولكنه يصّر على استعمال طريقته هو في الكلام . والطفل يتخذ الألفاظ لذاتها أكثر مما يتخذها لدلالاتها ؛ على عكس الكبار . فالدلالة لدى الطفل في المحل الثاني ، بينهما لدى الكبير في المحل الأول . ولذلك يلاحظ الطفل فروق النطق ، كما أنه أكثر حساسية بالقياس اللفظي . وسأروى لك ما لاحظته على طفل مصري ، يبلغ من العمر سنة وخمسة أشهر .

كنت أزور والدي الطفل « فاضل على أسعد » . وكنت أحمل معي أداة التصوير . وأراد فاضل أن يطالبها مني ، ولكنه لم يجد اللفظة المناسبة ، فبحث ، بحثاً قياسيّاً ، كلمة استعملها في العبارة « هات الصوّاره عشان أصورك ! » . واسم أداة التصوير بالمصرية ليس « الصوّارة » ، ولكنه « الكاميرا » أو « الماكينه » أو « الفوتوغرافية » .

وأنى أتوقع أن مثل هذا الظرف ، لو صادف شخصاً كبيراً ، لكان أول ما سأله عنه هو اسم هذا الشيء ، حتى يمكن بعد ذلك أن يقول « هات الكاميرا » مثلاً . أو بعبارة أخرى فإن الطفل « فاضل » قد لجأ إلى نحت كلمة ، أى إلى تقليد قياس صوتي خاص ، هو قياس « فعّال » ، حين لم يعرف اسم أداة التصوير . وهذا يصور لك مدى حساسية الطفل بالصور الصوتية للألفاظ .

كذلك كان فاضل يقول كلمة « قَيْدَه » ويعني بها « جزمة » . وقد حاولت ، كما حاول والداه ، أن نصلح لديه هذا الخطأ ؛ ولكنه كان مصراً عليه . ولم يتخلص

منه إلا بعد بلوغه عامين . أما أصل كلمة « فَيَسَدَ » فإنه كان كما يبدو لى ، طريقة « فاضل » فى نطق كلمة « فردة » . وقد أطلقها لاءى إحدى « الفردتين » ، بل على « كليهما » . وهذا مثال لما ذكرت لك من قبل ، من أن الدلالة لاءى الطفل ، هى فى المحل الثانى من الملاحظة (١)

وهنا نساءل جوشات ، أليس مثل هذا التجديد ابتكارا فرديا ؟! قد يقول ، إنه كذلك ؛ ولكن فى محيط الألفاظ ؛ وهو يقول بأن للابتكار الفردى فيها تأثير واضح . ولكن مارأيه فى الاختلاف فى نطق الكلمة ، فهى لاءى فاضل « فيده » بالياء المفتوحة لا بالراء الساكنة ؟ هل تدخلت طبيعة اللغة فى مثل هذا التغير ، الذى شاع بين جميع أفراد الأسرة ، حتى أصبحوا جميعا ينطقونها على هذا الوضع (٢) ومع كل هذا فإن جوشات ينفى أن للطفل أى أثر فى التطور الصوتى للغة . وهو يقول « إن كل لغة تنهيا تهيئا خاصا ، بين جيل وجيل ، يمكن للتطور فى أصواتها . وبذلك يخضع أبناء الجيل اللاحق من الراشدين — دون الأطفال — للتطور الجديد . وليست الطفولة سوى مرحلة تقليد لغوى ولا أكثر . وعندما يخطئ الطفل فى نطق بعض الكلمات ، فليس ذلك بدءا لتطور فى أصوات اللغة التى يتكلمها كما يزعم بعض الباحثين . وذلك لأن طبيعة اللغة كفيلة بتصحيح هذا الخطأ فيما بعد . ويتم ذلك عندما يكتمل نضوج الأعضاء الصوتية لاءى الطفل ، وتتكيف طريقة سلوكها بصفة نهائية عند نطق مختلف الأصوات . وهذا لا يتم قبل بلوغ الطفل سنا مناسبة ، أى عندما يتجاوز دور الطفولة »

(١) تعتبر كلمة فيده فى هذه الحالة من اللغة الخاصة ، حيث أن أبافاضل وأمه وأصدقاء العائلة كانوا يتكلمون بها إليه . وقد كان الجميع ينطق بالراء ياء كما ينطقها الطفل .

(٢) العجيب فى أمر هذه الكلمة أنه لم يكن من اليسير إبدالها بالكلمة الصحيحة ، بالرغم من أن فاضل ينطق الجيم والزين والميم والهاء نطقا سليما .

وإننا نلاحظ أن هذا النص الذي اقتبسناه من جوشات (ص ٢١٣) يناقض بعضه بعضاً . فعبارة تكيف سلوك أعضاء النطق بصفة نهائية ، تتعارض مع ما تقرره العبارات السابقة عليها ، من أن التطور في النطق (أى الاختلاف في سلوك أعضاء النطق) خاص بالراشدين (أى الذين تكيفت لديهم أعضاء النطق بصفة نهائية) من أبناء اللغة ، ومعنى التطور ولاشك عدم تكيف سلوك أعضاء النطق بصفة نهائية .

والخلاصة أن التغير في اللغة ، قد يكون نتيجة الابتكار ، كما رأيت في مثال « الصواره » و « الفيه » . ومجال الفرد هنا واضح جلي . كما قد يكون التغير نتيجة الاقتباس ، كما رأيت في تأثير العامية المصرية على نطق كلمة « درب » التي ذكرتها لك .

وقد ينتج عن الاقتباس تغيير جوهري في تركيب اللغة التي تنقل إليها التعابير . ومن أمثلة ذلك عبارة « الغندور إخوان » و تركيبها ، بالدلالة المعروفة ، جديد على العربية . ومقتضى التواعد العربية ، أن يكون مثل هذا التركيب تركيباً إسنادياً (أى مبتدأ وخبر) . ولكن هذا التركيب لا يدل على الإسناد ، بل يدل على الإضافة . وكان من الأقرب للتركيب العربي ، أن تكون العبارة « إخوان الغندور » . ولكن مثل هذه العبارة . نقل عن مثل العبارة الإنجليزية « Smith brothers » أو الفرنسية « Dupont Frères » ^(١) ، وهما مثالان للتركيب الإضافي ، في هاتين اللغتين . وفي كلا النوعين من التطور ، فإن الفرد هو الذي يبدأ بالتغيير ثم يقلده سواه من الأفراد ، حتى تعم الظاهرة اللغوية الجديدة .

* * *

انتهيناه فيما سبق ، من تقرير الدور الخطير الذي يقوم به الفرد في التطور اللغوي ،

(١) نلفت النظر هنا إلى أن مثل هذا التركيب ليس شائعاً في العربية كلها ، بل في العربية التي تستعملها « لغة الإعلان » فقط .

ويهمنا الآن أن نؤكد ذلك المعنى، عندما تعرض لمظهر لغوى آخر، هو نشأة الأغاني الشعبية. وقد يبدو لك أن هذا الموضوع خارج عن نطاق بحثنا. ولكننا في الواقع تعرض له، لأنه، بالإضافة إلى أن الأغاني هي في ذاتها مظهر لغوى، قد سيطرت على بحث هذا الموضوع، نظرية «العقل الجمعي». وقد سبق أن رفضنا هذه النظرية من قبل، عندما عرضنا إلى رأى بعض اللغويين من أمثال «ووندت» wundt وإلى مدى تأثير فرديناند دي سوسير به.

ويرى جريم «Grimm» أن الأغاني الشعبية، قد بدأت عن طريق الإلهام الجمعي — وهذا كما ترى تقرير لوجود «عقل جمعي» ملهم. فإن سراً مكنوناً ألهم روح الجماعة، فاندفعت تهزج وتغنى. ومعنى هذا أن جريم يرى أن الأغاني (١)، تختلف عن الشعر. فالأخير من إنتاج الفرد الذى يجلس إلى نفسه، يؤلف بين أبياته، ويحذف ويضيف حتى تستقيم له قصيدته. أما الأولى، فمن إنتاج الإلهام الجمعي، الذى لمس روح الشعب الشاعرة، فاندفع الجميع دون تكلف يغنون.

ولقد يكون لقول جريم جاذبية وإغراء؛ فقد تحدث عن الروح الشاعرة، والإلهام والشعب الشادى، وعن القوى الخارقة الغامضة التى تخلق في هذا الجو الفنى. ولكن كل ذلك لا يصرفنا عما في مثل هذا التفكير من ضحولة، عرضنا إليها عندما ناقشنا دي سوسير وجوشات. إنه لا بد من الفرد الموهوب، هنا أيضاً، الذى ينتج، ثم لا تملك الجماهير إلا أن تندفع من ورائه مقلدة مرددة.

والفرق بين الأغاني الشعبية وسواها، أن الأولى مجهولة النسب. وليس جهلنا بالشاعر يعنى باللزوم، أن الشعب هو الذى شعر. ولقد نجد نسبة الشعر إلى شاعره

(١) مثل «وحوى ياوحوى»، حذارجه بدارجه «وسواها من الأغاني الجمعية التى لا تعرف لها مؤلفاً. ويدخل في هذا النوع من الأغاني الملاحم المصريه، مثل «الأدغم وعنترة»

أمر غير ذى قيمة بين جماعة من الجماعات ؛ بينما نجده فى جماعة أخرى أمراً له خطره . ونحن نعرف مثلاً ، أنه يوجد فى الريف المصرى طائفة تعرف « بالأدبائية » . وعندما يزور أحد « الأدبائية » ، قرية من القرى ، يجتمع حوله القرويون ، ويقف من بينهم يقول على البديهة أزجالاً وأغنيات . وبعد أن يغادر الأدبائى القرية ، تظل أزجاله تتردد حيناً على ألسنة القوم ، وقد لا يدرك من يرددها نسبتها إلى ناظمها .

وعلى النقيض من ذلك كانت البيئة العربية فى الجزيرة فإن نسبة الشعر إلى شاعره ، والشاعر إلى قبيلته كانت أمراً جوهرياً . ولقد بلغ الأمر أن كان لبعض الشعراء رواية لا يروى لسواه .

ومن المعروف ، أن لكل فرد من سكان جزر « إندامان » Indaman لحناً خاصاً به ، هو وحده الذى يرتله . ومن الاعتداء على كرامة هذا الفرد ، أن يرتل لسواه لحنه ، الذى ألفه ليكون شعاراً له .

كذلك يروى لنا وليام ثالبتر ^(١) « William Thalbitzer » فى سياق حديثه عن « أغاني الدفوف » فى جرينلاند « Greenland » ، أن رواية الشعر لا تكون إلا لشاعره ، وأن حق الرواية ، ينتقل بعد موت الشاعر إلى الجماعة ، التى التى تملك حينئذ فقط ، روايته وغناؤه .

ومن هذه الأمثلة يتضح لك ، أن جهلنا بنسبة الأغاني الشعبية إلى مؤلفيها ، لا يعنى أنها من إنتاج « العقل الجمعى » كما يقول جريم . ولقد قال جماعة من الأمريكيين ، وعلى رأسهم جومير Gummere ، بمثل ما قال جريم فى هذا الصدد .

ويؤيد الباحث كينريدج « Kittredge » هذا الرأي ، ولكنه يضعه وضعاً مقبولاً ، فهو يفسر النشأة الجمعية للشعر ، بأن هذا الفن — أى الشعر — قد نشأ مصاحباً للرقص والغناء . ومن المستطاع أن تتصور حلقة من حلقات اللهو ، تدق فيها الدفوف ، وقد استهوى النقر أحد الحاضرين ، فصاح بألفاظ تتفق في إيقاعها مع دقات الدفوف . ثم ردها سواه . وصاح ثان يرد عليه ، واتفق ماصح به مع دقات الدفوف كذلك . ثم صاح ثالث ورابع ، حتى اكتملت هذه المحاولة الجمعية أغنية ، أخذوا يرددونها في مجالس لهوهم .

وهذا الفرض « لا يؤيد الجمعية » بالمعنى الذى ذكره « جريم » ؛ بل إنه في حقيقة الأمر يؤيد فكرة الفردية ، التى نقول بها . غير أن الفردية لا تبدو في ابتكار الأغنية كلها ، بل في ابتكار كل فقرة من فقراتها على حدة . ومادام هذا الابتكار الفردى قد تقرر على هذه الصورة ، فإنه لا يضيرنا في كثير أوقيل ، أن تؤيد الجمعية بهذا المعنى الجديد . ولئن أسكن قبول مثل هذه الجمعية فيما يتعلق بنشأة الأغاني الشعبية ، فإنه لا يمكن قبولها ، فيما يتعلق بنشأة الكلمات والتراكيب اللغوية . وذلك لأن الأغاني لا تتجاوز نشأتها ، على حد التفسير السابق ، أن تكون مجرد توافق بين نقرات الدفوف ونبر الكلمات . أما نشأة الألفاظ والتراكيب ، فعملية نفسية أعمق من هذا ؛ حيث أن الدلالة جزء لا يتجزأ في حالة الألفاظ والتراكيب وليس الأمر كذلك بالنسبة للأغاني . وكثيراً ما تنغني بالألفاظ لانفهم لها معنى . والمهم في حالة الأغاني ، هو الاتفاق بين جرس الألفاظ ونقر الدفوف ولا غير .^(١)

(١) أذكر أن أحد أصدقائي كان يعني لنا أغنية عبد الوهاب « ياورد » ، ولم يكن يعرف ألفاظها بدقة ، فكان يقول « ياورد ليه الحجل » (بالحاء بدلاً من الحاء) « وفيك تخلو الغبل » (بالحاء في كلمة « تخلو » بدلاً من الحاء حيث أن الكلمة « تخلو » والغبل في كلمة « الغبل » بدلاً من القاف حيث أن الكلمة « الغبل ») . ولم يمنعه عدم فهمه للألفاظ من الغناء ، لأن المهم في حالة الغناء هو النغم لا الدلالة ، وذلك بعكس الاستعمال الكلامي ، الذى تكون الدلالة أساساً جوهرياً له .

ولا بد في كلا الحالتين ، من وجود الفرد المبتكر ، والجماعة المقلدة . ولا بد في حالة الألفاظ والعبارات ، من كون الابتكار محصوراً في نطاق العرف اللغوي الجماعي . ولو اتسع الفرق بين الابتكار والعرف اللغوي ، لامتنع عنصر الدلالة ، أو على الأقل ، لأصبح من العسير إدراكه . والتعبير الرائع أمر لا يسقط إلى مستوى التعبيرات العادية ، ولا يرتفع حتى لا يمكن لجمهور المتكلمين إدراكه .

والاستعمال المجازي مثال لهذا النوع من التجديد في التعبير . ونحن نعلم أنه لا بد من وجود رابط ، بين المعنى المجازي والمعنى الأصلي ، من شبه أو سبب . ولو كان هذا الرابط غريباً أو بعيداً ، لكان للاستعمال الجديد ، قليل من الحظ في أن يقلد ويشيع . بل ربما كان هذا الاستعمال سخفاً وهراء .

ولديك ، على سبيل المثال ، الآية « ينزل عليكم من السماء زرقاً » أي مطراً . والعلاقة بين الرزق والمطر واضحة وطريفة . ولو فرض أن قال قائل « ينزل عليكم من السماء زيتاً » ، لكان هذا التعبير سخفاً تافهاً . وذلك لبعد العلاقة بين المطر والزيت من ناحية ، ولاختلاطها بعلاقة أخرى غير مستساغة من ناحية ثانية .

فأولاً ، تبعد علاقة السببية بين المطر والزيت ؛ حيث أن المطر يسبب النبات ، ومن بعض النبات تؤخذ بعض البذور ، التي تعصر فتصير زيتاً . وأنت ترى أن علاقة السببية بعيدة هنا .

وثانياً ، أن هناك شبهاً بين ماء المطر والزيت ، هو أن كلا منهما سائل . وعلاقة الشبه هذه ، أقرب من علاقة السبب السابقة ، ولذلك فهي أكثر إشراقاً إلى ذهن منها . وتصور ما ينتج من تتأرجح غير مستحبة ، لو أمطرت السماء زيتاً !! كيف يكون حال ملابسك ، وجسدك ، والأرض التي تسير عليها الخ ؟ ! ؟

ولمثل هذين السبيين ، يكون هذا الابتكار في التعبير ، سخفًا لاحظ له من تقليد المتكلمين . أما الابتكار الطريف ، كالأية في وضعها الطبيعي ، فإنه لا يكاد يذكر حتى يقلد ويشيع .

والتقليد كما ذكرت لك من قبل ، ابتكار متجدد .^(١) فكل تعبير نفعل به حين نستعمله ، تعبير حي ، لا تزال فيه شخصية قائله ومُرَدِّد . وربما كان نقص عنصر انفعال المقلد بما يعيد من تعبيرات غيره ، سببًا في ضيقنا من عبارات « رفيع العماد » ، « طويل النجاد » ، « كثير الرماد » وأمثالها . فرفة العماد ، وطول قراب السيف ، وكثرة رماد النار ، لم تعد ذات دلالة في مجتمعا الجديد ، الذي شاع فيه سكنى « الشقق » ، واستعمال أفران الكهرباء ، أو مواقد البترول ، والذي لم يعد فيه ثمة داع لاستعمال السيوف . ولذلك ينعت البعض هذه العبيرات ، بأنها « أكششيات أدبية » ؛ أي أنها تنقص عنصر الانفعال بها ، لدى من يقولها ومن يسمعها في وقت واحد .

أما بعد ، فإني أرجو أن تكون مقتنعا بأن للفرد دوره الخطاير في كل أنواع التطور اللغوى ، سواء في ذلك التطور في الأصوات ، أو في الألفاظ ، أو في التراكيب .

(١) راجع ما كتبناه عن التقليد ص ٣١ ، ٣٢ ، ٣٣

الفصل الثالث

اللغة واللهجة

لندع الفرد الآن ، ولنوجه انتباهنا إلى الجماعة اللغوية . والجماعة اللغوية عبارة تطلق على وحدات اجتماعية ، تتفاوت كبراً وصغراً ، ويمكن أن ترتبها ترتيباً يبدأ بالأسرة ، فالعائلة ، فالقبيلة ، فالأمة ، ثم ما يمكن أن يسمى بالأمة الكبرى . ونعني بالأمة الكبرى ، جماعة لغوية أكبر من الأمة ، باعتبارها جماعة محددة ببعض الاعتبارات السياسية أو الاجتماعية الخاصة . ولدينا على سبيل المثال ، الأمة المصرية ، والأمة السورية ، والأمة العراقية ، والليبية ، والسعودية ، والسودانية الخ ، وكلها أمم بالمعنى السياسي . ولدينا إلى جانب ذلك « الأمة العربية » ؛ وهي وحدة أكبر تشمل هذه الوحدات السياسية المذكورة . ونحن ، معاصر علماء اللغة ، لانعنى بسوى الخواص اللغوية المميزة لهذه الوحدات . ولا يهمنا كثيراً الاختلاف السياسي ، أو الديني ، إذا توفر الاشتراك اللغوي ، بين الوحدات المكونة للأمة الكبرى . وبهذا يمكن أن نتحدث عن الأمة العربية ، باعتبارها الجماعة اللغوية التي تتكلم اللغة العربية . والأمة الأنجلزية ، باعتبارها جماعة شاملة ، تجمع من يتكلم اللغة الأنجلزية ، بصرف النظر عن التقسيم السياسي ، الذي يقسمهم إلى الشعوب الأمريكية ، والأنجلزية ، والاسترالي ، والنيوزلاندي ، والكندى الخ .

ومن الممكن الاعتراض على تحديد الوحدات الجماعية التحديد السابق ، فقد يقال ، إن القبيلة بالنسبة للبداوى ، معادلة للأمة بالنسبة للمتحضر . ومثل هذا

الاعتراض مقبول ولاشك . ولكننا كما قلت لا نتقيد بالاعتبارات الاجتماعية ، بل بالاعتبارات اللغوية البحتة . وقد يحدث أن نجعل قرية بأسرها « جماعة لغوية » واحدة ، أو أن نقسمها أقساما متعددة . وأساس التوحيد أو التقسيم هو اعتباراتنا اللغوية . فلو نظرنا إلى لغة القرية كلها واعتبرناها وحدة لغوية ، فإن لدينا وحدة اجتماعية ، هي الجماعة اللغوية التي تشمل القرية كلها . ولكن لو فرضنا أن طبقة المتعلمين من أبناء هذه القرية ، تتميز في لغتها عن بقية سكانها ، فإنه يتحتم علينا والحال هذه ، أن نقسم القرية إلى وحدتين اجتماعيتين ، أى إلى جماعتين لغويتين ، وهكذا .

والأسرة جماعة لغوية لها أهميتها . وهي عامل من عوامل التوحيد اللغوي بين أفرادها . كما أنها في نفس الوقت ، عامل من عوامل التفريق اللغوي بين أفرادها وبين سواهم ، من أفراد الجماعة اللغوية الكبرى . ومن المشاهد ، أن لكل أسرة طائفة خاصة من المفردات والتعابير . ويلاحظ ذلك أكثر ما يلاحظ ، في أعلام التدليل ، أو التعبير ، التي تطلق على بعض أفرادها . وقد تكون هذه الألفاظ غير معروفة ، إلا في محيط الأسرة نفسها ، وقد تكون معروفة خارج الأسرة ، ولكنها تعنى غير ماتعنيه ، داخل حدود الأسرة .

وسأذكر لك بعض هذه الأعلام التي أعرف أنها كانت تستعمل داخل بعض الأسر . من هذه الكلمات عاصص ، عكبر ، بغنوف ، خرشوم . وهي من أسماء التعبير . ولا أعرف أن لهذه الأسماء وجودا خارج حدود الأسرة أو الأسر ، التي كانت تستعمل فيها . بل إنى أذكر أن بعض هذه الكلمات ^(١) ، قد ابتكرت ابتكارا جماعيا ، حين جلسنا ذات يوم ، ننشد على طفل صغير ، واقترح أحدها أن يقدم

(١) هي كلمة عكبر .

كل منا حرفا ، وأن نصنع من مجموع هذه الحروف اسما لهذا الطفل . ولم يمض وقت طويل ، حتى أصبحت هذه الكلمة ، علما على هذا الطفل ، ثم تطورت بعد حين ، فأصبحت تطلق على سواء من الأطفال غليظي التقاطيع . وهكذا ابتدأت هذه الكلمة علما ، ثم صارت صفة ، كل ذلك في محيط أسرة خاصة .

ومن أمثلة الألفاظ التي لها دلالة خارج محيط الأسرة ، تختلف عن دلالتها داخلها ، هذه الألفاظ : « الحاجة عيشة » وهي عبارة كانت تطلقها أسرة تجاورنا بالقرية على « مشنة العيش » ، « كلكتا » اسم مدينة بالهند ، كانت تطلق على فتاة . « هتلر » اسم عز ، وغير ذلك .

ولا أشك أنك أيها القارئ ، تستطيع أن ترجع إلى محيط حياتك العائلية الخاصة ، لتستخرج كثيرا من أمثال هذه الألفاظ والعبارات ، التي تدمعها الأسرة بطابع خاص ، يجعلها ملكا لغويا خاصا لها .

وهذا هو ما أعنيه ، عندما أقول ، إن الأسرة عامل من عوامل التوحيد اللغوي بين أفرادها ، وهي في نفس الوقت عامل من عوامل عزلهم عن سواهم ، عزلا لغويا . ومعنى ذلك أن استعمال أفراد الأسرة الواحدة لألفاظ لا يستعملها سواهم ؛ يربطهم ربطا لغويا قريبا ، ويفضل بهم انعزالا نسبيا عن سواهم ، ممن لا يستعملون هذه الألفاظ والتعبيرات الخاصة بهم . ومعنى أن عزل الأسرة لأفرادها ، عزل نسبي ، أن الفرد ليس ملكا لغويا خالصا لأسرته . فلكل فرد من أفراد الأسرة ، صلات خارجية ، يتخذ النشاط اللغوي فيها دورا رئيسيا . وبذلك يصبح عضواً في حلقة لغوية أخرى ، يؤثر فيها ويتأثر بها . ولاشك أنه ينقل كثيرا مما اكتسبه في الحلقات اللغوية التي هو فيها عضو ، إلى داخل حدود الأسرة . وبذلك لا يكون انعزال الأسرة ، عن المجتمع الخارجي سوى انعزال نسبي كذلك .

وكما اتسع نطاق اتصال أفراد الأسرة في الخارج ، كلما زاد مقدار اتصالها اللغوي بالمجتمع الخارجي . ولأجل هذا ، نرى لغة الأسرة غنية ومهذبة ، عندما تكون في مدينة اتسعت أركان حضارتها ، فقيرة محدودة ، عندما تكون في قرية يضيق نطاقها الاجتماعي . وكثيرا ما نلاحظ ، أن لغة بعض أسر العمال ، وهم على قدر محدود من التعليم ، أكثر نضوجا من أسر بعض المثقفين ، ممن يقيمون في القرى الصغيرة . وسبب ذلك أن مقدار ما تمد الجماعة الخارجية به الأسرة ، من مادة لغوية ، أغنى بكثير في حالة المدينة ، منه في حالة القرية .

وفي الجماعات البدائية ^(١) ، جنوح للانغزال والاستقلال . ولهذا نلاحظ اتقسام مثل هذه الجماعات ، إلى وحدات أصغر فأصغر . ولاشك أن لذلك تأثيراً على لغات هذه الجماعات . وذلك لأن الجماعة المحدودة التي تتكون من أسر قليلة العدد ، لا تجد فرصة للتجديد اللغوي ، في مثل الغنى الذي تجده جماعة كبيرة . وقد سبق أن قلنا لك ، بأن لكل أسرة نصيباً من الابتكار اللغوي ، وأن ما تبنته الأسرة ، ينتقل عن طريق صلات أفرادها الخارجية ، إلى سواها . وبهذا تستطيع أن تدرك ، أنه كلما كبرت الجماعة ، كلما زادت كمية الابتكار والاقتباس اللغوي . واللغة الغنية ، هي اللغة التي تنشط فيها حركة الابتكار والاقتباس .

ولعل هذا يفسر تعدد اللهجات بين الجماعات البدائية . وأنت تعرف عن عصور الجاهلية العربية ، تعدد لغات القبائل فيها ولهجاتها .

وقد ذكر الأستاذان جابلنتر « Gabelentz » ، مير « Meyer » في كتابهما عن اللغة الميلانيزية « Melanesian Language » ، أن كل قرية من قرى ساحل ما كلاي (شمال شرق نيوجينيا) ، تتكلم لهجة خاصة ، تختلف عن

(١) راجع الكتاب ' Language, P, 181 FF By, O, Jerpersen

لهجات القرى المجاورة لها . ويبدو الاختلاف بين القريتين اللتين تبعد أحدهما عن الأخرى ، بمقدار ميل واحد ، في كثرة المفردات الخاصة بكل منهما . أما في حالة قريتين تبعد إحداها عن الأخرى ، بمقدار ستة أميال أو ثمانية ، فإنه يكاد يكون من العسير أن يتفاهم سكانهما بعضهم مع بعض . ولهذا اضطر هذان المؤلفان ، أن يستخدموا ثلاثة من المترجمين ، في رحلة استمرت يوما واحدا . ويروي كير « Gurr » ، أن سكان استراليا البدائيين ، الذين لايزيدون عدداً عن مائتي ألف نسمة ، يتكلمون نحواً من مائة لهجة .

* * *

ولقد يبدو مثل هذا الانقسام الكثير غريباً علينا . نحن معشر المتحضرين . ولكننا لو رجعنا إلى الوراء ، متجاوزين حاضرتنا إلى ماضينا ، لوجدنا اختلافاً في اللهجات التي كان يتكلمها أجدادنا ، قريباً من هذا الاختلاف الذي تحدثنا عنه ، ونسبناه إلى الجماعات البدائية . ولا أدل على ذلك مما نعرف عن العربية ، من وجود مائة اسم للأسد ، وما يقرب من هذا العدد للناقة .

وليس ذلك في حقيقة الأمر ، سوى جمع للألفاظ الدالة على هذه الذات أو تلك ، لدى مختلف القبائل العربية . وهذا ولا شك دليل على انقسام في اللهجات العربية انقساماً كثيراً . وإن اختلف دلالة الكلمة الواحدة باختلاف البيئة ، لدليل آخر على هذا الانقسام . ولا أظنني في حاجة إلى تذكيرك بقصة الأمير اليميني ، الذي وفد عليه ضيف غير يمني ، وكان جالسا على ربوة ، فقال له الأمير «تب» فوثب ، ولم يكن ما أراد الأمير سوى أن يكرمه بالجلوس ؛ وهذه كانت دلالة الكلمة عند هذا الأمير وبيئته اللغوية .

كل ذلك صحيح ومقبول ؛ ولكن ماهو الحد ، الذي يمكن أن نعتبره فاصلاً بين لهجة ولهجة أخرى؟؟ إن من اليسير جداً ، أن نجد اختلافاً لغوياً بين جماعة وأخرى .

لقد قررنا منذ أمد قليل ، أن من الممكن وجود اختلاف بين أسرة وأخرى ؛ فهل يكون معنى ذلك أن كل أسرة تتكلم لهجة تخالف لهجة الأسرة التي تجاورها ؟ أم أن مثل هذا ليس اختلافاً في اللهجات ؟؟ هل يمكن أن تقسم اللهجات على أساس من التقسيم الجغرافي البحت ؟ وهل تكون الحدود الشمالية لمديرية الجيزة مثلاً ، الخط الفاصل بين اللهجة المصرية الشمالية (البحرية) ، وبين اللهجة المصرية الجنوبية (الصعيدية) ؟؟؟ الواقع لا ، لأن هذه الحدود ، تبدأ من منطقة الجامعة ؛ والدق ؛ ومدينة الجيزة وهي أقرب إلى اللهجة البحرية (أو القاهرية) من كثير من بعض مناطق الوجه البحري .

على أى أساس إذن يمكن تقسيم اللهجات ؟؟ هذا هو ما سنحاول أن نجيب عليه في السطور القليلة الآتية .

الواقع أن الظواهر الاجتماعية ، ومن بينها الظواهر اللغوية ، لا يمكن أن تقسم تقسماً دقيقاً ، لأنها تتداخل فيما بينها . ولا شك أنك تعلم ، أن التقسيم التاريخي للعصور الأدبية مثلاً ، لا ينتهي عند قيام دولة أو سقوط أخرى . فبالرغم من أن قيام الدولة العباسية ، يعتبر حداً أصطلح مؤرخو الأدب على اعتباره بدءاً للعصر العباسي الأول ، فإن كثيراً من الظواهر الأدبية التي سادت العصر الأموي ، ظلت موجودة ونشطة . ويقول مؤرخو الأدب ، إن التطور أمر تدريجي ، وأن التقسيم التاريخي أمر اعتباري . ولذلك فإنه من غير الممكن أن يكون هذا النوع من التقسيم تقسماً دقيقاً .

ومشكلاتنا التي نواجهها شبيهة بهذه المشكلة . فمن العسير فعلاً أن نرسم حداً فاصلاً ، تنتهي عنده لهجة من اللهجات وتبدأ لهجة أخرى

ولو افترضنا أن لهجة مصر الشمالية ، تحتوى على بعض الظواهر اللغوية ، التي نرمز لها بالرمز ١ ، ب ، ح ، فإننا لأنجد هذه الظواهر تنقرض جميعاً في مديرية

الجيزة ، بل إن الظاهرة « ١ » ، قد توجد في هذه المديرية ، أو في جزءها الشمالى على الأقل . ولو افترضنا أن لهجة مصر الجنوبية ، هى مجموعة من الظواهر اللغوية ، التى ترمز لها بالرمز **س** ، **هـ** ، و فإننا قد نجد الظاهرة « ٥ » ، بالقاهرة والقلوبية . ولو جعلنا التقسيم السياسى ، الذى يفصل بين مديريات الوجه القبلى والبحرى ، أساس تقسيمنا اللغوى فاعتبرنا مديرية الجيزة ، نهاية اللهجة الجنوبية من الجهة الشمالية ، لما كان ذلك صادقا على كل ظواهر لهجة الجنوب ، لأن الظاهرة « ٥ » تمتد إلى مديرية القليوبية شمالا . وبالمثل لو جعلنا التقسيم المذكور نقطة انتهاء لهجة الشمال من ناحية الجنوب ، لأن الظاهرة « ١ » تمتد إلى داخل مديرية الجيزة نفسها .

ولهذا التفسير الذى عرضت عليك ، أساس من فكرتنا عن ماهية اللغة . لقد كان بظن من قبل ، أن اللغة كلُّ مَادَى ^(١) طبعى . وأن هذا الاعتبار وحدة محدودة . وهذا خطأ وقع فيه المفكرون اللغويون الأول ، وكان سببا لكثير من الأخطاء فى دراسة قواعد اللغات . ولكن التفكير اللغوى الحديث ، لا يعطى للغة صفة مادية ، محددة هذا التحديد . وسأوضح لك بمثالين الفرق بين الرأى القديم والرأى الحديث .

لو تأملت حزمة من « الجرجير » أو « الخبيزة » ، لوجدتها فى الواقع مجموعة من العيدان . وليس من الضرورى ، أن تكون العيدان الموجودة بالحزمة ، تنتمى إلى نبتة واحدة . ولكنك لو تناولت « فجلة » لوجدت جميع عيدانها ، تكون نبتة واحدة . وفى الحالة الأولى ، لدينا وحدة غير طبيعية . بينما لدينا فى الحالة الثانية وحدة طبيعية . ولو أردنا دراسة كلِّ عود من أعواد المجموعة الأولى ، فإننا سنضطر

(١) انظر ص ٥ . وتعليق رقم ٢ فى أسفل الصفحة نفسها .

إلى دراسة عدد من النباتات ، هي التى ينتمى إليها كل عود من الأعواد الموجودة فى الحزمة . ولكن لو درسنا الأعواد فى المجموعة الثانية ، فإننا لا نضطر إلى دراسة عدد كبير من النباتات ، لأنها جميعاً تنتمى إلى نبتة واحد .

واللغة شبيهة بالحزمة من النوع الأول . فهى مجموعة من الظواهر المنفصلة ، بعضها من بعض ، لكل منها أصلها ، وتاريخها ، وظروف نشأتها ، وموطنها . ولا بد لدراستها من أن تتناسى الروابط غير الطبيعية . التى تربط بينها ، وهكذا يمكن أن ننظر إلى لهجة الشمال مثلاً ، باعتبارها مجموعة من الظواهر اللغوية المستقلة فى نشأتها ، وتوزيعها . فظاهرة النطق بالقاف العربية همزة ، هى إحدى الظواهر التى تميز لهجة القاهرة . ولكن ليس معنى ذلك عدم وجودها فى أى مكان آخر سوى القاهرة .

ولهذا السبب فإننا لاعتبر اللهجة ، أمراً محدداً محصوراً ، بل مجموعة من الظواهر الخاصة . وقد يحدث ، أن تتخلف إحدى هذه الظواهر ، فى بعض أجزاء الإقليم الذى تنسب اللهجة إليه . كما يحدث أن توجد ظاهرة جديدة فى بعض الأجزاء ولا توجد فى الباقى . وهكذا ترى أننا لانهمل التقسيم الجغرافى للمنطقة اللغوية ، بل نستفيد منه . ولكننا لانبجمل هذا التقسيم ، أساساً فاصلاً لتقسيم اللهجات ، إلا باعتبار خاص . أما كيف نستفيد من ذلك . فإننا نرسم خريطة للأقليم ، وتتبع ظاهرة لغوية معينة ، موزعين إياها على هذه الخريطة . ولتكن هذه الظاهرة ، هى نطق القاف العربية همزة ؛ فإننا نجدها موزعة على خريطة مصر ، فى القاهرة ، مديرية القليوبية ، بعض مناطق المنوفية ، جزء خاص من الغربية ، وهكذا . ويمكن أن نرسم خطاً يصل بين القرى والمدن التى توجد فيها الظاهرة المذكورة . ويسمى هذا الخط « خط توزيع الظاهرة » « Isoglosses » . ثم تتبع ظاهرة أخرى فى نفس المنطقة . ولتكن ، فتح ما قبل هاء التأنيث والهاء التى تنطق بدلاً من الألف فى نهاية

السكامة ، في مثل فاطمه ، وكتابتها (لكلمتي فاطمة ، وكتابنا) . وسنجد
مثلا موجودة بالمدن دون القرى ، أو دون بعضها على الأقل (حيث أن أغلب
القرى تقول فاطمه ، كتابته) . ثم نرسم خط التوزيع لهذه الظاهرة ، وهكذا .
وسنجد لدينا في النهاية ، مجموعة من خطوط التوزيع . وقد يمر عدد كبير من هذه
الخطوط بمكان جغرافي واحد . وهنا نستطيع أن نقول ، إن هذا المكان ، هو
موطن للهجة من اللهجات . وسنجد مجموعة أخرى من خطوط التوزيع في مكان
آخر ، تبلغ من الكثرة ، ما يبرر لنا اعتبار هذا المكان ، موطنًا للهجة ثانية ،
وهكذا .

ويمكن تشبيه سلوك هذه الخطوط ، بشبكة المواصلات في القاهرة . فسنجد في
« باب الحديد » أتوبيسات رقم ١ ، ٢ ، ٣ ، ٤ ، ٩ ، مثلا . وسنجد في ميدان التحرير ،
أتوبيسات رقم ١ ، ٩ ، ١٢ ، ٢٣ ، مثلا . وسنجد في شارع المنيرة ، أرقام ٢ ، ٣ ،
٤ ، ١٢ ، وهكذا . ولو فرض أن قسمنا القاهرة ، إلى مناطق باعتبار ما يمر بها من
الأتوبيسات ، فإن منطقة « باب الحديد » تتميز بوجود عدد معين منها . ولكن
ليس معنى ذلك ، أن الأتوبيس الموجود بهذه المنطقة ، لا يمر بسواها من المناطق .
والحقيقة ، أن منطقة أخرى من المناطق ، تتميز بوجود بعض الأتوبيسات ، الميزة
لباب الحديد ، إلى جانب أتوبيسات أخرى . لا توجد في هذه المنطقة الأخيرة .
وإليك مثلا منطقة المنيرة ، حيث يوجد فيها أرقام ٢ ، ٣ ، ٤ ، وهي توجد في باب الحديد ،
ولكن رقم ١٢ مثلا ، لا يوجد في المنطقة الأخيرة .

ومنطقة المواصلات ، على هذا الاعتبار ، تتحدد بمجموع الخطوط ، وإن كان
كل من هذه الخطوط يفصل عن الآخرين ، خارج حدود المنطقة ، ليكون مع سواه
منطقة أخرى . وكل خط من خطوط الأتوبيس ، هو ظير لخط التوزيع ، الذي ذكرته
لك . واللهجة تناظر منطقة المواصلات في المثال المذكور . وكلما تحدد المنطقة بعدد
خطوط الأتوبيسات المارة بها ، فإن اللهجة تتحدد بخطوط التوزيع المارة

بالمنطقة التي توجد فيها اللهجة . وكما أن وجود خط من خطوط الاتوبيس في منطقة ما ، لا يمنع وجود هذا الخط نفسه ، في منطقة أخرى ، فإن وجود خط من خطوط التوزيع في موطن لهجة من اللهجات ، لا يمنع وجوده في موطن لهجة أخرى .

هذا هو الارتباط بين اللهجة والموطن الجغرافي للجماعة اللغوية وهذا هو ما نعلمه عندما نقول ، بأنه من الممكن تقسيم اللهجات تقسيماً جغرافياً . ومثل هذه الدراسة ، تدخل في مجال فرع من فروع علم اللغة ، يسمى « الجغرافيا اللغوية »

وهنا أذكر القاريء ، من أن يغالى في الاعتبار الجغرافية . فإن العامل الجوهري في الفروق التي توجد بين لهجة وأخرى ، هو الفروق الإنسانية ، لا الفروق الطبيعية كما كان يظن من قبل ^(١) . وبمقدار ما يكون للعوامل الجغرافية من تأثير على نشاط الإنسان ، يكون تأثير هذه العوامل على اللغة .

ولنأخذ مثلاً ، سهولة المواصلات في إقليم ، وصعوبتها في إقليم آخر . وسهولة المواصلات أو صعوبتها ، عامل يؤثر على اتصال أبناء جماعة لغوية ما ، بسواهم من أبناء الجماعات اللغوية المجاورة . ولما كانت اللغة سلوكاً اجتماعياً ، فإنها تتأثر بكثرة اتصال الفرد بسواه ، أو بقلة هذا الاتصال ولهذا فإننا نجد ، أن سهولة المواصلات في الوجه البحري ، كانت سبباً في قلة الفروق بين لهجة القاهرة ولهجات مديريات هذه المنطقة . بينما أن عسر المواصلات ، نسيباً ، في الوجه القبلي ، جعل الفرق بين لهجة القاهرة ، ولهجات مناطق الصعيد المختلفة كبيراً .

(١) من أمثال هذا النوع من الخطأ ، ما يظنه البعض من أن المناخ مثلاً تأثيراً على نطق بعض الحروف . ويعمل من يقول بذلك لهذا الرأي ، بأن الأعضاء الصوتية تتأثر بالظروف الطبيعية من مناخ وبيئة . ولقد ثبت فساد مثل هذا الرأي ولست الآن في مجال مناقشته .

وفي العصور القديمة ، لعبت الطرق الرومانية دوراً مماثلاً في إزالة الفروق بين اللهجات ، التي ربطت هذه الطرق بين مواطنها . وعلى العكس من ذلك ، فصلت الأنهار الكبيرة بين مواطن بعض اللهجات ، فكان الاتصال عسيراً على من كانوا يتكلمون بها ، ولهذا اتسع مدى الاختلاف بينها .

كذلك لعبت الصحراء دوراً مماثلاً ، في العزل بين اللهجات واللغات . وعند ما فتح المسلمون مصر ، أخذت العربية تحل محل القبطية فيها . وقد نجت اللغة النوبية من هذا الغزو اللغوي ، لأن الصحراء وقفت حائلاً دون ذلك . وهكذا بقيت النوبية حتى هذا اليوم . ولنفس السبب ، بقيت اللغة البربرية في جنوبي ليبيا ، فقد أوقفت الصحراء زحف العربية ، من شمال ليبيا إلى جنوبها ، وهكذا بقيت البربرية هي الأخرى حتى اليوم .

ولم يقف دور الصحراء عند هذا ، بل إنها كانت ذات دخل كبير ، في تعدد لهجات العرب في شبه الجزيرة . كذلك عزلت الصحراء ، العربية من أن تتصل اتصالاً شاملاً باللغات الأخرى في خارج الجزيرة . ولهذا احتفظت العربية بخصائص اللغة السامية الأولى ، أكثر مما احتفظت بها أية لغة سامية أخرى ، وبعضها أقدم من العربية . لقد انقرضت كثير من الظواهر السامية في هذه اللغات الأخرى ، أو تطورت ، بتأثير سهولة اتصال الشعوب المتكلمة بها بسواهم . أما العربية فقد احتفظت بهذه الخصائص ، نظراً لوجود الصحراء حائلاً دون الاتصال الكثير اليسير . إليك مثلاً لذلك ، نطق « العين » و « الحاء » وقد انقرض في البرية ، فصارت الحاء تنطق كالحاء والعين كالهيمزة . أما في العربية فلا يزال لهما نفس النطق الذي كان في اللغة السامية الأصلية .

وقد كان للغابات كذلك أثرها في صعوبة الاتصال الإنساني . ومن ثم نجد

غروفا لغوية ، بين سكان الأقاليم التي تفصلها الغابات . ولقد قرر ب . ك ثور سين (P. K. Thorsen) ، أن اللهجة الشرقية ، واللهجة الغربية ، في بلاد جوتلاند Jutland ، هما من آثار الغابات ، التي كانت تقسم هذه البلاد إلى قسمين شرقي وغربي . كذلك قرر جونار كنودسين (Gunnar Knudsen) ، أن توزيع اللهجات في بلاد سيلاند الجنوبية South seeland ، متأثر كذلك بأماكن الغابات ، التي كانت توجد العصور القديمة .

أما في الأماكن التي لا توجد فيها عقبات ، تمنع من اتصال الجماعة اللغوية بسواها من الجماعات — كما هو الحال في شمالى غربي فرنسا — فإن اللهجات ، يختلط بعضها ببعض ، وتقل الفروق فيما بينها . وعند ما نوضح ذلك بواسطة الخرائط الجغرافية ، نجد أن خطوط التوزيع ، تسير متوازية لامتقاطعة . وتبدو هذه الصورة على النقيض ، عندما نوضح الوضع اللغوي في الأماكن التي تعسر أو كانت تعسر فيها المواصلات . وفي مثل هذه الحالة ، نجد خطوط التوزيع متقاطعة لامتوازية .

وقد يعترض البعض ، بوجود اختلافات لغوية ، في سهول فرنسا ، وليس هناك حواجز طبيعية تمنع المواصلات . وهذا الاعتراض صحيح ، ولكن هناك حواجز إنسانية أخرى : حيث أن هناك مدناً مختلفة ، كانت كل منها مركزاً دينياً . وقد نشأ عن ذلك أن أصبحت كل من هذه المدن ، مركزاً لتجمع عدد من السكان يمثلون الطائفة الدينية الخاصة ، التي تعتبر هذه المدينة أو تلك مركزاً لها . ومن الطبيعي أن يكون الخلاف الديني بين طائفة وطائفة ، صارفاً لأبناء كل فريق عن الاختلاط الكثير ، إن لم نقل إلى مقاطعة ، أبناء الفريق الديني الآخر (١) .

(١) لهذه الحالة نظير في الإقليم الذي ولدت فيه ، حيث توجد قرية اسمها (كفر سليمان) (مركز المنطقة الغربية) ، كل سكانها من الأقباط . ومن النادر أن تجد اتصالاً بين أبناء هذه القرية ، وبين سواهم من أبناء القرى المجاورة .

من كل ماذ كرب لك ، يظهر لك أن هناك اتجاهين ، في حياة اللغات .
أما أحدهما ، فينزع بها إلى الانقسام ، وأما الآخر ، فينزع بها إلى الاتصال والتوحد .
ولقد تساءل الكتاب اللغويون ، منذ بدأت الدراسات اللغوية الحديثة ، عن أى
الاتجاهين أقوى أثراً ، ومالت جبهة هؤلاء الباحثين ، إلى أن الاتجاه إلى الانقسام
أقوى أثراً من الاتجاه إلى التوحيد . وهم في ذلك متأثرون بالحياة المادية . فكما أن
المادة تتحلل (أى تنقسم) ثم تبنى ، فكذلك الحال في اللغات ، فهي تنقسم ،
ثم تنقسم ، حتى تبلغ غاية الفناء ، التى لا مفر لها منها .

ولقد بدأ الخلاف بين أنصار كل من المذهبين على أشده ، عندما دعا بعض
اللغويين إلى ابتكار لغة عالمية ، تستعمل في المؤتمرات العالمية . أما السبب في مثل هذه
الدعوة ، فقد كان ما يصادفه أعضاء هذه المؤتمرات من صعوبات ، عندما يحاولون
التفاهم ؛ وخاصة في الأمور العلمية التى تتطلب التعبير والفهم الدقيق . ولم يكن ذلك
أمراً سهلاً ، لأن أعضاء هذه المؤتمرات يتكلمون لغات عديدة ؛ فكان لا بد من
استعمال لغة ، أو لغتين ، أو ثلاث ، من اللغات الكبرى ، كالفرنسية والإنجليزية
والألمانية . وكثيراً ما كان يحدث أن يوجد بعض الأعضاء ، الذين لا يتقنون أياً من
هذه اللغات . ولهذا دعا الداعون ، إلى ابتكار لغة موحدة يتعلمها الجميع على
مختلف مواطنهم ولغاتهم . ومن أهم الشروط التى وضعت لهذه اللغة الصناعية ،
أن تتخلص من الشذوذ الموجود في اللغات الطبيعية . ومن أمثلة هذا الشذوذ
في العربية تأنيث بعض الكلمات التى تدل على مذكر ، مثل « حمزه » ، ولحوق تاء
التأنيث بالفعل ، إن كان الفاعل جمع تكسير ، ولو كان لذكراً ، ومثال ذلك « جاء
الرجال » . ومثل هذا الشذوذ ، قد يبدو غير ذى قيمة ، عند أبناء اللغة نفسها ،
ولكنه عائق دون الفهم الصحيح السريع ، عند سواهم ، ممن لا يتقنون اللغة ذاتها .
أقول ، بدأ الخلاف بين من يغلب الانقسام ، وبين من يغلب التوحد ، عندما

أثير هذا الاقتراح . وقد قال أنصار الانقسام بعث هذه المحاولة . وإليك مثلاً ما يرى واحد من زعمائهم (ه.ش. وايلد H. G. wyld) . لقد قال إنه من العبث ابتكار مثل هذه اللغة . وذلك لأنها ستخضع لنزعة الانقسام ، فلا تلبث ، مع الزمن ، أن تنقسم إلى لهجات مختلفة ، يتسع الفرق بينها . وبذلك تقع في مثل الصعوبة التي حاولنا التخلص منها ، عندما ابتكرنا مثل هذه اللغة . وسيكون من نتائج ذلك ، أن يضعف على الإنسانية ، كل التراث الثقافى المدون بها .

ونلاحظ على هذا رأى ، أنه مبنى على أساس اعتبار أن اللغة الصناعية ، تخضع لنفس الظروف التى تخضع لها اللغة الطبيعية . وهذا مخالف للفرض الأساسى ، فى ابتكار هذه اللغة . فالمفروض أنها ليست لغة تستعملها الشعوب أو الأفراد ، فى حياتهم العادية ؛ بل هى لغة قراءة وكتابة ، أكثر مما هى لغة حديث . وبهذا لا تخضع اللغة الصناعية للابتكار الفردى غير المقصود ، الذى رأينا أنه السبب ، فى كثير مما يعترى اللغات من تطور ، قد يتفرع بها إلى لهجات مختلفة . وكذلك الوضع بالنسبة للمفردات . والمفروض أن مفردات اللغة الصناعية محددة فى دلالاتها ، فليس هناك ترادف ، أى دلالة أكثر من كلمة على معنى واحد ، ولا اشتراك لفظى ، أى دلالة لفظ واحد على أكثر من معنى ، مما هو موجود فى اللغة الطبيعية ، ومما كان السبب دائماً فى كثير من التأويل لمعانى الألفاظ . وفوق كل ذلك فإن المفروض أن تقوم بجانب اللغة الصناعية مجالس علمية ، تشرف على تطويرها . ومن أعمال هذه المجالس ، أن تضيف المفردات التى تحتاج إليها اللغة ، وأن تتخلص من المفردات التى تفقد دلالاتها .

وهكذا نجد ، أن ما يحدث فى اللغة الطبيعية ، من تطور ، عفواً ودون قصد ، يحدث فى حالة اللغة الصناعية ، بتوجيه ودراسة . ولهذا فإن إمكان انقسامها إلى لهجات أمر بعيد الاحتمال .

أن ما يقال ، من الخوف على ضياع التراث الفكرى ، المدون بمثل هذه اللغة ،

نظرا لإمكان انقسامها ثم اقراضها ، كما ترى غير محتمل ، لما وضعنا من بُعد احتمال نشوء هذا الانقسام . ولو صح ما قالوا وحدث انقسام ، فلن يكون ذلك عيباً في اللغة الصناعية وحدها ، حيث أن الناقدين لهذه اللغة ، يعترفون أيضاً بانقسام اللغات الطبيعية واقراضها . وبالرغم من كل ذلك فلم يقل واحد منهم ، بعدم استعمال اللغات الطبيعية ، لتدوين التراث الإنساني ، خوفاً من الضياع .

ولكن على أن أساس يقول هؤلاء الباحثون ، بغلبة انقسام اللغات على توحدها؟؟

إنهم يقولون ذلك ، معتمدين على المشاهد المحسوس . فيها نحن نرى أن اللغة العربية مثلاً ، قد انقسمت إلى لهجات مختلفة ؛ فهناك المصرية ، والسودانية ، والبيدية ، ولهجات شمل أفريقيا من تونس إلى الجزائر ومراكش . وهناك أيضاً اللهجات الشامية ، والعراقية ولهجات شبه الجزيرة . كل هذه أمثلة لانقسام اللغة الواحدة التي تمثلت يوماً ما في العربية الفصحى . بل إن الأمر في الواقع لأدهى من ذلك ، وها هي المصرية ، تنقسم إلى لهجات بدورها ، كما تنقسم كل من اللهجات المذكورة إلى لهجات أصغر . وكذلك الحال في جميع لغات البشر . ولدينا مثلاً اللاتينية ، التي انقسمت إلى الإيطالية ، والرومانية^(١) ، والفرنسية ، والأسبانية والبرتغالية ، ولدينا كذلك اللغة الاسكندنافية القديمة ، وقد انقسمت إلى ، النرويجية ، والسويدية ، والدانماركية ، والأيسلاندية ، وهكذا .

إن اللغة ، تنقسم إلى لهجات ، ثم لا تلبث هذه الأخيرة أن تقوى سواعدها ، فتصير لغات ثم لا تلبث بدورها أن تنقسم إلى لهجات .

هذا ما يراه هؤلاء اللغويون القائلون بهذا الرأي . ولكنهم وإن صح ما يقولون ، يغفلون الجانب الآخر للقضية . فهم حين يلتفتون إلى مظاهر الانقسام ، يغفلون مظاهر التوحد اللغوي . وإنا نستطيع في سهولة ، أن نثبت أن عوامل التوحد

(١) أي لغة رومانية — لا لغة روما :

كانت في العصور القديمة ، التي احتجوا بها ، أقوى أثراً من عوامل الانقسام .
أما أثر هذه العوامل في العصر الحديث فأوضح من أن يحتاج إلى تقرير .

إن ملاحظه هؤلاء القوم ، من انقسام اللغات انقساماً ، قالوا عنه بأنه عظيم
وخطير ، مبني على نوع من الخداع البصري . وذلك لأنهم أخذوا يعدون اللغات ،
التي تولدت عن لغات سابقة عليها ، وأغفلوا المقارنة بين حجم الجماعات اللغوية
التي كانت تتكلم السابقة واللاحقة . ولو قارنا عدد اللغات الموجودة اليوم ، وعدد
من يتكلمون بها ، لكانت نسبة من يتكلم أية من هذه اللغات ، أعظم بكثير
من نسبة من كان يتكلم بأى من تلك اللغات المنقرضة . ويكفي أن نعلم أن عدد
السكان في مصر وحدها ، قد قفز منذ عهد محمد علي إلى عصرنا هذا ، من ثلاثة
ملايين إلى اثنين وعشرين . حدث هذا في مدى من الزمن لا يتجاوز
مائة وخمسين عاماً .

ولعل هذا المثال يعطيك فكرة عن ضالة العدد ، الذي كان يتكلم السامية
الأولى ، أو اللاتينية ، أو الاسكندنافية القديمة . ولو فرضنا أن عدد الجماعة
اللغوية ، التي كانت تتكلم أياً من اللغات القديمة ، كان ثلاثة أو أربعة من الملايين ،
لكننا أسخياء في تقديرنا . ولتأخذ إلى جانب ذلك اللغات التي تطورت عن اللغة
الجرمانية الغربية القديمة؛ فستجد الجماعات التي تتكلم هذه اللغات كالألي : مائة وخمسون
مليوناً يتكلمون الإنجليزية ، وثمانون يتكلمون الألمانية ، وعشرة يتكلمون
المولاندية . واللغة الجرمانية الغربية ، لم تسكن سوى أحد أعضاء المجموعة
الهند وأوروبية ؛ هذه المجموعة التي تضم اللغات الهندية ، ويبلغ عدد من يتكلم بها
نحواً من ثلاثمائة وخمسين مليوناً .

أما الوضع بالنسبة إلى اللغة السامية الأولى ، فمختلف بعض الشيء . وذلك
لأن أعظم اللغات التي تولدت عن هذه اللغة ، قد انقرضت ، ولم يبق منها في الواقع

إلا العربية . وبهذه اللغة وحدها يتكلم أربعة ملايين في العراق ، وأربعة آخرون في سوريا ، واثنان في لبنان ، ومليون في فلسطين وشرق الأردن ، واثنان وعشرون في مصر ، وستة في السودان ، واثنان في ليبيا ، وأحد عشر في شمال أفريقيا الفرنسية ، ونحو ثلاثة في شبه الجزيرة . وكل ذلك يتراوح بين الستين والسبعين مليوناً

ولوقست هذه الأعداد الضخمة ، التي تتكلم هذه اللغات ، وقارنتها بالعدد الذي كان يتكلم أياً من اللغات القديمة ، التي تولدت عنها اللغات الحديثة التي ذكرناها ، لاتضح لك ، أن أسباب ما يبدو أن تقسام هذه اللغات القديمة ، إلى لغات حديثة ، لاتقاس بجانب العوامل التي وحدث توحيداً لغوياً ، بين هذا العدد الضخم من الناس الذي قدمت لك مثالين من أمثلته .

ولقد ذكرت لك من قبل ، أن كثيراً من اللغات ينقرض ، ويفسح الطريق للغة واحدة ، تربط بين جماعات ، كانت من قبل منفصلة انفصالاً لغوياً . ومن أمثلة ذلك انقراض القبطية ، والبربرية ، في شمالي أفريقيا ، والفارسية في منطقة العراق ، وترك المجال للعربية ، لتربط بين جماعات لغوية ، امتدت مواطنها من المحيط الأطلنطي إلى حدود الهند .



تحدثنا فيما سبق ، عن علاقة الظواهر الجغرافية بانقسام اللغات إلى لهجات ، أو توحيد مختلف اللهجات واللغات في لغة واحدة . وتحدث الآن عن العوامل التاريخية ، وعلاقتها بهذا النوع من الانقسام ، أو التوحيد ، اللغوي . ونؤكد هنا كما أكدنا من قبل ، أن العوامل التاريخية التي نعنيها ، عوامل إنسانية ، وليست مجرد مرور زمن ، يطول أو يقصر . ولو مرت أجيال وأجيال ، دون أن يحدث من الأحداث ، ما يحمل جماعة لغوية على الاختلاط بجماعة لغوية أخرى ، أو يفرقها عنها ، فإنه ليس لهذه الأجيال الطويلة ، من وجهة نظرنا أثر يذكر .

ولكن لو مرت سنوات قليلة ، مليئة بالأحداث التي تحمل الجماعات الإنسانية على الإختلاط ، فإن هذه السنوات ، من وجهة نظرنا نحن ، أهم من الأجيال الطويلة ، التي خلت من الأحداث المذكورة .

وإليك على سبيل المثال ، القرون العديدة التي مرت بجزيرة العرب ، قبل بعثة محمد عليه السلام . لقد كانت هذه القرون ، غير ذات أهمية خاصة . ولكن السنوات القلائل ، التي قام فيها محمد بدعوته ، كانت كافية لتوحيد كثير من لهجات الجزيرة . ولو أدخلنا في اعتبارنا القرنين التاليين لهذه السنين القلائل ، لرأينا الصراع العنيف بين العربية واللغات المحلية ، في البلاد التي اعتنقت الإسلام . ففي مصر قام صراع بينها وبين القبطية ، وفي العراق بينها وبين الفارسية ، وفي شمال أفريقيا بينها وبين البربرية .

ولعل أضخم الأحداث ، التي واجهت التاريخ البشري ، قدمت في عهد النهضة الأوروبية الحديثة . فقد كان ابتكار الآلة ، وظهور الطبقة المتوسطة مقدمة لظهور القوميات . وقد تبع ظهور القوميات ، ظهور اللغات القومية . وقبل عصر النهضة ، كانت اللغة اللاتينية ، لغة العلم والدين في أوروبا كلها . ولذلك فقد كانت سجلا لتراث أوروبا الفكري ، وكانت في نفس الوقت عاملا موحداً لمختلف أجزاء هذه القارة ^(١) ولم تكن اللهجات المحلية إلى جانب اللاتينية ذات شأن يذكر . أما بعد عصر النهضة فقد تبدل الحال ، وفقدت اللاتينية مركز الصدارة ، ونمت على حسابها اللهجات المحلية ، من الإنجليزية ، وفرنسية ، وألمانية ، وأسبانية ، وإيطالية ، وغيرها ، فأصبحت لغات الثقافة الجديدة ، كل منها في موطن خاص . وفي كل موطن من هذه المواطن كانت توجد أكثر من لهجة — أولغة — واحدة ؛ ولكن إحدى هذه اللهجات

(١) كان هذا توحيداً للطبقة المثقفة في أوروبا دون سواها من الطبقات .

أو اللغات ، أصبحت ، بفعل العوامل السياسية غالبا ، ذات مركز متميز ، مكنها من اكتساح سواها من اللهجات واللغات . ففي إنجلترا مثلا ، أخذت لغة منطقة لندن تكتسح اللغات واللهجات المحلية الأخرى ، التي منتشرة في مختلف أجزاء الجزر البريطانية . وعلى هذا فقد تراجعت لهجة كورنويل ، ولانكشير ، واللغة الاسكتلاندية . ولغة ويلز ، أمام هذا الزحف حتى انقرضت ، أو اقتنعت على الأكثر بزواية محدودة .

وللفرنسية الحديثة قصة شبيهة بقصة الإنجليزية . وأصل هذه اللغة ، لغة سكان جزيرة باريس بنهر السين . وقد امتدت هذه اللغة على ضفتي النهر ، وأخذت تكتسح اللهجات واللغات المحلية ، التي كانت منتشرة في مختلف أرجاء الدولة الفرنسية . ولقد اختلفت درجات هذا الاكتساح اللغوي ، باختلاف العوامل الجغرافية ، المذكورة من قبل ، ففي ويلز والأجزاء النائية من اسكتلندا ، حيث المواصلات صعبة عسيرة ، لا يزال للهجات واللغات المحلية وجود قوى . أما في الأقاليم الوسطى ، والمحيط بلندن ، فقد أصبحت اللغة متماثلة مع لغة لندن ، إلى حد كبير .

وأظنك ترى في هذا ، زعة الانقسام اللغوي ، محدودة ضعيفة . وذلك لأن الزعة المضادة ، أعنى زعة التوحيد اللغوي ، قد قاومتها وتغلبت عليها .

ولقد انتهت قصة القوميات بأوربا ، وكان من نتائجها ما رأيت من سيطرة اللغات المحلية ، وحلولها محل اللاتينية ، التي كانت لغة العلم والثقافة في هذه القارة . ولكن دور القوميات في غير أوربا لا يزال فعّالا ، فإلى أى مدى سيؤثر هذا العامل ؟ ! وهل ستمثل القصة ، التي مثلت في أوربا بإزاء اللهجات المحلية مرة أخرى ؟ ! كل ذلك خاضع بالطبع للظروف العاطفية والسياسية للجماعة اللغوية الكبرى . ولناخذ العربية مثلا تتدارسه في هذا الصدد .

لقد حاولت السياسات الغربية — أو بالأدق السياسة الإنجليزية والفرنسية ،

في البلاد العربية تشجيع الحركات القومية في بلاد العرب . وكان هدفهم من ذلك التخلص من النفوذ الروحي ، الذي كان لتركيا في هذه البلاد . وهكذا قسمت البلاد العربية إلى دول ، منحت كل منها سيادة سياسية ، تختلف بها في كيانها عن بقية أجزاء الوطن العربي . ومن ثم رأينا من الشام ، دول فلسطين ولبنان وسوريا وشرق الأردن ، ومن وادي النيل ، مصر والسودان ، ومن شمالي افريقيا ، تونس والجزائر ومراكش وهكذا . وقد كان من الطبيعي لو سارت الأمور على الطريق الذي رسم لها ، أن يقوى ساعد اللهجات المحلية ، وأز يكون لها من الشأن ، ما كان للفرنسية ، والإنجليزية ، والإيطالية ، وسواها من اللهجات المحلية الأوربية ، التي أصبحت لغات أدب وثقافة . ولقد بدرت مثل هذه البوادر بالفعل ، فرأينا للزجل المصري سوقا ازدهرت حينما من الدهر بل لقد كتب بعض الأدباء قدرا غير ضئيل من نتاجهم ، باللغة الدارجة . وهذا هو ما حدث بالفعل في اوربا ، وكان مقدمة لتركز اللهجات المحلية^(١) . ولكن عوامل أخرى كانت ذات أثر فعال في هذا الميدان :

فأولا ، عامل الدين . ولقد ارتبط الإسلام بالعربية ربطا لا ينفك . ولقد بلغ من قوة الترابط بين الدين واللغة ، أن اتخذت العربية لسانا ، شعوب مسلمة لا تتكلمها ، كإيران والباكستان . والقمرآن كتاب لم يترجم بعد ؛ ولذلك فقد كان لزاما على كل مسلم ، أن يأتيه في لسانه العربي المبين . وهذا مغاير لما كان عليه الحال في أوربا . وذلك لأن الإنجيل الذي كان يقرأ في أوربا باللاتينية ، لم يكن لاتيني الأصل . وإذا صحت الترجمة إلى اللاتينية ، دون أن يرى رجال الدين في ذلك حرجا ، فإنه لم يكن عمة مانع من أن يترجم بدوره إلى الإنجليزية ، أو الفرنسية ، أو سواها من

(١) تعتبر قصص كانتبري : Canterbury Tale التي كتبها الأديب الإنجليزي شوسر Chaucer من أوائل من ماكتب باللغة المحلية في الإنجليزية .

هذه اللغات الناشئة . وهكذا ترى أنه في الوقت الذي ارتبط فيه الإسلام بالعربية ، لم ترتبط فيه المسيحية باللاتينية .

وثانيا ، عامل الأدب المشترك . والأدب العربي في الواقع ، نتاج تعاونت عليه الشعوب العربية كلها . وبذلك لم يكن هذا الأدب غريبا على أى موطن من مواطن العروبة . وعند ما ترعرعت الحركات القومية في البلاد العربية ، وجدت في العربية الأدبية وسيلتها . وعندما ألحت الرغبة في إحياء الثقافة القومية ، وجد القائمون على هذا النشاط الثقافي ، في أدبهم العربي ، ما يكفي حاجتهم العقلية . وهكذا نجد هذه النهضة تتمثل في مصر مثلا ، بإحياء الشعر العباسي ، على لسان شوقي والبارودي وأمثالهما . ومما ساعد على ذلك أن الفرق بين العربية الفصيحة ، وبين اللهجات العربية ، فرق لا ينهض حاجزا بين أبناء هذه اللهجات وبين اللغة الفصيحة . والأمم غير ذلك في أوروبا . ففي إنجلترا ، وألمانيا وسواهما ، كانت اللاتينية لغة غريبة عن اللهجات المحلية . ولذلك لم تكن في متناول السواد الأعظم من الشعب ، بل كانت لغة الخاصة القليلة . وعصر القوميات هو في الواقع عصر الشعوب ولهذا فلا بد من استبدال اللاتينية وإحلال لغة الشعب محلها . ولغة الشعوب ، في البلاد العربية كما قالت لم تكن بعيدة عن الفصحى . وإن أى قروى ليستطيع أن يفهم ما يقرأ له باللغة الفصيحة ، إلى حد يكفي ظمأه للمعرفة .

وثالثا ، اتجاه الحركة القومية إلى القومية الكبرى . وأعتقد أن لروح العصر نفسه ، دخلا كبيرا في هذا ، فعندما قامت القوميات في أوروبا ، لم يكن هناك حركة مضادة تحول تيارها . وقد نتج عن ذلك أن استقلت الأجزاء المختلفة من القارة ، كل جزء بذاته^(١) ولكن القوميات في هذه الأيام تشهد مظهرا من مظاهر التكتل

(١) حدث في نفس الوقت حركة تجمع في إيطاليا وألمانيا حيث قامت الركات الوطنية فيها مطالبة بتوحيد الولايات الألمانية والولايات الإيطالية .

في نفس الوقت الذي تزدهر فيه . فنحن نرى دول شرق أوروبا تتكتل ، ودول جنوبى شرق آسيا تتكتل ، ودول أمريكا اللاتينية تتكتل ، كما نرى تمشيا مع هذا المنطق ، دول العروبة بدورها تتكتل . وهكذا لم تفرد النزعات الاستقلالية في الميدان ، بل تدخل عامل سياسى آخر ، هو ما نراه من اتجاه مختلف دول العالم للتكتل الإقليمى ، فجد كثيرا من نشاط هذه النزعات . وإن مما يساعد على التكتل الإقليمى الاشتراك اللغوى . وإذن فليس من المعقول ، في مثل هذا الظرف ، أن نجد لتيار الانفصال اللغوى أثرا كبيرا في هذه المجال .

وفي المثال الذى ذكرته لك الآن ، ترى عوامل الانقسام تتمثل في نشأة القوميات ، وما يمكن أن يتبعها من لغات قومية محلية ، وعوامل التوحيد ، تتمثل في التكتل السياسى والثقافى والدينى ، وغير ذلك مما يدعو للتوحيد اللغوى .

وليس معنى التوحيد اللغوى في البلاد العربية ، أن تسيطر العربية القديمة ، بالشكل الذى عرفناها عليه في الأدب العربى القديم ، فتصبح لغة الجماعة العربية الموحدة . بل إن الذى نتوقع حدوثه ، أن تؤثر اللهجات المحلية في كل موطن عربى على لغة الادب فيه . ثم يحدث بعد ذلك أن تشيع هذه الآداب المحلية ، بما فيها من خصائص ، اكتسبتها من اللهجات العامية التى تعيش معها ، في كل من الأوطان العربية . وعندما تشيع هذه الآداب هذا الشيوع تبرز جميعا ، وتكون الخصائص المحلية في كل من هذه الآداب ، صفة من صفات العربية الحديثة ، التى نصبح ، حينئذ لغة مشتركة ، بين كل شعوب العالم العربى . وسيكون لاتساع نطاق التعليم في هذه البلاد ، أثره في التقريب من العاميات ولغة الادب .

وقد يحدث أن تتغلب إحدى اللهجات المحلية ، على جانب من جوانب اللغة المشتركة الحديثة بينما تتغلب لهجة أخرى على جانب آخر . فمن الممكن مثلا ، أن تكون المفردات الخاصة بالسينما والصحافة مصرية ، والخاصة بالسياسة وأساليب

الحكم سورية ، وخاصة بالمطعم وآداب السلوك لبنانية وهكذا . ولا تزال
نشهد مثل ما أقوله لك في الإنجليزية . فللفردات والعبارات المتعلقة بالسلوك العام ،
والمطعم ، والسياسية فرنسية الأصل ، والدالة على العلم من طب وهندسة وفلسفة ،
لاتينية الأصل ، والدالة على الحرب ألمانية . أما الألفاظ المأخوذة عن اللغة السكسونية
القديمة ، فستعمل للأمور المستهجنة .

ومما تقدم لك ، ترى أن العوامل التاريخية ، التي تؤثر على حياة اللغة ليست
مجرد مرور الزمن ؛ بل هي في الواقع أحداث إنسانية متشابكة ومعقدة .

وبمقدار ما تقضي هذه العوامل إلى اتصال الجماعات اللغوية المختلفة ، يكون
أثرها كمعامل للتوحيد اللغوي . وبمقدار ما تكون هذه العوامل ، من ناحية أخرى ،
عوائق للاتصال العاطفي والروحي والمادى بين الجماعات ، يكون أثرها ، في تشجيع
الانقسام اللغوي .



ولست الظروف الجغرافية والأحداث التاريخية وحدها ، هي ما يؤثر في توحيد
اللغات أو انقسامها . بل هناك إلى جانب هذه الأحداث ، ظروف اجتماعية أخرى .
ومن ذلك ما ذكره بعض اللغويين ، من تأثير الزواج المختلط في هذا الصدد .
ولقد قالوا ، إنه عندما يتكلم الزوجان لغة واحدة ، مع اختلاف لهجة كل منهما
عن لهجة الآخر ، فإن التطور اللغوي في هذه الحالة يكون - في حدود الأسرة طبعاً -
أسرع واشمل ، مما لو كانا يتكلمان لهجة واحدة . ولقد استند القائلون بهذا الرأي إلى
إحصاءات تبين الفرق بين التطور اللغوي في بعض القرى ، التي يكثر فيها الزواج
من خارج القرية ، وبينه في القرى الأخرى ، التي يزوج أهلها فيما بينهم . وقد
انتهوا من هذه الإحصاءات ، إلى أن من نتائج الزواج المختلط ، أن تخفئ

الخصوصيات اللغوية المحلية ، في سرعة أكثر من اختفائها في حالات الزواج غير المختلط . وتكون نتيجة تضاؤل الخصوصيات المحلية ، أن تقرب لغة الأسرة من اللغة المشتركة .

وقد قال بهذا الرأي الأستاذان A. L. Terracher^(١) وميليه Meillet . وأيدها في ذلك ، العالم النفساني الهولندي جنكن Ginneken . وقد قال هذا الأخير « إن خير وسيلة لشيوع اللغة الفصحى ، هو الزواج المختلط . فعندما يتكلم الزوجان اللغة القومية بلهجتين مختلفتين ، فإنهما يستعملان اللغة الفصيحة (أى اللغة المشتركة) التي تعتبر حدا وسطا بين لهجتهما . وتكون النتيجة أن يرث الأطفال عن أبويهم اللغة الفصيحة ، بدلا من أى من اللهجتين) .

وقد لاحظ جنكن ذلك في حالات كثيرة ، بين من يتكلمون اللغة الهولندية . ولاحظ بالأخص ، أن كلا من الأبوين يحرص على تعليم الأبناء اللغة الفصيحة ، وأنه يجنبهم الحديث بلهجته الخاصة . وأظنك تدرك السر في ذلك . فكثيرا ما يعيب الشخص على سواه ممن يتكلم غير لهجته ، طريقة حديثه وتراكيب جملة . وهكذا يتجنب الأب أن ينطق أمام الأم — أو أمام الأطفال — بما تعتبره الأم عيبا لغويا ، كما تتجنب هي بدورها ، الحديث بلهجتها الخاصة ، التي هي في محل النقد من الأب .

وهكذا لا نستغرب ما يرويه جنكن ، من شعور أحد الأبوين بالحرج عندما ينطق الطفل بعبارة أو لفظة ، بطريقة تشبه الطريقة التي ينطق بها هو .

(١) أنظر له : Les aires morphologique .

وأنظر له أيضا : Etude de Geographie linguistique . Paris 1914 .

(٢) أنظر مقالا له في : Bulletin de la Société de Lingu. XIX P28 ff .

ولقد كان جنكن في تعليقه على كتاب تراشر عظيم السخرية بهؤلاء اللغويين ، الذين ملأوا صحائف وصحائف ، في عرضهم لمشكلة التوحيد اللغوى ، دون أن يدخلوا في حسابهم تأثير الزواج المختلط على هذا الأمر .

ولسنا نرى الأمر على هذا القدر من الأهمية . وذلك لأن الزواج المختلط في رأينا ليس العامل الحقيقى ، في أحداث التأثير الذى يشير الكاتب إليه . أما العامل الحقيقى ، فأعمق بكثير من مجرد علاقة الزواج بين اثنين تختلف لهجاتها . هذا العامل الحقيقى هو الظروف النفسية والاجتماعية ، التى تربط الجماعة اللغوية بالمحيط الاجتماعى الخارجى . ولو توفر القدر الكافى من هذه العوامل ، فسيحدث أمران ، الزواج المختلط ، والتوحيد اللغوى . وهكذا يتبين لك ، أن الزواج المختلط نتيجة اجتماعية أخرى ، لنفس الظروف التى ينتج عنها التوحيد اللغوى ، وليس سببا لهذا التوحيد .

ولقد لاحظ تراشر نفسه ، فى دراسته لتوزيع اللهجات القديمة ، فى آنجوليم angoulême ، أن حدود هذه اللهجات لم تكن متمشية مع حدود التقسيم السكسى ، ولا مع حدود التقسيم الإدارى ، بمقدار ما كانت تنطبق على حدود الإقطاعيات ، التى كان يملكها الشرفاء فى العصور القديمة . وقد كان الشريف كما تعلم ، يملك الأرض وما عليها من ماشية وناس . كانت الإقطاعية وحدة منعزلة كل الانعزال . ومن مظاهر الانعزال ، أن الشريف لم يكن يسمح بالزواج المختلط ، لأن من نتائجه ، أن يفقد الشريف امتلاك الأطفال ، الذين يولدون من جاريته التى تزوج خارج إقطاعيته . وقد أدى نظام الإقطاع المذكور ، إلى استقلال الإقطاعيات بعضها عن بعض فى إدارتها وحكمها^(١) وشؤونها الاقتصادية ، كما أدى إلى اختلاف لهجاتها عن بقية اللهجات المحيطة بها .

(١) من بين قواعد الحكم فى الإقطاعية . كما ذكرنا منع الزواج المختلط .

كذلك يؤخذ على النظرية التي يقول بها تراشر وجنكن ، أنها تبالغ كثيراً في تأثير لغة الأبوين ، على لغة الطفل . والحق أن تأثير زملاء اللعب ، على لغة الطفل ، أقوى بكثير من تأثير أبويه . وقد رأيت بعض الأطفال المصريين في إنجلترا ، عاجزين ، أو شبه عاجزين ، عن تكلم العربية ، بالرغم من أنها كانت لغة التخاطب في محيط أسرهم . وذلك لأنهم كانوا يختلطون بالأطفال الإنجليز ، في لعبهم ومدرستهم .

ومادام تأثير الأبوين على لغة الطفل تأثيراً ثانوياً ، بالقياس لتأثير زملائهم في اللعب ، فإن مايقول تراشر وجنكن عن أثر الزواج المختلط ، يصبح أمراً غير ذي بال .

* * *

والدين عامل آخر من عوامل التوحيد اللغوى . فإن الأديان تتخذ لها في العادة مراکز يجتمع إليها الحجاج في مواسم معينة ، حيث تقام الصلوات والدعوات بلغة موحدة . ولقد كان موسم الحج في مكة فرصة تجتمع فيها قبائل العرب ، على اختلاف لهجاتهم ، فيقل الفرق فيما بين هذه اللهجات شيئاً فشيئاً . أضف إلى ذلك الكتب والنصوص المقدسة ، التي تلعب دورها في حركة التوحيد اللغوى بين من يقدسونها . ولا أظنك تغفل عن نفوذ العربية في بلاد الشرق الأقصى ، من الباكستان ، إلى أندونيسيا ، إلى بعض أجزاء الصين ، ومدى اتصال هذا النفوذ بعقيدة الإسلام . كذلك لا تزال الكنيسة القبطية في مصر الموطن الوحيد للغة القبطية ، التي انقرضت في المجتمع المصري . وبفضل هذه الكنيسة ، بقي لناراث لغوى هام ، يمكن أن يلقى كثيراً من الضوء على كثير من خصائص العامية المصرية . وكما كانت مكة في الجزيرة كانت دلفى وأولمبيا في اليونان . وقد لعبا في سبيل توحيد اللغة اليونانية نفس الدور الذي لعبته مكة في توحيد العربية .

* * *

وللأدب تأثير كبير في نشأة اللغة المشتركة . ونحب أن نفرق ، قبل أن نتحدث عن هذا التأثير ، عن مانسميه اللغة المشتركة ، وما نسميه اللغة الأدبية ، أو اللغة الفصحى .

اللغة الأدبية ولا شك لغة مشتركة . فالعربية الفصحى هي لغة الثقافة العربية في عموم أقطارها ومواطنها ، فهي تفهم في كل موطن عربي . وجميع أفاضها وتراكيبها مقبولة وغير مستهجنة في كل هذه المواطن .

ولو ضيقنا نطاق نظرنا من العالم العربي كله ، إلى أحد أقطاره ك مصر مثلاً ، فإننا سنجد ولا شك ، اللغة الفصيحة مفهومة ومقبولة من الجميع . ولكننا سنجد إلى جوارها لهجة القاهرة ، وهي بالنسبة إلى بقية اللهجات الإقليمية ، أكثرها تميزاً وقبولاً . ولهجة القاهرة بهذا الاعتبار ، وبالنسبة للهجات الإقليمية في مصر ، تمثل لغة مشتركة . وربما كانت لهجة القاهرة أكثر فهماً وقرباً لدى السواد الأعظم من سكان مصر ، من اللغة الفصيحة ، وما يقال عن لهجة القاهرة في مصر ، يقال عن لهجة بغداد في العراق ، ولهجة بيروت في لبنان وهكذا .

وسيفضل الحال على هذا الوضع في العالم العربي ، حتى يتم التعليم الجمعي ، وتتقارب لهجات العواصم من الفصيحة ، ثم تتوحد معها .

وإلى أن يتم ذلك فسيظل لدينا نوات من اللغة المشتركة ، اللغة الفصحى أو لغة الأدب ، واللغات المشتركة المحلية .^(١)

وعندما نتحدث عن تأثير الأدب في نشأة اللغة المشتركة ، نعني بهذه اللغة

(١) لم يجد المؤلف ضرورة لمثل هذا التفريق بين اللغة المشتركة واللغة الفصحى ، وذلك لأن لغة الحديث ولغة الأدب لا تختلفان اختلافاً جوهرياً في معظم اللغات الأوروبية كما هو واقع بين العربية الفصحى ولهجات العواصم .

الفصحى . والأدب العربي ولا شك صاحب الفضل الأول ، في توحيد اللغة الفصحى في جزيرة العرب ، قبل الإسلام . وليس من اليسير ، أن نحدد التاريخ الذي بدأت فيه حركة التوحيد للغة الجزيرة . وذلك لأن الأدب العربي الجاهلي لم يسجل كله ، بل سجل منه ما بقى على السنة الرواة فحسب : ولهذا لا نستطيع أن نبين في تفصيل ، كيف لعب الأدب دوره في توحيد اللغة .

أما في حالة اللغات الأدبية في أوروبا ، فيكاد الموقف يكون أكثر يسراً . فإنه من الممكن أن نحدد تاريخ نشأة أدب هذه اللغات . ولقد نسب إلى Dante دانتي الفضل في نشأة اللغة الأدبية الإيطالية ، وإلى تشوسر Chaucer الفضل في نشأة الإنجليزية الأدبية ، وإلى لوثر Luther الفضل في نشأة الألمانية الأدبية .

وكل من هؤلاء ، ولا شك يمكن أن يعتبر المؤسس الأول ، للأدب الذي حمل رايته . ولكن من المبالغة أن ننسب إليهم ، الفضل في خلق اللغة الأدبية ذاتها . وذلك لأن اللغة لا يمكن أن تكون من نتاج فرد من الأفراد . ولم يزد أى من هؤلاء الكتاب ، على أن يستعمل اللغة المحلية ، التي نضجت في العصر الذي عاش فيه ، وسيلة للتعبير عن أفكاره ومشاعره . أما الذي نضج باللغة إلى هذا المستوى ، فموامل أخرى تتصل بما ذكرنا ، وما نذكر وما سندكر ، في هذا الفصل .

ونحن نرى اليوم أديباً مصرياً يعيش بيننا — هو الأستاذ محمود تيمور — يستعمل لغة القاهرة في قصصه الكثيرة ، ولو فرض ، وقال قائل بعد أجيال من عصرنا هذا ، أن تيموراً قد خلق لغة القاهرة الأدبية — لو حدث أن وصلت لغة القاهرة إلى هذا المستوى — فإن ذلك ولا شك سيكون من المغالاة المتطرفة .

واقدم كان سجل الآداب في العصور الغابرة ، ذواكر الحفاظ والرواة . ولا أظنك تجهل دور الرواية في تاريخ الأدب العربي . وليس الأدب العربي بدعا في ذلك ، بل أن ما يرويه لنا بعض الكتاب عن الآداب البدائية ، ليكاد يكون

أعادة لقصة الأدب العربي وحفاظه . وإن في استطاعة أى فرد من السكان الأصليين لمنطقة كوينزلاند Queensland بأستراليا ، أن يقضى ليالى خمساً كملات ، يسرد عليك فيها ما يحفظ من أناشيد وأغنيات . وربما عجبت حين تعلم ، أنه لا يعرف معنى لكثير منها . ويرى لنا فون دن شتاين Von den Stein أن القبائل البرازيلية ، تحفظ أغاني القبائل المجاورة لها ، دون أن تعرف لهذه الأغاني معنى . كما أن الأجيال المتعاقبة من السكان الأصليين في أمريكا الجنوبية ، تتناقل فيما بينها الأناشيد الدينية ، دون أن يعرفوا لها أى معنى أيضاً .

* * *

والغناء نوع من الإنتاج الأدبي ، وله أثره في نشأة اللغة المشتركة . ومنذ فجر التاريخ ، شهدت الإنسانية المغنيين المتجولين ، ينزلون بذوى الجاه والندى في مختلف أجزاء الوطن الواحد . وكان من نتيجة ذلك ، أن راعوا في صياغة أغانيهم ، أن تكون مفهومة لدى الجميع ، على اختلاف لهجاتهم . ولهذا استبعدوا منها الألفاظ والتعبيرات ، التي تخص لهجة دون لهجة ، واحتفظوا بالقدر المشترك بين اللهجات كلها . وبذلك ساعدوا على توحيد اللغة في أوطانهم . ولقد يكون من العسير على المؤلف ، أن يتخلص من كل مائة ضة عليه لهجته الخاصة . ولذلك فإنه قد يحدث أن يستعمل بعض هؤلاء المغنيين المتجولين ، لفظة أو عبارة تختص بها اللهجة التي يتكلم في الأصل بها .

وعندئذ ، يساعد استعمالها في أغنياته ، في مختلف أنحاء البلاد ، على شيوع هذه اللفظة أو العبارة . وبهذه الوسيلة ، تصبح من اللغة المشتركة ، التي تزداد ثروتها اللفظية والتركيبة ، بما يرد إليها من مختلف اللهجات المتصلة بها .

لقد كان المغنون والقصاصون سبباً في نشأة اللغة الأدبية في إيرلندا ، في القرون الوسطى . كذلك سادت مثل هذه الحال في إنجلترا ، فكان الشعراء والقصاصون يجوبون أنحاء البلاد ، مستعملين ، في أغانيهم وقصصهم ، لغة عامة ، كانت تسمى

باللغة الكسونية الغربية . وفي بلاد الأغرريق ، سادت هذه الظاهرة كذلك في مصر القديم ، وفي عهد المستعمرات بالذات ، هذا العهد الذي نشأ فيه جميع أنواع الأدب الإغريقي ، فما عدا الدراما . وقد لعب الشعراء والقصاصون ، الدور الرئيسي في ربط لهجات المستعمرات المختلفة برباط لغوي واحد ، تمثل في لغة الشعر والأدب ، هذه اللغة التي كانت تختلف عن أي من لهجات المستعمرات الخاصة ، بالرغم من شبهها شبا كثيرا أو قليلا ، بلهجة مستعمرة أو أخرى . والحقيقة أن كل فرع من فروع الأدب الإغريقي القديم ، قد انطبع بطابع الإقليم الذي نشأ فيه . وعندما تجمعت هذه الفروع المختلفة ، لتكون أدبا موحدا ، بدت لغة هذا الأدب ، تحمل في مختلف نواحيها ، آثار اللهجات التي نشأت فيها هذه الفروع . وقد تم توحيد هذه الفروع في أدب واحد في أواخر القرن السادس قبل الميلاد ، بعد أن دونت الآثار الأدبية المختلفة ، وتداولها القارئون في مختلف مواطنهم . ولقد تميزت اللغة الاغريقية ، بما تميز به الفن الإغريقي ، فلم تكن مجرد تمثيل للحقائق الواقعية ، بل لقد لعبت الصناعة والابتكار فيها دورا خطيرا . ولعل سبب ذلك ، أن هذه اللغة ، كانت لغة الأمراء والقصور حيث ينزع الفن دائما إلى الصناعة والمغالة. (١)

والمسرح دوره الخطير في نشأة اللغة المشتركة . وذلك لأن النظارة الوافدين إلى المسارح ، خليط يتكلم عددا من اللهجات . ولهذا يضطر الممثل أن يتخلص من خواص اللغات المختلفة في حديثه ، وأن تكون لفته أمرا وسطا مفهوما .

(١) من أمثال ذلك الأدب العربي الذي كان أدبا طبيعياً لا زخرفة فيه وعندما استعملت العربية في بلاط الخلفاء في العصر العباسي ، بدت في الأدب العربي نزعة المغالة وتزيين العبارات .

من الجميع . ولقد مضى الوقت الذى كان الممثل فيه فى محل الازدراء من ذوى المكانة أو ممن يتظاهرون بأنهم من ذوى المكانة ، وأصبح الممثل اليوم يحتل مركزاً اجتماعياً ممتازاً . وقد ساعدت هذه الحقيقة كثيراً على تأثير المسرح فى نشأة اللغة المشتركة . وذلك لأن الممثل ، بماله من مكانة اجتماعية عالية ، يعتبر مثلاً يحتذى ، فى عباراته ، وألفاظه وطريقة إلقاء حديثه .

ولقد لعب المسرح ، ولا يزال يلعب ، دوراً عظيماً الخطر فى المحافظة على اللغة الإنجليزية المشتركة . وذلك لأن هذه اللغة واسعة الانتشار ، تتخذ مواطن تباعد بينها المحيطات الواسعة . فهى توجد فى أمريكا ، وفى جنوب أفريقيا ، ووسطها ، وفى الشرق الأقصى باستراليا ونيوزيلاندا ، وفى أوروبا فى الجزر البريطانية . ولا شك أن تباعد ما بين هذه الأقطار مشجع على اختلاف لهجات هذه اللغة . ونشاط المسرح لتوحيد هذه اللهجات فى لغة عامة ، يبدو بصفة خاصة ، فى الفرق التمثيلية المتجولة . فهناك الفرق الإنجليزية ، والأمريكية ، والاسترالية ، التى تجوب فى مواسم معينة ، كلا من هذه المواطن اللغوية المتفرقة ، فتقرب بذلك من الاختلاف بين لهجات هذه اللغة .

وفى العصر الحديث دخلت السينما إلى الميدان ، فجعلت اتصال الممثلين بالجمهور اتصالاً دائماً لا ينقطع . وهكذا يمكن أن نقول فى غير تردد بالتأثير العظيم ، الذى يلعبه الممثل ، فى توطيد أركان اللغة المشتركة ، سواء كان ذلك على خشبة المسرح ، أو على شاشة السينما .

* * *

وللظروف والعوامل السياسية دخلها الكبير فى التأثير على اللغة المشتركة .
وقد ذكرنا لك من قبل ، كيف أن العوامل السياسية ، قوت أولاً من عضد

اللهجات العربية ، ثم لعبت دوراً عكسياً بعد حين (١) .

والعوامل السياسية كما نرى من المثال المذكور ، سرعة التغير والتقلب والتعقيد . ولذلك فإن آثارها اللغوية لا تسير على نمط واحد في جميع الأحوال . وبالرغم من وحدة سويسرا السياسية ، لم تتوحد لغاتها المختلفة في لغة عامة . كذلك الحال في السودان ، حيث يوجد عدد عديد من اللغات المختلفة ، بل وفي مصر نفسها فهناك إلى جانب العربية لغة واحدة سيوة ؛ ولغة المهندندوه والبشارين ، على ساحل البحر الأحمر . وفي كل هذه الأمثلة نرى الوحدة السياسية كاملة ومؤكدة . وأهمية الظروف السياسية تنحصر في أنها تجعل من اليسير أو من العسير ، الاتصال بين أفراد الوطن الواحد . والاتصال ، كما رأيت في كل ما ذكرت لك ، يخضع لعوامل أخرى كالدين وسهولة المواصلات إلى غير ذلك . ولقد مريبك أن الوحدة اللغوية في البلاد العربية ، كانت من نتائج ظروف أن صح كونها دينية ، فقد كانت إلى جانب ذلك ظروفاً سياسية . وكذلك مريبك ، أن العلاقة السياسية بين المستعمرات الإغريقية مكنت من اتصال هذه المستعمرات ، اتصالاً أدبياً ، ووجد لهجاتها المختلفة في لغة مشتركة . أما في الهند فبالرغم من الاتصال السياسي ونشأة لغة مشتركة أدبية ، فإن هذه اللغة ، على عكس الإغريقية الأدبية ، كانت شديدة البعد عن الحياة العامة . وهكذا كانت السنسكريتية ، لغة الهنود الأدبية ، لغة العلم والأدب ، لا لغة الواقع والحياة . ولذا فلو صح اعتبار هذه اللغة لغة مشتركة ، فليس ذلك إلا بالنسبة لطائفة العلماء والمثقفين . ويمكن أن يقارن الهندي المثقف ، بسنغالي مثقف ؛ فقراءته الأدبية والعلمية بالإنجليزية أو الفرنسية ، ولكن حديثه لأمه وأبيه وزملائه ، بلغة بعيدة عن اللغة التي يقرأ ويكتب بها . ولا شك في أن السنسكريتية ترتبط ببقية اللهجات

الهندية ، بروابط تاريخية . ولكن الفرق بينها وبين هذه اللهجات قد اتسع ، حتى أصبحت بالنسبة لهذه اللهجات ، كاللغة العبرية بالنسبة للهجات العربية المعاصرة . وفي ألمانيا ساعدت العوامل السياسية ، على توحيد اللغة الألمانية^(١) . ولكن هذه الوحدة بدت أكثر ما بدت في لغة الأدب والعلم . أما لغة الحديث ، فإنها تنقسم بالطابع المحلي في كل موطن من مواطن الألمانية . ولقد بلغ الأمر إلى أنه من العسير أن يتفاهم سويسري يتكلم الألمانية وألماني من برلين في سهولة ويسر .

(١) نعتى بهذه العوامل السياسية حركة بسمارك ، التي وحدت مختلف الإمارات الألمانية في دولة واحدة ، هذه الحركة التي حاول هتلر ، بضم النمسا والمناطق الألمانية في تشيكوسلوفاكيا ، مواصلةا .

الفصل الرابع

اللغة واللهجة

(تنمة)

تحدثنا إليك فى الفصل السابق ، عن التوزيع الجغرافى للهجات ، وعن العوامل الموحدة ، التى تنتهى باللهجات المختلفة ، إلى لغة مشتركة . وتحدثنا كذلك عن علاقة الأحداث التاريخية ، بتوحد اللغات أو انقسامها . وقد قلنا فى صدد هذه الأحداث ، إن أهميتها تزيد ، أو تنقص ، بمقدار ما تمسكن ، أو تعوق ، اتصال الجماعات الإنسانية المختلفة . ومن أهم الأحداث التاريخية التى مرت بالإنسان ، التطور الخطير فى وسائل الإنتاج ، الذى يعبر عنه بالثورة الصناعية . وتتمحصر أهمية الثورة الصناعية من وجهة نظرنا فى أنها قد غيرت شكل الجماعة الإنسانية ، وجعلتها تنقسم إلى وحدات اجتماعية ، تختلف عن الواحدات التى كانت توجد قبلها .

لقد كان الإقطاع أساس الجماعة فيما قبل الثورة الصناعية . ولم تكن الإقطاعية سوى وحدة كاملة الاستقلال عن سواها من الإقطاعيات . ومن الجهة اللغوية ، كانت الإقطاعية تمثل كذلك جماعة لغوية مستقلة . ومن ثم كان الممكن أن نقول إن سيد الإقطاعية ، ومن يعملون فيها ، كانوا متحدثين اتحادا لغويا .

وعندما بدأت الثورة الصناعية ، دخل الجماعة الإنسانية ، عنصر اجتماعى جديد ، هو طبقة التجار والصناعيين . ويتطور وسائل الإنتاج ، واختراع الآلة زاد ربح هذه الطبقة حتى نافست قوتها الاقتصادية ، قوة حكام الإقطاع . ومن هنا اضطر

الآخرين إلى الاعتراف بنفوذ الأولين الاقتصادي ، وتكونت من الطائفتين طبقة تعرف بالأرستقراطيين ، وقد كان ذلك تحطياً لكيان الإقطاعية الاجتماعية . فسيد الإقطاعية لم يعد أحد أبنائها ، بل صار مالكلها ولا أكثر . وقد نتج عن ذلك تطور آخر في علاقة سيد الإقطاعية ، بمن يسكنون فيها . فبعد أن كانت من قبل أشبه بعلاقة الأب بأولاده ، صارت علاقة المستغل بالمستغل . وقد نشأت في ميدان الصناعة طائفة أخرى تشبه طائفة عبيد الأرض ، وأُعني بها طائفة الصناع . وقد قامت العلاقة بين هؤلاء ، وبين صاحب العمل ، على أساس الاستغلال والمنفعة كذلك .

إلى جانب كل ذلك ، ابتكرت وسائل المواصلات الحديثة ، فبطت أجزاء الوطن الواحد . وانحل سلطان ملاك الإقطاعيات السياسي بمقدار ما تركزت سلطة الدولة . وقامت الدساتير تسوى بين الأفراد في الحقوق والواجبات . ونتج عن كل ذلك أمران .

(١) نشأة طائفة أخرى تطلق عليها الطبقة المتوسطة ، وهم موظفو الحكومة والشركات وصغار أصحاب الأعمال .

(٢) اتصال كل من هذه الطوائف الثلاث بعضها ببعض في كافة أنحاء الوطن الواحد .

وقد رأينا كيف أن أصحاب الإقطاعيات قد كونوا مع كبار الصناعيين والتجار طبقة الأرستقراطيين .

كذلك حدث ، عندما استقر نظام الحكم وتقرر مبدأ المساواة والحرية ، أن أمكن لعبيد الأرض في الإقطاعيات ، وعبيد المصنع في المدن ، أن يتجمعوا ويكونوا طبقة أخرى . وكذلك فعل أبناء الطبقة المتوسطة أيضاً .

وهكذا انحلت الوحدات الإقطاعية ، لتفسح الطريق لتكوين وحدات من نوع آخر هي الطبقات الشعبية .

وقد تبع كل ذلك ولاشك تأثير لغوى .

وفي إنجلترا بدأ هذا التقسيم الطبقي في عهد مبكر . وقد أسس أعضاء الطبقة الارستقراطية مدارس خاصة لأبنائهم ، وأندية ومجتمعات يغشونها وخدمهم بعيدين عن عامة الشعب . ولم يكن من يقيم من أبناء هذه الطبقة في الأقاليم ، منقطع الصلة عنها ، فقد كان يفد إلى لندن في موسم خاص من السنة ، ليجتمع بسواه من أبناء الطبقة الراقية . وهناك تدور أحداث الأدب ، والسياسة ، والدين ، والموسيقى ، وما مائل ذلك ، من ترف عقلى يعز على الطبقة السكادحة .

وفي مصر والبلاد العربية ، شهدنا منذ عهد غير بعيد ، كيف كان عمدة القرية ، أبا لفلاحيه . لقد كان منهم ولهم ، في ملبسه وما كلة ولغته . ثم شهدنا كذلك ، كيف شغف سادة القرى بلهو المدينة وبريقها ، فاتصلوا بأسبابها ، وهجر منهم الريف من هجر ، وتحولت علاقتهم بفلاحهم ، إلى علاقة المنتفع بالمستغنى . كل ذلك تلخيص سريع ، لنفس الظروف التى استغرق حدوثها في أوربا قرونا .

* * *

ولقد مكن التميز الاقتصادى والسياسى ، لأبناء الطبقة الراقية ، من أن تكون لغتهم هى اللغة المشتركة . وذلك لأنهم كانوا دائماً في محل التقليد من أبناء الطبقتين الأخيرتين . ولقد سميت اللغة الفصيحة في إنجلترا ، بلغة المدارس الخاصة ، وهى المدارس التى أنشأها الارستقراطيون لأبنائهم . وبدت هذه اللغة فى لهجة مدارس أيتون Eton وهارو Harrow وجامعة اكسفورد Oxford

وهنا نتساءل ، هل تعتبر اللغة المشتركة الحديثة ، فى بلاد العرب . لغة

الطبقة الراقية كذلك ؟ الجواب لا . فالأمر في مصر والبلاد العربية ، يختلف عن الأمر في إنجلترا ، وبقيّة بلاد أوروبا . لقد خرجت البلاد العربية من الحكم التركي ولم تكن العربية في مركز تحسد عليه . فحكم هذه البلاد ، كانوا أتركا غرباء الدم ، أو عربا تمكنت الحياة التركية من نفوسهم تمكنا كبيرا . وهنا في مصر ، كان الحكم أتركا الجنس ، فرنسي اللسان .

ولذلك فإن طبقة الحكم في هذه البلاد ، بعد الحرب العالمية الأولى ، لم تكن عربية اللسان على وجه العموم . أما أصحاب الأعمال ، فقد كانوا طائفة من الأجانب الذين وطدت الحمايات والامتيازات لهم ، فتمكنوا من أن يكونوا في مقدمة الصفوف في ميدان المال والاقتصاد . ومن هؤلاء وأولئك ، تكونت في مصر ، طبقة راقية لم تكن العربية لسانها .

ثم قامت الحركة القومية في مصر وسواها من البلاد العربية ، وكان قوامها الناشئة الجديدة من شباب العرب ، الذي كانت العربية لغة ثقافته . وعندما استقرت الأمور ، تولت هذه الناشئة زمام الحكم ، وبدأت تتلخص من النفوذ التركي ، وتقاوم النفوذ الأوربي . وقد نجحت في ذلك نجاحاً كبيراً ، في الميدان اللغوي على الأقل ، فأصبحت العربية لغة الثقافة والتعليم في مصر ، بعد أن كانت الإنجليزية أو الفرنسية تلعب في مصر هذا الدور ذات يوم . كما حلت العربية محل الفرنسية في سوريا ولبنان ، وكأخت ولا تزال تسكاتها في شمالي أفريقيا .

وهكذا بُعثت العربية من جديد ، لغة مشتركة تربط بين أجزاء الوطن العربي الأكبر . ولم تكن هذه اللغة المشتركة لغة الطبقة الراقية كما هو الحال في كثير من أقطار أوروبا ، بل لغة الطبقة المتوسطة الناشئة .

رأينا الآن نوعاً جديداً من الانقسام اللغوي ، أعنى انقسام اللغة انقساماً طبقياً . ولقد عنيت الدراسات اللغوية الحديثة بدراسة اللهجات الناشئة عن مثل هذا الانقسام ،

ولذلك فإنه يتحتم على دراس اللهجات أن يدخل في حسابيه ، الطبقة الاجتماعية التي ينتمى إليها ملقنه ^(١) ، عندما يدرس لهجته ، إلى جانب المنطقة الجغرافية التي ينتمى إليها .

والظروف الإنسانية التي هيأت لهذا النوع من الانقسام ، حملت في جوانبها بعض العوامل الأخرى ، التي تدفع إلى التوحد اللغوي ، كالجامعات ، ونشأة المدن الكبرى .

أما الجامعات . فهي مؤسسات حديثة النشأة . وقد تغلب عليها عند بدء ظهورها نزعة دينية . وبعد حين صارت بعض الجامعات تكميلاً للمدارس الخاصة التي أنشأها الأغنياء لأبنائهم . وهكذا نشأت كامبردج Cambridge وأكسفورد Oxford . وفي هذا الطور من حياة الجامعات ، سادت الطبقة التي تحدثنا عنها فيما قبل . وفي إنجلترا أصبحت لهجة أكسفورد رمزا لثقافة الطبقة الراقية إلى حين . ولكن تعميم التعليم في أوروبا ، وما اكتسبته الطبقة المتوسطة والعامة من مكانة هامة ، فتح باب الجامعات للجميع . وبهذا أصبحت الجامعات مجالا لاختلاط أبناء الطبقات المختلفة على اختلاف لهجاتهم . وقد نشأ عن ذلك أن تحطمت الفروق اللغوية في داخل الجامعات ونشأت لهجة إنجليزية موحدة .

ولقد اكتسبت اللهجة الجامعية مكانة اجتماعية ، تضاءلت إلى جانبها لهجة الطبقة الراقية ، التي أصبحت إلى حد كبير محلا للسخرية . وإن عبارة Mayfair accent أي لهجة مايفير — ومايفير حي الاستقراطية في لندن — لتقابل بكثير من التعليق الساخر من السواد الأعظم من الإنجليز .

(١) تقوم الدراسة اللغوية التحليلية على دراسة لغة فرد واحد يطلق عليه بالإنجليزية اسم informant أى الملقن . ويقوم الملقن بنطق بعض الجمل والعبارات ، التي يوحى بها إليها الدارس بطريقة غير مباشرة . وتعتبر لغة الملقن إحدى اللغات الفردية ، في جماعة لغوية خاصة وبدراسة لغة عدد من الملقنين ، يمكن أن نستخلص لغة الجماعة اللغوية التي ينتمون إليها .

وللجامعات في ألمانيا أثرها الخطير في هذا الصدد . وذلك لأن من عادة الطلبة الألمان ، ألا يقضوا جميع سنى دراستهم الجامعية في جامعة واحدة ؛ بل إن الواحد منهم ، ليتنقل في جامعات ثلاث أو أربع ، في هذه الفترة من حياته . ولهذا ، فإن فرص اختلاط اللهجات المختلفة كثيرة جدا . وتبعاً لذلك تمكنت الجامعات من أن تلعب دوراً عظيماً في توحيد اللغة المشتركة الألمانية .

وقد سبق أن قلنا لك ، أن اللغة المشتركة المصرية نشأت في الجامعات والمدارس العالية ، التي منها خرجت الحركات الوطنية والثقافية جميعاً .

* * *

ونشأة المدن الكبرى ، من أهم ما يميز العصر الصناعى الحديث . ولقد قفز عدد سكان لندن إلى ما يزيد عن عشرة ملايين ، ونيويورك إلى ثمانية ، وباريس إلى أربعة ، وبرلين إلى أربعة أو خمسة قبل الحرب الأخيرة . كما زاد سكان القاهرة بعد الحرب الأخيرة إلى ما يقرب من مليونين . وهذه الأعداد الضخمة وافدة من مختلف الأقاليم . ولسهولة المواصلات في داخل المدينة ، وارتباط سكانها في العمل والحياة العامة ، فإن فرص الاختلاط عظيمة جدا .

ومن غير المشكوك فيه أن نسبة السكان الأصليين لأى من هذه المدن الكبرى تافهة ، عند ما تقاس إلى نسبة الوفداين إليها . ولهذا فإن اللهجة الأصلية للمدينة ، تتضاءل وتترك مكانها للهجة ناشئة ، تتجمع من مختلف الخواص اللغوية ، التي حملها معهم الوفدون إلى المدينة .

لقد قال وايلد^(١) : إنه من الواضح إنه معمرت باللهجة من ظروف مختلفة ،

(١) في كتابه تاريخ اللهجة العامية الحديثة في إنجلترا .

History of modern Colloquial of English. p. 4 f.

فإنها تنسم أولا وأخيرا بطابعها الإقليمي . ولذلك فإن الإنجليزية المشتركة التي هي الآن لهجة طبقية ، لا بد أنها كانت في الأصل لهجة إقليمية .

وقد تبين لك مما عرضت عليك ، أن الأمر على خلاف ذلك . فعندما اختلطت جموع الوافدين إلى العاصمة ، نشأت لهجة جديدة . اكتسبت ، خواصها من اللهجة المحلية الأصلية ، ومن اللهجات التي يتكلمها الوافدون سواء بسواء .

ولقد أثبتت الوثائق التي دسها مورسباخ Morsbach سنة ١٨٨٨ ، ودول Dölle سنة ١٩١٣ وهاوسر Hauser سنة ١٩١٤ ، أن اللهجة الأصلية للنسدين قد أخذت في الزوال بالتدريج ، وأن كل ما بقى من هذه اللهجة ، هو بعض أسماء الأعلام ، التي تطلق على بعض الأحياء والشوارع ، والتي لا يفهم معناها الأصلي سكان العاصمة البريطانية اليوم .

وكانت النتيجة ، أن نشأت لهجة حديثة أصبحت فيما بعد اللغة المشتركة ، تختلف عن أى من اللهجات الأخرى ، وإن كانت قد اكتسبت كثيرا من خواص هذه اللهجات . ولهذا السبب حق لهنرى سويت Henery Sweet أن يقول : إن اللغة الفصحى ، هي اللغة التي لا يستطيع السامع أن يحكم على المنطقة التي ينتمى إليها متكلمها ^(١) .

وما يقال عن لندن ، يمكن أن يقال عن القاهرة وجميع العواصم المختلفة . ولكننا هنا في مصر لا نزال ننتظر الزمن ، الذي تزدهر فيه الدراسات اللغوية التاريخية ، لنتمكن من الحكم الصحيح ، على العناصر التي تكونت منها المصرية الحديثة .

* * *

(١) أنظر في كتابه 1908 Sounds of English

وبعد فقد رأينا في هذا الفصل والفصل السابق عليه ، أن اللغة لا تخضع في توحدها ، أو انقسامها ، لعامل أو لعوامل محددة ، يمكن أن تحصر وتدرس آثار كل منها على حدة . إن اللغة في الواقع ، تخضع لمجموعة من العوامل التي تشترك ظواهرها وتتأبجها . وليس ذلك بعيد ، فإن اللغة هي المظهر الخارجى للحياة العقلية لشعب من الشعوب . والحياة العقلية معقدة في تطورها ، وفي انفعالها بمختلف العوامل والظروف التي تحيط بها . ومن ثم كانت دراسة الحياة العقلية ، تستلزم حشداً حشيداً من الدراسات النفسية والاجتماعية والتاريخية . ولهذا الاعتبار نجد أنه من الخطأ ، أن نقول بانقسام اللغات وتحللها ، كما قال البعض ، أو أن نقول بتجمعها وتوحيدها ، كما قال آخرون . إن الأمر كما مر بك متشابك ، فهناك ما يهيء للانقسام ، كما أن هناك ما يهيء للتوحيد .

ومنذ نهاية القرن التاسع عشر حتى اليوم ؛ بلغت سيطرة الإنسان على الطبيعة حداً كبيراً . فتمكن من الاتصال - المادى والذهنى - بأخيه الإنسان . واجتمع لديه إلى جانب القطار والسيارة ، الكتاب والمذياع والصحافة . ولا يبدو أن هذا المد يوحى بجزر .

ولذلك فإننا نرى أن عوامل التوحيد اللغوى ستستمر في نشاطها . إلا أن يحدث في حياة الإنسان حدث يرجع به إلى بدائيته المنعزلة .

ولا يعنى ما أقول ، أن المجتمع الإنسانى المقبل سيكون عدداً من الصور المتكررة لفرد واحد . فذلك ضرب من المستحيل . ومهما تمكن الإنسان من اللغة المشتركة ، فإنه سيظل يحتفظ دائماً ببعض الخصائص الفردية اللغوية التي تميزه عن سواء ممن يتكلمون هذه اللغة .

وإذا صح كل هذا ، فإنه من الممكن أن تمثل اللغة المشتركة بالصورة الفوتوغرافية المركبة ، التي كان جالتون Galton أول من ابتكرها . ولقد وصل إلى

ذلك ، بأن صور عدداً من الأفراد المتحدّين في الجنس ، في صورة واحدة ، بعضهم فوق بعض . وكانت النتيجة النهائية صورة لا تظهر فيها مميزات أى فرد من الأفراد ، بل الصفات العامة للجنس الذى ينتمون إليه :

وهكذا تكون اللغة المشتركة ، تلخيصاً للصفات اللغوية العامة ، لدى مختلف الأفراد الذين يتكلمونها ، دون أن تكون تفصيلاً للصفات اللغوية ، لأى منهم .

* * *

ولكن ما هى القيمة العملية لنزعة التوحيد هذه ؟!! ولأى سبب يترك الفرد لهجته الخاصة التى نشأ عليها ليتكلم لهجة أخرى ، ولو كانت هذه اللهجة لغة مشتركة ، طالما أن لهجته هو بالذات صالحة للتفاهم ؟!!

والجواب أن اللغة المشتركة نتيجة اتساع الأفق الاجتماعى للفرد . أن النشاط اللغوى ليس لمجرد التفاهم ، بل هو كذلك تحقيق للانسجام بين الفرد وجماعته . وهذا الانسجام لا يكمل إلا مع توحيد اللغة بين الأفراد وجماعتهم . وتتضح القيمة الحقيقية للغة المشتركة لدى الكتّاب بصفة خاصة . وذلك لأن القارئ ليس موجوداً أمام الكاتب ، وجود السامع أمام المتكلم . ولهذا ، فلو استطاع المتكلم أن يعدل من لهجته وأسلوبه بما يلائم سامعه ، فإنه ليس من اليسير على الكاتب أن يفعل مثل ذلك .

ولقد جابهت هذه الصعوبة الكتّاب الفرنسيين والانجليز في أوائل القرن السادس عشر ، أى قبل نضوج اللغة المشتركة . ولقد نقل فوسلر Vossler^(١) شكوى برونوت Brunot ، فى أوائل العصر المتوسط لتاريخ اللغة الفرنسية ، من عدم التوحد اللغوى بين سكان فرنسا ، مما نتج عنه وجود صعوبات حمة ، كانت تواجه

(١) راجع كتابه « الثقافة الفرنسية فى ضوء التطور اللغوى للفرنسية » .

Frankreichs Kultur im Spiegel Seiner Sprachentwicklung . Heidelberg 1921.

الكتاب والمؤلفين . وكذلك كان يشكو كاستون Caxton ، رب فن الطباعة في إنجلترا من مثل هذا الأمر .

لقد سبق أن عرفنا^(١) اللغة المشتركة ، بأنها اللغة التي لا يعرف سامعها المنطقة الأصلية التي ينتمى إليها المتكلم بها . وهذا في الواقع ليس تعريفاً لها ، بل هو توضيح للطريقة التي تعرف بها عليها . ولكن يمكن أن نستخلص منه تعريفاً للغة المشتركة تلخصه العبارة الآتية :

« اللغة المشتركة ، هي اللغة التي تخلصت من كل الخصائص اللغوية ، التي تنسب إلى منطقة خاصة ، هذه الخصائص التي تعوق التفاهم بين الفرد وسواه ، ممن لا ينتمون إلى نفس المنطقة اللغوية التي ينتمى هو إليها . »

وعلى هذا فإن اللغة المشتركة ، لا تبدو غريبة لأي فرد من أفراد الجماعة اللغوية ، مهما اختلفت المنطقة اللغوية التي ينتمى إليها . ولا شك أن أفضل طريقة للتفاهم مع شخص ما ، أن تتحدث إليه بلهجته المحلية . ولكن عندما لا يمكن أن تتكلم بهذه اللهجة ، فإن أفضل طريقة للتفاهم معه ، هي أن نستعمل اللغة المشتركة . وفي هذا الموضوع تحتل اللغة المشتركة المرتبة الثانية . أما لو فرض أني أكتب كتاباً ، أو ألقى محاضرة أمام جمع من السامعين تختلف مناطقهم اللغوية ، فإن اللغة المشتركة في مثل هذه الحال تكون في المكان الأول . وفي المثال الأخير إشارة إلى أن نشأة اللغة المشتركة نتيجة تابعة لنشأة أدب قومي^(٢) . ولقد صارت اللغة المكتوبة اليوم

(١) هذا هو تعريف هنري سويت السابق ص ٩١

(٢) بهذا الاعتبار لا تختلف اللغة المشتركة عن اللغة الفصحى . وقد سبق أن فرقنا بينهما مراعين في ذلك الوضع الخاص لهجات العربية المحلية وسيادة لهجات العواصم وشيوعها في جميع أقاليم البلاد العربي الواحد .

من لوازم عصرنا هذا ، وأصبح جميع أفراد الشعب من القارئين .
ولقد يقول قائل : « ولكن سيادة اللغة المشتركة محو اللهجات المحلية . ولهذا
الأخيرة ولا شك جمالها وروعها » . ونحن بدورنا نجيب بأنه مهما وصلت درجة
التوحيد اللغوى ، فإنه من غير الممكن أن تصل إلى محو كل الفروق بين المتكلمين .
ولذلك فسيظل هناك فرق بين كاتب وكاتب . ومحدث ومحدث . بل إن الذى يحدث
بالفعل أن تأخذ اللغة المشتركة . من كل لهجة ما فيها من ميزات وجمال .

ولو صح أن فى اللهجات المحلية شيئاً من الجمال ، فإن فيها كذلك كثيراً
من القبح . ومن الذى يقول بالجمال المطلق فى لغة أهل البادية ، أو جهلة الفلاحين ؟
ولاشك أن من مميزات التوحيد اللغوى ، أن يتخلص أبناء الطبقات الدنيا ، من نظرات
الاستمزاز التى يواجهونها ، عند ما يتكلمون . ولا شك أن من ميزات أيضاً ،
أن يسهل على مثل هؤلاء ، الاستفادة من التراث العقى ، الذى هو فى العادة من
نتاج من يتكلم ويكتب باللغة المشتركة .

ولو فرض أن أمكننا الاحتفاظ باللهجات المحلية ، إلى جانب اللغة المشتركة
فسيكون من نتائج ذلك ، أن يتعلم الفرد إلى جانب لهجته الخاصة ، هذه اللغة العامة
التي هى لغة الثقافة والحياة الراقية .

ويجب أن نتذكر بجانب ذلك أن اللهجات المحلية ، أعجز من أن تعالج أمور
الثقافة العالية . ولو استمر تيار التعليم ، وزاد مستواه ، فستجد اللهجات ولا شك
نفسها عاجزة عن الحياة فى مثل هذا الجو ، الذى يعلو على مستواها التعبيرى .

وهكذا نجد أنفسنا مدفوعين للاعتراف بأنه من الأمور الواجبة أن نسير مع
الزمن ، فنعمل على التوحيد اللغوى ، ولو كان فى ذلك قضاء اللهجات المحلية ،
التي يحس بعضها نحوها ببعض الحنين .

وليس معنى هذا أن نهمل دراسة اللهجات ، إذ الواقع أن هذه الدراسة ، تمثل مركز الزاوية في دراسة تاريخ اللغة الأدبية وتطورها . بل أننا نسعى علماء اللغة دائماً ، يلحون على أن دراسة اللهجات أكثر قيمة من دراسة اللغة الفصيحة . بل لقد بلغ الأمر ببعض الكتاب ، مثل ستلا^(١) ، إلى أن يصر على العناية باللهجات ولو على حساب اللغة الفصيحة . وذلك لأنه ليس من اليسير استخلاص القوانين اللغوية العامة من اللهجات ، وسبب ذلك لديه أن الظواهر اللغوية فيها . أقل تعقداً منها في الفصيحة . وفي رأينا أنه لو وجب علينا أن نعى بدراسة اللهجات فليس معنى ذلك أن نهمل اللغة الفصحى ، إذ الواجب ألا نهمل أية زاوية من زوايا البحث مهما بدت صغيرة . وفي اللغة الفصحى ، مجال واسع للدراسة النظامية^(٢) والتطويرية وخاصة في ميدان القواعد النحوية ، والأسلوب ، والمعاني . ومن هذه النواحي كلها نستطيع أن نمد دراسة « علم النفس اللغوى » بطوفان من المعلومات التي قد تكشف عن كثير من أسرار النشاط اللغوى الإنسانى .

أما بعد . فقد لاحظت فيما قبل الفرق الضخم بين الجماعة اللغوية بين البدائيين ، التي قد لا تتجاوز مئات معدودة من الأفراد ، وبين الجماعة اللغوية في العصر الحديث ، التي قد تبلغ ، كما هو الحال بالنسبة للإنجليزية ، مائة وخمسين مليوناً من المتكلمين . ولو لاحظت ذلك ، إلى جانب ما ذكره فوليه Fouillée وجنكن geneken^(٣) من أن الجماعة البدائية — في لغتها كما هي في كل أمورها — تختلف اختلافاً واضحاً عن سواها من الجماعات ، بمقدار ما يقل الفرق بين أفرادها ، بعضهم وبعض ،

(١) في كتابه Sprachricht

(٢) الدراسة النظامية كدراسة القواعد في عصر خاس والتطويرية دراسة تاريخية لمصور لغوية مختلفة .

(٣) أنظر Anthropol II p. 704

وعلى العكس من ذلك تكون الجماعة المتحضرة . وفيها يتسع الفرق بين أفرادها بعضهم وبعض ؛ بمقدار ما تكون الجماعة كلها مماثلة لسواها من الجماعات المتمدنة . والحق الواضح أن المدنية الحديثة ، تؤكد للفرد ذاتية ، وتختلف به عن سواه من الأفراد ، ثم هي من بعد ذلك تسير في نفس الطريق الذي يسلكه سواها من جماعات المتمدنين . ويمكن لنا أن نقول أن الإنسان البدائي ، يعتمد في حياته على الوسط الجماعي الذي يعيش فيه بأن يتحكم فيه أو يخضع له ، وأن الإنسان الحديث يستقل بذاته عن وسطه الاجتماعي ، فهو يعيش لنفسه وبنفسه ، وأن كان مع كل ذلك يتعاون مع سواه .

الفصل الخامس

مقاييس الصواب اللغوي

يشبه موقف المتكلم أو الكاتب بلغة من اللغات ، موقف لاعب الشطرنج ، فكل ظرف من ظروف اللعب يواجه اللاعب ، يتطلب تصرفاً خاصاً . فوضع القطع وعددها وموقف اللاعب الآخر ، والخطوة التي رسمها ، كل ذلك يجعل الطرف المواجهة للاعب مختلفاً عن سواء من الظروف السابقة ، وإن كان ثمة شبه بينهما . والتعبير اللغوي كذلك ، مواجهة لظروف اجتماعية ، يختلف كل منها عما سبقه . وإذا صح أن نقول عن لاعب الشطرنج إنه مبتكر ، بالرغم من وجود قواعد عامة تسيّر عليها لعبة الشطرنج ، فإننا كذلك نستطيع أن نقول عن المتكلم أو الكاتب ، إنه مبتكر على رغم القواعد اللغوية المتعارفة . ولا شك أن لكل من هذين ، كثيراً من الحرية في الطرق التي يتصرف بها للقيام بحركة من حركات الشطرنج ، أو للنطق بعبارة من عبارات الحديث . ولكن هذه الحرية ولا شك ، ليست من الانطلاق بحيث تخرج عن القواعد العامة المألوفة في الشطرنج وفي اللغة . ولو خرج أحدهما عن هذه القواعد العامة المألوفة لما كان لعبه أو كلامه داخلاً في حدود «الصواب» . وزيد هنا أن نعرف ماهي المقاييس التي يمكن على أساس منها نستطيع أن نطلق على نشاط لغوي ما كلمة «الصواب» أو كلمة «الخطأ» . لقد جاهدنا هاتان الكلمتان منذ أيام الطفولة الأولى ، فهناك صواب وخطأ ، في الإملاء ، وفي الإنشاء ، وفي التعبير الشفوي ، بل وفي كل فرع من فروع النشاط اللغوي .

لقد عالج العالم اللغوي أدولف نورين Odolf Noreen هذا الموضوع في استفاضة

كبيرة . ولقد علق على آرائه بعض الناقدين من أمثال فلود ستروم Flodström (١) وجوهانس (في ذيل ترجمته لرسالة نورين) وستالا (٢) . ولكن هؤلاء الثلاثة جميعاً يتفقون على الأفكار الأساسية التي قال بها نورين .

ويقول نورين بوجود مذاهب ثلاثة حول موضوع الصواب والخطأ اللغوي . ومن بين هذه المذاهب مذهبان كان لهما أكبر الأثر في الدراسات اللغوية ، ولكنه يرفضها برغم ذلك . ويسمى نورين هذه المذاهب بالأسماء الآتية :

١ — الأدبي التاريخي .

٢ — الطبيعي التاريخي .

٣ — المنطقي .

وتبعاً للمذهب الأول ، يكون مقياس الصواب اللغوي ، هو الاتفاق بين ما يقوله الفرد وبين الاستعمال اللغوي للكتاب والشعراء في عصر خاص . أما تعيين بدء هذا العصر الخاص ونهايته ، فأمر اعتباطي بحث . ويرى ستالا أن نورين لم يقدم صورة واضحة صادقة لهذا المذهب ، الذي قال به في الأصل جريم في ألمانيا ، وأتباعه في مختلف بلاد أوروبا . ولم يكن قصد جريم ولا قصد أحد من أتباعه أن يربطوا اللغة بعصر من العصور ربطاً لا تنفك منه ولا تتحلل .

ولكنهم يقولون في الواقع بوجود قوانين لغوية ثابتة . ويمقدار محافظة المتكلم أو الكاتب ، على ما تقتضيه هذه القوانين ، من علاقة بين العصور اللغوية السابقة واللاحقة ، يكون الصواب والخطأ . فلو تطرف فرد من الأفراد في الابتكار اللغوي بما يخرج عن مدى قوانين التطور اللغوي ، فإن هذا الابتكار يكون من الخطأ ، ومن

(١) أنظر له . 1 - P. 141 ff. Nystvaren .

(٢) أنظر له . IV . Sprachrichtighet, in Finnischugrische forschungen .

المعلوم أن القوانين التي يعينها جريم واتباعه ، هي مادعوه بالقوانين الصوتية Sound laws . وبهذا الاعتبار لا يكون للأدب دخل في هذه النظرية التي تقوم على التطور اللغوي في واقع الأمر . ولهذا يفضل ستالا أن يسمى هذا المذهب باللغوي التاريخي . ولاشك أنه يؤخذ على جريم واتباعه كثير من المآخذ ، مما يجعلنا نتردد في التمثيل أو التعليل لهذا الرأي .

وعلى كل حال فإن مآخذ نورين على هذا المذهب مقبولة ومعقولة . ولسنا ندري لماذا يفضل بعض العصور على بعض العصور الأخرى في اعتبارها مقياساً لغوياً ، بحيث تكون المبالغة في الخروج على الاستعمالات السائدة فيها ، خطأ لا تسمح به القوانين اللغوية العامة ، ولماذا يفرض على الناس اليوم ، ما كان يقوله من قبلهم من أبناء لسانهم ؟!

أما هذه القوانين التي قال بها جريم ، فليست وقائع مادية لا تتخلف ، بل هي من ابتكار هؤلاء العلماء أنفسهم . وكثيراً ما تفسر القوانين بمختلف الطرق فتفضي إلى مختلف النتائج ، وكثيراً ما ينقض اللاحقون من العلماء القوانين والقواعد التي ابتكرها ووطد من أركانها السابقون . وهكذا نرى أن هذا المذهب ، بعد ما وجهنا ووجه إليه نورين وستالا من النقد ، لا يبقى منه في النهاية شيء .

أما المذهب الثاني ، الذي يسميه نورين بالمذهب الطبيعي التاريخي ، فأساسه ما ساد في القرن التاسع عشر ، من أن اللغة كائن طبيعي حي ، وأن هذا الكائن يتطور ويرق في جو من الحرية الخالصة ، وأن أية محاولة لتقييد المتكلم بصواب أو خطأ ، تُنفى ولا شك إلى إفساد التطور نحو السكال اللغوي^(١) . ولا يزال لهذا الرأي كثير من الأنصار حتى اليوم من هؤلاء اللغويين الذين يتركون جانباً

(١) هذا الرأي قريب مما يقول به بعض المثقفين في مصر ، من التخلص من القواعد والآداب ، وترك التعبير اللغوي لقطرة الشخصية ، دون اعتبار لما يقول به النحويون واللغويون من صواب أو خطأ .

تحدد الصواب والخطأ اللغوي ، لأنهما من الأمور الاعتبارية البحتة ^(١) . وعلى هذا فليس ثمة خطأ في اللغة أو صواب . ويرى نورين أن مثل هذا الاتجاه لو ترك لشأنه فسيؤدي ولا شك إلى انهيار الوسائل التعبيرية اللغوية لدى الإنسان .

وبعد رفض هذين المذهبين ، يبقى المذهب الثالث — المنطقي — الذي يقول به نورين نفسه ، والذي يراه كما هو واضح من الإسم الذي أطلقه عليه ، المذهب الوحيد المعقول . ويلخص نورين هذا المذهب بقوله : « إن أصح التعبيرات ، هو التعبير الذي يمكن للسامع إدراكه في دقة وسرعة ، ويمكن للمتكلم في نفس الوقت النطق به في سهولة وبلا تعنت أو تكلف » . ولقد لخص فلودسترم هذا المذهب بعبارة أخرى لا اعتراض لنورين عليها ، وهي « إن أصح التعبيرات هو التعبير الذي يحقق الإدراك التام ، بسهولة كاملة » .

ومقتضى هذا المذهب ، أن المقياس الصحيح للصواب ، هو أمر عملي لامثالي . وذلك لأنه مبني على مقدار الجهد المبذول من المتكلم والسامع . ويعيب ستالا على هذا المذهب أنه في الواقع لا يجيب سؤال « ما هو الصواب اللغوي ؟ » ولكنه يصف أيسر الأساليب اللغوية . وقد لا يكون أيسر الأساليب أصوبها ، والواقع أن في كل من المذهب الأول والثاني بعض الحق لا الحق كله . ومن ثم فإن المذهب الثالث — بالمقياس لهما — ضعيف لا يمس جوهر الموضوع . وكيف يمكن أن نجعل السهولة في التعبير والفهم أساساً لاعتبار الحدث اللغوي « صحيحاً أو غير صحيح » ، مع ما نعلم من أن اللغات لا تلجأ بفطرتها إلى السهولة دائماً . ولاشك أنه من عدم السهولة في العربية مثلاً التعبير عن عدم ذهاب شخص ما إلى الحديقة بقولنا

(١) معنى هذا أن الصواب ليس صواباً لذاته بل باعتبار ظروف المتكلم والسامع فالعبارة العvisمة السليمة خطأ حين يقال لفلان مثلاً واضح منها في هذا الظرف عبارة أخرى يضللها مستوى الفلاح اللغوي ، ولو تحطمت في سبيل ذلك جميع قواعد النماء ، ونصوص أصحاب القوايس

« ما ذهب محمد إلى الحقيقة » وبقولنا أيضاً « لم يذهب محمد إلى الحقيقة^(١) ». وقد يحدث أيضاً أن توجد وسيلة سهلة للتعبير تستعملها اللغة استعمالاً جزئياً غير كامل . فلقد استعملت العامية المصرية صيغة « فعلول » للتصغير فيقال « بعورور » للتعبير الصغير ، « قطقوط » للإنسان أو الحيوان الذي هو في وداعه ولطف القط الصغير . كما يقال « كتكوت » « ودلدول » الخ ؛ ولكننا لا نجد هذه اللغة تسير بهذه الوسيلة إلى نهاية الشوط . فهي تقول « ججش » عن الحمار الصغير ولا تقول « حمرور » . كما أنها لا تضع اسماً للكلب الصغير على الإطلاق . ولذلك نستعمل في التعبير عنه الصفة والموصوف . وكان من الأيسر ولا شك أن تقول « كلبوب » بدلا من « كلب صغير » . إن قولنا « حمرور » و « كلبوب » أسهل في النطق والدلالة من « ججش » . و « كلب صغير » . ولا شك كذلك أنه من الخطأ استعمال إحدى هاتين الكلمتين اللتين لا تعترف لهما المصرية بوجود على الإطلاق .

وإذا صح كل ذلك فكيف يمكن أن تكون مجرد السهولة في التعبير والفهم مقياساً للصواب اللغوي ؟؟؟ . إن العامل الرئيسي في هذا المضمار ، الذي يمكن أن يكون وحده فيصلا بين الصواب والخطأ . أما سهولة التعبير والفهم أو صعوبتهما فأمر في المرتبة الثانية هو الاستعمال اللغوي .

هذا ما يقوله ستالا . ويبدو لي أنه يغالي في التفريق بين الجانب العملي — أى السهولة في الفهم والتعبير — والجانب الاستعمالي للغة . إن التعبير الذي لا يقره الاستعمال اللغوي . لا يمكن أن يكون عملياً على الإطلاق . ولهذا فإن العملية التي قال بها نورين تشمل الاستعمال اللغوي ، الذي أثاره ستالا عند رده عليه . وبهذا يمكن أن نقول ، إنه لما كان الجانب العملي مقياس الصواب ، فإنه من التزام المتكلم لهذا الجانب ، أن يعتمد إلى ما يقره الاستعمال اللغوي ، لأنه أقرب إلى الفهم ، وأسهل ردوداً على خاطر المتكلم .

(١) من الأسهل وجود طريقة واحدة للفض بدلا من طريقتين .

ولكن لى برغم ذلك بعض المآخذ على نورين .

لقد قال فى (ص ١٦٢) إنه مما تتميز به اللغة زيادة عدد من المترادفات التى تتقارب معانيها لأن ذلك يجعلها أقدر على التفريق بين الأفكار المتشابهة . واللغة المثالية هى اللغة التى بلغت من الدقة درجة تجعلها صالحة ، للتمييز بين مختلف الأفكار الفلسفية المتشابهة . ولهذا فكلما زادت المترادفات فى اللغة ، كلما قربت من هذه المثالية اللغوية ، التى لا يمكن مع الأسف تحقيقها تحققاً كاملاً .

وهنا تساءل ، هل نحتاج فعلاً إلى هذه المثالية فى نشاطنا اللغوى ؟؟ وهل من المرغوب فيه أن تفرق اللغة بين كل المدركات المتشابهة مهما بلغ عددها من كثرة ؟؟ أو ليس فى الكلمات الثلاثة ، جبل ، تل ، منحدر ، ما يكفى للتعبير عن درجات الارتفاع فى سطح الأرض بصفة عامة ؟؟ وهل نحتاج أيضاً إلى كلمات أخرى إلى جانب ، ساخن ، دافئ ، فاتر ، للتعبير عن مختلف درجات الحرارة والبرودة ؟ هل نحتاج مثلاً إلى مائة من الأسماء لأن تقسيم الترمومتر — مقياس الحرارة — يعين مائة درجة من درجاتها ؟؟ وإذا صح أننا نوافق نورين ، على عدم إمكان وجود اللغة المثالية التى ذكرها ، فإننا لا نشاركه أسفه لعدم إمكان الوصول إلى هذه المثالية . فلو حدث ووجدت اللغة المثالية التى يحلم بها نورين ، لما كانت جنة بل جحيماً لغوياً .

والحق أن التعبير اللغوى ، يقوم على أساس من جمع الذوات والحقائق الكثيرة ، التى تختلف فيما بينها ، تحت اسم واحد . ولولا ذلك لما أمكن التفاهم اللغوى على الإطلاق ، إذ يتحتم حينئذ وجود عدد من الكلمات ، مساو فى العدد لعدد الأشياء والحقائق الخارجية ، وهذا أمر لا يمكن أن يتحقق على الإطلاق . وإذا صح ، أن من المميزات فى لغة ما ، أن تسكثر مترادفات ، فإن ذلك يكلف المتكلمين بها

مجهوداً كبيراً ، من حفظ هذه الألفاظ بدلالاتها المحددة . وهذا لا يتيسر بالطبع للسواد الأعظم من متكلمي اللغة .

ويؤكد نورين أن المسألة نسبية ، وأن ما يبدو سهلاً الإدراك بالنسبة لبعض السامعين ، قد يكون غير ذلك بالنسبة لآخرين . وفي هذا ولا شك كثير من الصواب . وهو يغفل تقدير جانب المتكلم . فليس من السهل على المتكلم ، أن يزن كل كلمة يقولها ويقارن بين مستوى كل سامع يتحدث إليه ، لأن الكلام اندفاع فطري تلقى ، في غير تكلف ، عادة المتكلم اللغوية التي لها في العادة مستوى خاص . وإذا كان صحيحاً أن من الممكن أن يُعتمد الإنسان حديثاً خاصاً لمستوى خاص من الناس ؛ فإنه يبدو من العسير أن نفرض ذلك على المتكلم في غير ظروف الضرورة . ولو فرضنا أن التزم المتكلم هذا النوع من السلوك الذي يختلف بمستوى تعبيره باختلاف سامعيه ؛ فكيف يفعل الخطيب الذي يتحدث إلى حشد كبير قد يختلف مستواهم العقلي ؟ ! بل كيف يفعل الكاتب ؛ وليس لديه أدنى فكرة عن سيقراً كتابه أو مقاله ؟ ! والطريقة المثلى لمعرفة أى طرق التعبير أفضل من سواها ، أن نعين مقياساً خاصاً ينطبق على كل ما يقال ؛ مهما كانت شخصية السامع أو المتكلم . كأن نقول مثلاً إن من الأوفق أن نستعمل صيغة المضارع غير مسبوقة بأن بعد كاد ، دون أن نزاعى شخصية السامع . وهكذا يكون الحكم الذي نصدره واقعاً على المادة اللغوية نفسها لا على المستوى العقلي للسامع . وتحديد قيمة المادة اللغوية ؛ على هذا الوضع يجعلها رباطاً اجتماعياً ؛ يسعى جميع أفراد الجماعة اللغوية لتحقيقه .

ولو وصلنا بما يقول به نورين إلى مقتضياته المنطقية ، نجعلنا السامع أساساً للحكم بأفضلية تعبير لغوي على تعبير آخر ، لأفضى بنا ذلك إلى نتائج غير طبيعية . فلو فرض أن تحدث عربي بلغة فصيحة سليمة إلى فارسي ، فإن هذه العربية ستكون غير مقبولة على حد قول نورين . ومن هذا المثال نرى أنه من غير المقبول أن يكون

مقياس الصواب في التعبير اللغوي شيئاً آخر خارجاً عن اللغة نفسها .
وعندما يقول نورين « إن العبارة غير المفهومة لا يمكن أن تكون عبارة صحيحة »
فإنه يفترض أن سبب عدم الفهم يكون دائماً قصور المتكلم عن التعبير .

ولكن ألا يمكن أن يكون السبب ، غياب السامع الذي لا يدرك ما يدرك
سواه من الناس ؟ !؟ ولو كان ذلك فهل تكون عبارة المتكلم غير سليمة ؟ !؟
وكذلك يقول نورين ؛ إن استعمال الكلمات الأجنبية ؛ في مخاطبة جماهير
السامعين ؛ أو القارئين ؛ خطأ لا شك فيه . وهو بذلك يغفل عن حقيقة واضحة
وبسيطة ؛ هي أن الكلمة ؛ تعتمد في وضوحها ودالاتها ؛ على الوسط اللفظي الذي
توجد فيه Verbal Context ؛ وعلى الظروف الاجتماعية التي تحيط بها
Cintext of Situation . ولو قلت لك على سبيل المثال « جاءني شا وجعل
يموء من حولي حتى أطعمته » ؛ لعرفت أن كلمة شا (وهي فرنسية) معناها قطعة
ولو قلت لفلاح ، قدم لك جميلاً « مرسى يا أخى زرده لك في الأفراح » ؛ لعرف
أنك تشكره ، بالرغم من كونه لم يسمع كلمة « مرسى » من قبل .

والواضح أن لهذا المذهب أساسين ، أحدهما باعتبار المتكلم (أى سهولة القول)
والثاني باعتبار السامع (أى سهولة الفهم) .

ولا ندرى أى هذين الاعتبارين أكثر أهمية . ولو تعارضا فأيهما سنستخدمه
مقياساً للصواب ؟ !؟

لقد قال فلورد ستورم « ان عدم عناية المتكلم بما يقول يجعل من العسير على
السامع فهم عباراته » . وهذا من سهولة القول لدى المتكلم لأنه يلقى القول دون
عناء أو تفكير . وينتج عن هذه السهولة لدى المتكلم بهذا الاعتبار صعوبة الفهم
على السامع .

ومن الواضح أن نورين يعتبر سهولة الفهم لدى السامع أكثر أهمية في

قياسه للصواب ، من سهولة الكلام لدى المتكلم . ولكن لماذا يفضل السامع على المتكلم وهما طرفان متساويان فى النشاط اللغوى ؟ !

كذلك يمكن أن نفترض أن المتكلم ، قد تكلم بطريقة طبيعية مناسبة ، ولكن السامع لا يلتقى إليه بالآ ولا عناية . فهل يتحتم على المتكلم والحالة هذه لجعل كلامه صحيحاً ، أن يبذل مجهوداً ضخماً للفت نظر السامع وأثارة انتباهه ؟ إن مثل هذه المحاولة المادية ، خارجة عن نطاق النشاط اللغوى ، ولكنها على حد قول نورين ، هى التى تسبغ على العبارات اللغوية صفة الصواب ! ! ! !

ولو نظرنا إلى الأمر نظرة فاحصة ، لوجدنا أنه لاضرورة للتفريق بين المتكلم والسامع . فالنشاط اللغوى مفاعلة — على حد تعبير النحويين — تحدث بين السامع والمتكلم . وليس غرض المتكلم أن ينتهى من الكلام على أسهل وجه ، كما لو كان يأتى عملاً ثقيلاً على نفسه ، بل أنه يتكلم ليحدث أثراً فى نفس السامع . ومن ثم ففكرة السهولة والصعوبة غير مأخوذة للمتكلم فى حساب . وكذلك الحال بالنسبة للسامع فهو بدوره ينفعل ، والانفعال ليس عملاً شعورياً يمكن أن يوصف بالسهولة أو الصعوبة ، بل إنه يحدث كما تنطبع الصورة على المرآة دون محاولة أو علاج . وأهم شيء فى النشاط اللغوى هو وجود علاقة ذهنية مشتركة بين السامع والمتكلم . وهذا العنصر من النشاط اللغوى يتضاءل إلى جانبه المجهود الذى يبذله المتكلم فى الكلام والسامع فى الفهم . وتتجسد هذه العلاقة الذهنية ، فى الألفاظ التى يكتسبها كل من السامع والمتكلم ، ميراثاً من الجماعة اللغوية المشتركة بينهما . وليس صواب العبارات اللغوية ، التى تدور بين المتكلم والسامع أو خطوها ، أمراً يرجع إلى أيهما أو كليهما . بل إلى الجماعة التى هيأت لها وسيلة صلاتهما اللغوية . فلو لم يكونا من أبناء هذه الجماعة لما تمكنا من التفاهم فيما بينهما تفاهماً لغوياً على الإطلاق . وإذا صح أن الجماعة هى التى تهب الوسيلة فإليها

ولا شك يرجع الحكم بسلامة الوسيلة أو عدم سلامتها . وهكذا نجد أن سهولة التعبير على التكلم وسهولة الفهم على السامع ، لا يدخلان في جوهر النظام اللغوي ، الذي يورث من الجماعة ، وهذا النظام الذي يتبع في صحته وخطئه ، ماقرره أوضاع الاستعمال العام في الجماعة اللغوية . ولهذا نغيب على مذهب نورين أنه مذهب ذري يعنى بالذرات التي تكون الكل دون اعتبار للكل ذاته أو تقدير . فقد رأيت أنه قد أهمل الجماعة وجعل مقياس الصواب والخطأ فردين من أفرادها ، أي المتكلم والسامع . ويهمله للجماعة أهمل الأوضاع التي لها صفة الجمعية ، وهي أهم ما تنصف به لغة من اللغات .

كذلك كان جل هم نورين ، أن يتساءل عما يجب أن يتخذ وسيلة للحكم بالصواب والخطأ . وقد ألهمه التساؤل عما يجب أن يكون ، عن دراسة ما هو كائن . وليس من شك ، أن في استطاعة أي فرد من أبناء الجماعة اللغوية التمييز بين التعبير الخاطئ والتعبير الصحيح . وقد كان على نورين حينئذ ، أن يحصى عدد التعبيرات الخاطئة ، والطبقة الاجتماعية التي ينتمى إليها من يحكم بخطئها ، والصفات المشتركة بين هذه التعبيرات ، والفرق بينها وبين التعبيرات الصحيحة وهكذا . ولكنه بدلا من ذلك تعلق ببعض المثل الذهنية ، كالأدبية التاريخية ، والطبيعية التاريخية . وقد صرفته هذه المثل الذهنية البحتة ، عن علاج الوقائع اللغوية المادية ، التي هي وحدها محل الدرس والاستقصاء . ولاشك أن لهذه المثل الذهنية ، قيمتها النظرية . ولكننا حين نحكم بصواب أو خطأ على ما يقول تلميذ في حجرة الدراسة ، أو كاتب في صحيفة ، لانستعمل هذه النظريات في الحكم ، على الإطلاق .

ولكن كيف يحكم الفرد العادي على تعبير ما بالصواب أو الخطأ ؟ !
يجب ألا نتوقع أن لدى الرجل العادي مقياساً ثابتاً للحكم ، فهو مرة يحكمهم فطرته وذوقه ، ومرة يحكم القواعد اللغوية التي تعلمها في المدرسة ، إلى غير ذلك

ويمكن حصر المقاييس التي يلجأ إليها الرجل العادي باعتبار وصول الكلام إلى أحد المستويات الآتية :

١ — مستوى جهات الاختصاص اللغوى

٢ — مستوى المناطق الجغرافية المتميزة

٣ — المستوى الأدبى

٤ — المستوى الارستقراطى

٥ — المستوى الديمقراطى

٦ — المستوى المنطقى

٧ — المستوى الذوقى

وستحدث الآن عن كل من هذه المستويات

* * *

أما جهات الاختصاص اللغوى ، فنعنى بها الهيئات الرسمية وشبه الرسمية التي تعنى بالدراسات اللغوية عناية خاصة ، كوزارة المعارف ، والمجمع اللغوى . ولقد عنيت وزارة المعارف في مصر بالذات ، بتبسيط القواعد العربية ، وإصلاح الكتابة ، كما وضعت برامج خاصة لتعليم اللغة القومية في مدارسها ومعاهدها . ولا شك أن هذه المدارس ، تؤثر تأثيراً عظيماً في النشاط اللغوى القومى . ولهذا يمكن أن نقول إن ما تقرره جهات الاختصاص في وزارة المعارف ، لا يلبث أن يشيع حتى يعم كل أطراف الجماعة اللغوية وزواياها . وليس دور المجمع اللغوى في مصر عظيم الخطر . ولكن المجمع اللغوى الفرنسى ، هو المرجع الأول والأخير في كل المشاكل اللغوية . ووجود هذه الهيئات ، لايعنى عدم وجود من يخالفها أو يخرج عما توصى به من الاستعمالات اللغوية ، بل إن هناك من يعارض ما توصى به هذه الهيئات ، ويحاول أن يردّها عنه . وإني أذكر كيف كان المرحوم الاستاذ

مصطفى صادق الرافعي ، يصر على استعمال كلمة السكركرة (للشيشة) ، والسنادة (للعكازة) والدخينة (للسيجارة) وسواها من الكلمات التي وضعها هو . وفي نفس الوقت كان يرفض دائماً استعمال الكلمات التي أوصى بها المجمع اللغوي . وليس من المعقول أن تستطيع وزارات المعارف ، أو مجامع اللغة ، أن تحل كل المشكلات اللغوية . ولهذا فستظل هناك دائماً كلمات جديدة لم تعرفها الوزارة أو المجمع قولها الفصل . وسنظل دائماً نتصل بسوانا من الناس ، فنكتسب من أفكارهم ، ومن وسائل حياتهم ما نحتاج دائماً إلى خلق الكلمات والعبارات له . ولا يعقل أن يتوقف النشاط اللغوي ، حتى نسمع رأي الوزارة أو المجمع في هذه الكلمة أو تلك . وكثيراً ما يحدث أن يطول النقاش بالمختصين في الوزارة ، وبأعضاء المجمع ، ولا ينتهي بهم إلى شيء . ولذلك فلو صح أن لجهات الاختصاص أثراً في الحكم بصواب عبارة أو خطئها ، فإنها ليست وحدها المرجع الأول والأخير في هذا الأمر .

وفي إنجلترا لا تتدخل وزارة المعارف ، في السلوك اللغوي على الإطلاق ، كما لا يوجد مجمع لغوي ، يتخذ مرجعاً للصواب والخطأ . ومع ذلك ففي الإنجليزية عبارات وألفاظ ، يحكم عليها بالخطأ وعبارات وألفاظ أخرى يحكم عليها بالصواب . وليس الإنجليز في حرصهم على تتبع الصواب ، وتفادي الخطأ ، بأقل من الفرنسيين ، الذين يتخذون رأي مجمعهم اللغوي ، حكماً لا يخرج عليه أحد .

وإن من المشاهد والمحوظ ، في مختلف الجماعات الإنسانية ، حاجة الإنسان إلى من يوجهه ويرسم له طريق سلوكه . فنحن نراه مثلاً يأخذ ما يقول له مصمم الأزياء ، قانوناً يتبع . وليست « المودات » شيئاً سوى ابتكار شخص ، أو عبارة أدق توجيه فرد أو أفراد للذوق العام في اللبس والمظهر . وكذلك ليست الآراء والمذاهب السياسية ، إلا آراء بعض الأفراد ، اتخذوا من الصحف وسيلة لتوجيه

الرأى العام ، الذى لا يلبث أن يردد ما يقولون فى إيمان وثقة . والوضع كذلك بالنسبة لطرق الكتابة ، والهجاء والكلام . فنحن دائماً فى انتظار راعى القطيع يرسم له خط السير . ولو تخلف هذا الرائد اللغوى ، فلم نجد الموجه الذى يرشدنا إلى اللفظ الصحيح أو العبارة السليمة ، فإننا نجد فى القاموس وكتاب القواعد هادياً وموجهاً . وقد يكون القاموس — كما فى العربية — سجلاً للألفاظ والعبارات التى كانت سائدة منذ قرون خلت . وقد تكون كتب القواعد وصفا للعلاقات بين الألفاظ فى عصر بعيد . ومن ثم فلا مناص من اختلافها عن المثل الذى يجب أن نسير عليه فى العصر الحديث . ولكن كل ذلك لا يمنع من التجاؤنا إليهما ، عندما لا نجد السلطة اللغوية المختصة ، التى ترفع علم التجديد اللغوى فتبيح وتمنع ، ونحن من وراءها نقبل ما تبيح ونرفض ما تمنع . وليست مثل هذه التبعية عيباً فى الجماعة اللغوية . بل إنها أمر طبيعى دون شك ، فليس كل إنسان متخصصاً ، عليه أن يضنى نفسه ووقته ، فى البحث عن التعبير السليم ، والأساس الذى عليه يمكن القول بسلامته .

وقد تكون هذه السلطة الموجهة وزارة التعليم ، أو مجمع اللغة ، كما تكون كاتباً أو شاعراً ذاع صيته فأصبح ما يقول قاعدة لا تقبل غير التقليد من الشعب المعجب به . وكذلك كان شوقي وحافظ حيناً من الدهر ، وكذلك يعتبر طه حسين والعقاد فى مصر اليوم . ولم يدخل فى حساب أى من هؤلاء ، أن يكون قدوة لغوية لسواه . وكل ما أراد ، هو أن يعبر عن نفسه بطريقة يرضاها ذوقه الفنى ولا أكثر . وكذلك يمكن أن يقال عن امرئ القيس وكل شعراء العربية ، الذين لم يقصدوا أن يكونوا مثلاً لغوياً يحتذى إلى قرون طويلة تبلغ عصرنا الذى نعيش فيه .

وما يمكن أن يقال عن الرواد اللغويين ، يمكن أن يقال عن القواميس ،

وكتب القواعد^(١) . ولقد قالت الأكاديمية الفرنسية أنها لا تعتبر نفسها السلطة العليا التي تصرف في شئون اللغة الفرنسية . ولكن كل ما تریده وترى إليه ، هو أن تسجل الاستعمالات اللغوية التي تتميز ببعض الخصائص الأدبية والفنية . وقد أصدرت قاموسها على هذا المنطق . ولا تزال تعيد طبعه ، طبعات تحتوى على أحدث الاستعلامات التي دخلت في الفرنسية ، ولو خالف أعضاؤها أنفسهم هذه الاستعمالات الحديثة . وبالرغم من وضع الأكاديمية لنفسها ولقاموسها هذا الوضع ، فإنها قد اعتبرت — من السواء الأعظم من متكلمي الفرنسية — سلطة مختصة بالشئون اللغوية واتخذ ما تراه ، وسيلة للحكم بالصواب والخطأ اللغوي .

وإلى جانب هذه الرغبة الجارفة في وجود سلطة مختصة يتخذها أعضاء الجماعة اللغوية ، قبلتهم وحكمهم في كل ما يعرض لهم من مشا كل لغوية ؛ توجد رغبة اجتماعية أخرى . وهذه هي رغبة السواد الأعظم ، في وجود قواعد لغوية محددة ومختصرة . ويحقق هذه الرغبة مؤلفو كتب القواعد اللغوية المدرسين ، الذين يحاولون عن قصد أو غير قصد ، أن يضعوا اللغة خلف قضبان قواعدهم التي لاتلين . وتقوم هذه القواعد في الأصل على ملاحظة سليمة لخواص الاستعمال اللغوي ، في ظرف أوظروف معينة . وهي بهذا الاعتبار سليمة ولا شك . ولكن الخطأ كل الخطأ ، في محاولة تطبيقها في ظروف أخرى غير الظروف ، التي وجد فيه النشاط اللغوي ، الذي أخذت عنه هذه القواعد . وسأوضح لك ذلك بالمثل فيما يأتي : من المعروف أن القواعد العربية ، قد أخذت عن النصوص الشعرية الجاهلية

(١) كانت نشأة النحو العربي مدفوعة بالرغبة في النطق السليم بعد شيوع العجمة . ولكن الحاجة للنحو ليست دائماً كذلك ، خاصة في العصر الحديث ، الذي ندرس فيها لغات ، لا تنوق على الاطلاق أن يتعلمها سوى الباحث الذي يدرسها .

وعن بعض النصوص النثرية ، وأهمها القرآن والحديث . وهذا النوع من النشاط اللغوى نشاط خاص ، وليس شاملاً لبعض أنواع النشاط اللغوى الأخرى ، كالنداء على السبع ، واللعب مع الأطفال ، والبكاء على الموتي وغير ذلك . ومن الممكن أن تتصور اختلافاً في بناء الجملة ، أو طريقة نطق اللفظ في مثل هذه التعبيرات . وهذا يجعل القواعد اللغوية المذكورة ، غير ممثلة لواقع الأمر في هذه الحالات . وعلى ذلك فإن ادعاء واضعى القواعد النحوية ، بأنها قواعد السلوك اللغوى في كل الظروف ، ادعاء غير سليم . وليس أدل على ذلك ، من تعدد روايات النحويين أنفسهم ، وبعضها يخالف القواعد التى وضعوها .

ولديك فى القاهرة عشرات من الطرق لنطق كلمة واحدة ، حسب الظروف التى توجد فيها بالطبع . فبائع الصحف ، لا ينطق كلمة « المصرى » كما تنطقها أنت حين تطلبها منه . ومن الواضح أن استعمال الرجال للغة ، يختلف عن استعمالات النساء ، واستعمالات الأطفال . وأن استعمالات طبقة المثقفين اللغوية ، تخالف استعمالات جزارى السلاخانة . وكذلك يبالغ واضعو القواعد اللغوية فى التفريق بين دلالات التراكيب المختلفة ، إلى حد ابتكار الأمثلة لتأييد رأيهم . ويحاولون أن يحملوا الناس على استعمال تراكيبهم هذه ، ولو لم تكن ذات فائدة عملية على الإطلاق . والنحو العربى ملء بهذا النوع من الحشو الذى فرضه النحويون على اللغة حملاً ثقيلاً .

ويضيق مؤرخو اللغات بمثل هذا النوع من ضيق النظر الذى يفترض وجود صواب وخطأ فى اللغة . وذلك لأنهم يعرفون ، بعد دراسة مخصصة للنصوص اللغوية فى العصور المختلفة ، أن من أهم خصائص اللغات عظم استعدادها للتطور والتغير . وعلى هذا فإن ما يعتبر صواباً فى قرن ما ، قد يكون خطأ فى قرن يليه . وهم يعلمون كذلك أن اللغة لا تستقر على قاعدة معينة إلى الأبد^(١) . ولذلك فإن كثيراً

مؤرخى اللغات ، لا يهتمون بمشكلة الصواب والخطأ ، لأن الصواب أو الخطأ ، صواب أو خطأ إلى حين .

وموقف هؤلاء المؤرخين غير سليم ، لأنهم كما يقول المثل الانجائزى ، يلقون بالطفل فى البالوعة ، مع الماء الذى غسلوا جسده به . فبالرغم من صحة ما يقولون ، ومن أن بعض ما يسمى خطأ قد يصير من أهم القواعد المتبعة فى المستقبل ، فإن من اللازم لكل جيل أن يعرف ، أى العبارات أكثر قبولا واستحساناً ، وأيها تثير الاعتراض والاستهجان . وليس التطور قاصراً على السلوك اللغوى ، بل إنه شامل لجميع أنواع السلوك البشرى ، ولم يقل أحد بعدم تجنب العادات التى يستهجنها مجتمع من المجتمعات ، لمجرد احتمال تغير نظرة المجتمع إلى هذه العادات ، خلال القرن أو القرون القادمة . ومن هنا نرى أنه من اللازم أن نعرف ، ما إذا كان لنا أن نقول عبارة من العبارات أو لا نقول . ولا شك أن مثل هؤلاء العلماء ، أصلح من يستطيع القول بصحة العبارة أو عدم صحتها . وذلك لأن مؤرخ اللغة أكثر دراية بالخصائص الأصلية للغنة من اللغات ، من المدرس الذى يقدر القاعدة . ولهذا فسيكون حكمه بالصواب والخطأ ، أكثر مراعاة لاتجاهات التطور اللغوى ، وأقل خضوعاً للقواعد التى فقدت قيمتها اللغوية بمرور الزمن .

* * *

كثيراً ما يتساءل الناس ، فى أى مكان فى مصر ، أو فى العالم العربى ، يتحدث الناس اللغة العربية فى أرقى أوضاعها ؟ . وكثيراً ما نسمع الجواب ، فى القاهرة ، أو فى بغداد ، أو دمشق ، أو الخرطوم . وقد تكون الإجابة عن هذا السؤال تعييناً لمقاطعة كاملة للمدينة بالذات . ولكن هل يمكن أن نقبل هذه الإجابة ، بعد ما عرفنا من أن اللغة المشتركة ، أو الفصحى ، لغة قد تخلصت من الخصائص اللغوية ، التى تميز أية لهجة محلية ؟ ! ؟

لقد تعرض هارولد بالمر^(١) Harold Palmer لهذا الموضوع . وهو فى هذا الصدد يعود بنا إلى المذهب الذى سماء نورين بالمذهب الطبيعى التاريخى ، هذا المذهب الذى قال عنه بالمر ، إنه مقبول من عدد كبير من علماء اللغة ، ومن بينهم ، الأستاذ أوتوجسبرسن^(٢) . ويتحدث بالمر عن كثرة المتسائلين ، الذين نسمعهم يقولون :

« فى أى مكان تجد الإنجليزية الفصحى ؟ ! ؟ » « فى أى منطقة توجد أصح فرنسية ؟ ؟ » « فى أى بلد عربى تجد العربية السليمة ؟ ؟ » وهكذا . ومعنى استعمال الألفاظ « فصحى ، سليمة ، أصح » أن من يتسائل هذا التساؤل ، يرى وجود لغة مثالية موجودة فى مكان خاص من الوطن اللغوى للجماعة . وإن أصح أجابة لمثل هذا النوع من التساؤل أن نقول « إن خير الأماكن التى توجد فيها الإنجليزية الأسكتلندية هو اسكتلندا ، وإن خير مكان توجد فيه الإنجليزية الأمريكية ، هو الولايات المتحدة الأمريكية ، وأن خير مكان توجد فيه المصرية الصعيدية ، هو صعيد مصر ، وإن خير مكان توجد فيه المصرية كما يتحدثها أهل طوخ طنبشا ، هو قرية طوخ طنبشا » . وهذا النوع من الإجابة ، كما ترى لا يعترف بلغة مثالية عامة موجودة بالفعل فى مكان ما . وهذا هو ما يراه كبار علماء اللغة . ومقتضى هذا رأى ، أنه لا يصح ، على الإطلاق ، التساؤل عن الصواب أو الخطأ دون أن نربطهما باللهجة المحلية — أو الطبقة — التى نريدها . فليست لغة جزار المذبح ، أقل صواباً من لغة أستاذ الفلسفة . هذه صواب وتلك صواب ، ولكن لهذه مكان ولتلك مكان آخر ، وإن كان ذلك لا يمنع أن لإحدى اللهجتين مكانة اجتماعية عالية ، دون الأخرى .

(١) أنظر كتابه : Grammar of Spoken English, Cambridge 1924 p. 32ff.

(٢) هو مؤلف الكتاب الذى ترجمه هنا ونعلق عليه . وليس الأستاذ جيسبرسن فى الواقع من مؤيدى هذا المذهب ، وقد سبق أن رأيت اعتراضه عليه .

وبهذا التعليق أترك الموضوع جانباً ، دون أن أجيب على مثل هذا النوع من التساؤل الذي مر بك ، أجابة ترضى السائلين .

* * *

وقد يحدث عندما يتساءل شخص عن اللغة الفصيحة السليمة ، أن يقال له : إنها اللغة التي يكتب بها أعظم الكتاب والشعراء في عصر خاص . ومثل هذا النوع من التفكير يتضمنه عرض نورين لمشكلة الصواب والخطأ اللغوي ، ويصرح به ستالا ، الذي لم يوافق بين مثل هذا الكلام غير الدقيق ، وبين تفكيره اللغوي المنظم في بقية ما عرض له في بحثه من أفكار . إن مثل هذه الإجابة غير الدقيقة ، لا تساعد في قليل أو كثير على التعرف ، على الصواب اللغوي والخطأ اللغوي . ومما يعترض به عليها ، أنها تجيب على هذا السؤال اللغوي بشيء خارج عن نطاق الدراسات اللغوية ، أعني النتاج الأدبي . وكيف يتأتى لنا أن نعين أعظم الكتاب وأسلمهم تعبيرا ، دون أن يكون هناك مقياس للصواب والخطأ؟! أو ليس من الممكن ، بل من المؤكد ، أن تختلف الآراء اختلافاً كبيراً في تعيين من هم أعظم الكتاب؟! . صحيح إن هناك شبه إجماع على تقدير مكانة الكتاب والشعراء الأقدمين ، ولكن لغتهم كثيرا ما تكون غير صالحة للعصر الحديث الذي نعيش فيه . ونحن بالرغم من اعترافنا بعلومكانه امرى القيس وعنترة ، لا نتحمس كثيرا لاستعمال ألفاظهما وعبارتهما وأخيلتهما .

ولا شك أن شكسبير ، يعتبر شاعر الأدب الانجليزي الأول . ولكنني أشك كثيرا ، في أن هناك من يرضى بأسلوب شكسبير ، أسلوبا له في هذا العصر . بل لقد تدخل ناشرو كتب شكسبير في عباراته بالتعديل والتجديد ، بعد وفاته بتسع سنوات ، حين نشرت المجموعة الأولى لدراماته سنة ١٦٣٢ . وكذلك عدل بوب

Pope من عبارات شكسبير وأسلوبه في مواضع كثيرة، حين نشر مجموعة مؤلفاته في أوائل القرن الثامن عشر . وإذا كان صحيحاً أن هناك طائفة من العلماء تدرس لغة شكسبير ، وتحافظ على عباراته ونصوصه فيما تنشر له ، فإنها حين تفعل ذلك ، تعلق على هذه العبارات والنصوص ، وتسكتب من القواميس والشروح ، ما يمكن القارئ الإنجليزي الحديث من فهمها عندما يدرسها باعتبارها نصوصاً ولاغير وهل تراك تستمتع بالمعاني دون شروحها المفصلة ، أو بمقامات الحريري دون التفسيرات والتعليقات الملحق بها !!! .

وهناك بعض الكتاب ، الذين تسمو بهم أفكارهم أكثر مما تسمو بهم أساليبهم . وذلك لأنهم يوغلون وبيالغون في العمق والتحليل بما يجعل أسلوبهم عسير الفهم وعسير التقليد . ومثل هؤلاء لا يصلحون مقياساً يحتذيه من يهدف للصواب في التعبير . ولو فرض أن وضعنا بعض القيود لنخرج مثل هؤلاء ، من أن يكونوا مقياساً للصواب اللغوي قلنا : إن اللغة السليمة ، هي اللغة التي يكتب بها الكتاب المتميزون ، الذين يكتبون لغتهم القومية في أسلوب واضح ، وعبارة سليمة . ولو فرض إن قلنا بهذا ، لكان معنى ذلك أننا لانعرف اللغة السليمة بل نعرف الكاتب المبرز . لأننا بذلك نقول إن الكاتب المبرز ، هو من يكتب بلغة سليمة واضحة ، وإن اللغة السليمة ، هي اللغة التي يكتب بها الكاتب المبرز . وليس مثل هذا القول تعيماً للصواب اللغوي على الإطلاق .

وعندما نقول هذا ، نسلم بأنه قد يكون من المفيد ، لتوجيه بعض ضيق الأفق والمحدودي الذكاء ، إلى تعبير سليم ، أو إقناعهم بسلامة تعبير يعترضون عليه ، أن نقول لهم إن فلاناً ، الكاتب العظيم يستعمل مثل هذا التعبير . قد يكون مثل هذا القول مغنياً عن تفصيل قضية صواب أسلوب أو خطأ عبارة ، تفصيلاً

لاتصل إليه أفهامهم . ولكن هذا النوع من الإقناع لا يكفي من لديه طاقة للفهم ، حيث أن مجرد استعمال كاتب من الكتاب لعبارة من العبارات ، ليس في ذاته حجة دامغة ، لمن لا يرضاها . ومما لاشك فيه أن أى كاتب ، مهما علت منزلته ، ليس معصوماً من الخطأ اللغوى . ولقد أخذ على هومر بعض الأخطاء اللغوية . وتذكر كتب الأدب العربى الكثير عن أخطاء كبار الشعراء العرب . وقد سرد ابن سلام صاحب طبقات الشعراء (ص ١٥ — ١٧) ^(١) من هذه الأخطاء أمثلة ، منها قول النابغة :

فبت كأتى ساورتنى ضئيلة * من الرقش فى أنيابها السم نافع
والصواب « ناعما » بالنصب على الحال .
وقول الفرزدق

وعض زمان يا ابن مروان لم يدع * من الناس إلا مسحاً أو مجرفاً
والصواب مجرفاً بالنصب .

وكان عبدالله ابن اسحق كثير الاعتراض على أخطاء الفرزدق فسأله « علام رفعت مجرف ! » فرد الفرزدق « على مايسوءك وينوءك ، علينا أن نقول وعليكم أن تؤولوا » .

ونحن حين نرفض اتخاذ مشاهير الكتاب ، مقياساً للصواب ، لانهم لم يهتموا بكل الإهمال . فالذى لاشك فيه ، أننا نستعين بنصوصهم ، لتحديد الصواب اللغوى ، لأنه فى الوقت الذى لا يبلغ التكلم العادى جمهوراً من المستمعين يزيد على اثنين أو ثلاثة من الأشخاص ، فإن الكاتب ، قد يبلغ جمهور ما يقرأه آلاف ، أو مئات على الأقل . ومن ثم فتأثير الكاتب اللغوى ، أعمق بكثير من تأثير التكلم العادى ، فى توجيه اللغة . وليس معنى هذه الملاحظة الأخيرة ، أننا نعطى لسعة انتشار ما يكتب

(١) طبعة دار المعارف سنة ١٩٥٢ القاهرة .

الكاتب ، السكان الأول من الأهمية . فإن الذى لاشك فيه ، أن ما يكتب صحفى بسيط ، أوسع انتشارا بين جمهور القارئ ، مما يكتب مؤلف فنان . ومن الحقائق المعروفة لدى الناشرين ، أن أقيم الكتب ، أقلها توزيعاً . ولكن للكتاب المبدعين قدرهم ومكانتهم ، فإن ما يكتبون يقرأ ، ثم يعاد فيقرأ ، وقد تستمر قراءتهم أجيالاً متعاقبة . ومن ثم فهم فى النهاية أوسع انتشاراً وأعرق أثراً ، من محترفى الأسلوب الرخيص ، الذى ينقشع مع انقشاع اللحظة التى يُقرأ فيها . إن مثل هؤلاء المبدعين ولا شك أعرق وأخلد أثراً فى حياة اللغة . ولكن بالرغم من كل ذلك ، فإننا لانجعلهم الحكم الفصل فى قضية الصواب اللغوى .

* * *

والآن ، هل نرضى لغة الطبقة الراقية ، مقياساً للصواب ؟ ؟

هذا نوع من السؤال الذى يوحى بسؤال آخر . فإن السامع لا يكاد ينتهى من إدراك دلالاته حتى يسأل بدوره ، ولكن ماهى الطبقة الراقية التى تتحدث عنها ؟ ! ؟ ومن من الأشخاص تضم هذه الطبقة ؟ ؟ هل هى طبقة الحكام والأمراء ؟ أم طبقة ذوى المال والثراء العريض ؟ ؟ أو ما كنا نرى فى مصر إلى عهد قريب ، طبقة الحكام غربية اللسان ، وطبقة ذوى المال من سراة الريف أو من عامة الناس ، الذين ارتفعت بهم فرص تجارة مخلفات الجيوش بعد الحرب ؟ وهل يصح أن يتخذ هؤلاء أو أولئك مقياساً للصواب اللغوى ؟ ؟

وهل يمكن أن نعرف هذه الطبقة بأنها كبار موظفى الدولة وأمثالهم ، ممن اكتسبوا ثقافة عالية ترتفع بمستواهم العقلى واللغوى ؟ ؟ إن مثل هذه الإجابة أكثر قبولاً . ولكن كيف نضع الخطوط الفاصلة بين هؤلاء ، وسواهم ممن اكتسبوا ثقافة وعلماً ؟ ؟

قد لا يكون من الممكن فعلاً أن نضع هذه الخطوط الفاصلة . ولكننا بسهولة نستطيع تمييز الطائفة التي نقصدها بهذا القول .

إن مثل هذا التقسيم تقسيم طبقي . ولقد لعبت الطبقة — كما سبق أن رأيت — دورها ، وخاصة في مجال الصواب والخطأ اللغوي . وإننا لنشاهد دائماً ، كثيراً من أبناء الطبقات الدنيا ، يحاولون جاهدين أن يصلحوا من أساليبهم الكلامية ، باتخاذ نطق خاص ، أو استعمال ألفاظ وتراكيب معينة ، تفرهم من مستوى الطبقات المتميزة من مواطنهم . وقد لا يكون هذا النوع من التقليد ، في صميم السلوك اللغوي ، بل في شكلية من شكلياته ، كمن يتوهم من عوام المصريين أن مجرد استبدال الهمزة قافاً عند الكلام ، هو استعمال للغة الفصيحة ، دون أن يراعى حالات الإعراب وتركيب الجملة ، وهما من خصائص الفصيحة الأساسية . وقد لا يتفق لمثل هؤلاء التقليدين ، أن يصلوا في دقة ما يقولون ، ودقة فهم ما يسمعون إلى ما يصل إليه أبناء الطائفة التي مُقلِّد^(١) . ولكن الذي لاشك فيه أن هذا التقليد حقيقة واقعة ، وأنه يؤدي إلى اعتبار بعض الألفاظ والتعبيرات ، ذات مكانة خاصة ممتازة ، فهل يمكن أن تعتبر هذه المكانة مقياساً للصواب ؟ ! ؟ ومن ناحية ثانية فإن الطبقة الراقية ، تنظر في هوان إلى طرق التعبير والنطق والألفاظ ، التي يستعملها أبناء الطبقات الدنيا ، فهل لنا أن نتخذ هذا النوع من الاستهانة مبرراً لجعل لغة الطبقات الدنيا مقياساً للخطأ اللغوي ؟ ! ؟

الحق أن هذا النوع من التقدير ليس أمراً لغوياً ، بل اجتماعياً خالصاً . وربما كان لبعض الألفاظ والتعبيرات ، التي ينظر إليها في شيء من الإزدراء ، جمال

(١) أذكر قصة تروى بقريني ، تلخص في أن أحد مشايخ البلد كان شغوفاً بالنظائر بأنه مثقف . وكان من علامة الثقافة كما كان يتصور ، استعمال كلمة لماذا . وذات يوم حضر مأثور المركز وسأله أين ذهب العمدة ؟ فرد شيخ البلدي الفور « لماذا الجسر » أي (ذهب إلى الجسر) .

يعترف به الناقدون . ولهذا لا يمكن أن نصف لغة أبناء الطبقة الراقية بالامتياز ، ولغة أبناء الطبقات الدنيا بالانحطاط ، على أساس علمي سليم . إن ما يضاف على تعبيرات الطبقة الراقية جاذبية وجمالا ، ليس أمراً ذاتياً تتميز به هذه التعبيرات ، بل أمور أخرى تصحبها ، كالملايس الأنيقة ، والسلوك الرقيق أو غير ذلك من الأمور ، التي تنزل منا في محل الإعجاب . وبالعكس فإن ما يضاف على تعبيرات الطبقة الدنيا خشونة وغلظة ، ليس سوى ما يصحبها من خشونة في المظهر ، أو غلظة في السلوك . وبالرغم من اعترافنا ، كعلماء لغويين ، بهذه الحقيقة ، فإنه لا يسعنا أن نفعل التقدير الاجتماعي ، كعنصر يكسب اللغة مكانة ما .

لقد شغل موضوع اللغة السليمة ، بالعلماء اللغة في فرنسا إلى عهد طويل . فمنذ القرن السابع عشر ، نرى الكتاب اللغويين يعالجون هذا الموضوع في استفاضة واستطراد . ولقد لخص برونوت Brunot الآراء التي قيلت في هذا الصدد وحللها . وإنى أقول لك الآن ماقاله ميليه عن عرض برونوت لهذه الآراء . يقول ميليه (١) : « لقد حار هؤلاء الكتاب أين يجدون اللغة المثالية ، هل تجدونها في قصور الحكام والملوك ؟ ولكننا نجد بين رجال الحاشية من لا يتكلمون لغة سليمة ! ، أم لدى الكتاب والمؤلفين ؟ ؟ ولكن الفرنسية ليست مجرد لغة أدبية ، فهي لغة المجتمعات بمقدار ما هي لغة الأدب ! ! وهل نتمتع على الاستعمال ، أساساً لتحديد اللغة السليمة ؟ ؟ ولكن أي نوع من الاستعمال ؟ ؟ لاشك أن كثيراً من التعبيرات التي ليست منا في محل الاعتبار والتقدير مستعملة وشائعة ، وإن كان ذلك بين أبناء الطبقات الدنيا . إن هناك اتجاهات لتجنب لغة الطبقات الدنيا ، لا في التعبيرات العامة فحسب ؛ بل حتى في التعبيرات التي تتصل بصناعاتهم ومختلف نواحي نشاطهم

الاجتماعى والعملى . واللغة التى تقلد دائماً ، هى لغة القلة من المترفين ذوى الثراء ، الذين لا هم لهم إلا الحياة الفاعمة الرخية . ومثل هذه الطبقة لا تتسم بالإقليمية فى لغتها ، بل إنها لا تتسم بالباريسية ، التى تلون لهجة الطبقة العاملة فى العاصمة الفرنسية . لا يمكن أن توصف هذه الطبقة إلا بأنها فرنسية وحسب . ولكنها قد اختلطت أخيراً بسواها من الطبقات ، فدخل إلى لغتها كثير من تعبيرات الطبقات الأخرى . ودور الكتاب والأدباء ، تنقية هذه اللغة المتميزة مما علق بها ، وإعطائها صفة ثابتة دائمة ، بنقلها من حدود الحديث العابر ، إلى لغة مدونة محدودة . وهكذا يمكن أن نقول ، إنه لو صح أن وظيفة الهجاء أن يوجه القارئ إلى النطق السليم ، فإن وظيفة الكتابة الأدبية ، أن تحتفظ بالأساليب السليمة الراقية ، وتشيعها بين جمهوره المتعلمين والقارئين . »

ومن هذا نرى أن الكاتب يفترض :

أولاً — وجود طبقة ممتازة امتيازاً اجتماعياً ، هى محل التقليد من سواها من الطبقات .

ثانياً — اختلاط لغة هذه الطبقة بلغة سواها من الطبقات .

ثالثاً — تخير الأدباء لأحسن وأبقى أساليب الطبقة الممتازة واستعمالها فى انتاجهم الفنى ، وبذلك تكتسب هذه الألفاظ والتعابير ، مركزاً ثابتاً ، حيث أنها لا تقتصر على كونها مجرد ألفاظ تقال وتنسى . ومن هذه الدورة كلها نخرج بالألفاظ والتعابير التى يمكن الحكم بأن استعمالها قد تداول ، إلى درجة صارت معها من التعبيرات المستحسنة المرضية .

* * *

وإذا صح أن هناك من يقول باتخاذ سلوك الطبقة الراقية اللغوى ، مقياساً

للسواب فإن هناك من لا يؤمن بهذه الأرستقراطية ، ويقول باتخاذ لغة الشعب ، التي هي أكثر شيوعاً وانتشاراً ، مقياساً له . ويعتمد هؤلاء الديموقراطيون في رأيهم ، على أنه ليس هناك فرقاً بين فرد وآخر في النشاط اللغوي ، يبرر تمييز أيهما .

ومن الأصح أن يقوم الحكم بالسواب على أساس نسبة عدد الأفراد الذين يمثلون نوعاً خاصاً من النشاط اللغوي ، إلى سواهم ممن يمثلون نشاطاً لغوياً مخافاً . وستكون النتيجة ولا شك ، تغليب جمهرة الشعب ، الذين هم أكثر عدداً من أبناء الطبقة الراقية .

وعيب هذا الرأي ، أنه يفترض أن الانقسام اللغوي في مجتمع من المجتمعات لا يُنتج أكثر من لهجتين ، لهجة الطبقة الراقية ، واللهجة الشعبية ، مع أن الواقع غير ذلك . وقد رأينا عندما تعرضنا لرأي الأرستقراطيين ، أن السلوك اللغوي ، لأبناء الطبقة الراقية لا يمكن أن يوصف بالإقليمية . وذلك لأنه متشابه في جميع أنحاء الوطن الواحد .

وإذا صح للأرستقراطيين أن يتخذوا من ذلك حجة للقول بجعل لغة الطبقة الراقية ، وهي لغة موحدة على اختلاف الأقاليم ، مقياساً للسواب ، فإن الديموقراطيين لا يستطيعون الاحتجاج لرأيهم بمثل ذلك . والحق أنه ليس للهجات الشعبية هذه الوحدة ، التي تتميز بها اللهجة الأرستقراطية ، فهذه اللهجات تختلف باختلاف الإقليم ، وباختلاف الحرفة ، واختلاف درجة التعليم وغير ذلك .

ولما كان للهجات الشعبية هذه الخاصة — أعني عدم التوحد — فإن الوسيلة الوحيدة ، للحكم بالسواب والخطأ عند الديموقراطيين أن تقوم باستفتاء ، أو إحصاء تتعرف به على درجة شيوع العبارة التي نحكم لها ، أو عليها بالسواب أو الخطأ . ومثل هذا الإحصاء أمر شاق عسير ، لأنه لا بد من أن نجريه بالنسبة لكل لفظ

أو تركيب أو صيغة ، من ألفاظ اللغة ، وتراكيبها ، وصيغها . أضف إلى ذلك أن درجة شيوع نوعين من نطق كلمة ، أو طريقتين من طرق تركيب عبارة قد تكون متساوية . فلو حدث أن وجدنا خمسين في المائة من الشعب المصرى يقول «فين أنت» ، وخمسين في المائة يقول « انت فين » ، فأى هذين التركيبين صواب وأيهما خطأ ؟ كذلك قد نجد أن عددا كبيرا ، من أفراد الجماعة اللغوية يساوى بين استعمال واستعمال ، للفظ الواحد . وإنى لا أفرق في التعبير المصرى عن الكلمة العربية «أصبع» ، بين «صابع» أو «صباع» . فهل نفعل مثل هذا العدد من حسابنا عند إجراء الإحصاء ؟ وعلى أى أساس نفعل ذلك ، وهم من أبناء الجماعة اللغوية ولا شك ؟ وهكذا ترى أن تطبيق هذه النظرية تطبيقاً سليماً ، يكاد يكون من المستحيل .

لقد خلط أصحاب المذهب الطبيعى التاريخى بين مذهبهم ، وبين النظرية الديموقراطية في الصواب والخطأ . فقد ظنوا أن ما يهدف إليه هذه النظرية ، من تخلص غالبية الشعب ، من السيطرة اللغوية ، للطبقة الراقية ، يفضى إلى التحرر اللغوى الكامل . ولكن الواقع أن هذه النظرية لا تتحرر من الصواب والخطأ ، لأن الصواب لديها هو ما تقرره أغلبية المتكلمين . وكل ما يختلف فيه هذه النظرية عن سواها ، هو أنها ترى الأغلبية الشعبية مقياساً للصواب . وهذا شيء آخر غير القول بعدم وجود صواب أو خطأ لغوى .

ومن الممكن أن يقال ، إن هذه النظرية عديدة في أساسها . إنها نظرية تقول بإحصاء عدد الرءوس التى تقول هذا ، وعدد الرءوس التى تقول ذلك . وليس لدى الباحث ، إلا أن يخضع لما تمليه هذه الأغلبية العددية . وقد يجد الإنسان في نفسه كثيراً من المعارضة في قبول هذا الاتجاه السكسى ، قبولاً على غلته . ومع ذلك فإن هذا رأى لا يختلف كثيراً ، عن رأى من يقولون بالحكم

بصواب شيء أو خطئه على أساس الشيوخ^(١). ولدينا مثلاً قول ميدفيج Medvig «إن الاستعمال اللغوي، لا يمكن أن يكون خطأ، طالما أنه معترف به اعترافاً عاماً»^(٢) وقول ساسي Sayce «إن مقياس الصواب، هو تعود المتكلمين على العبارة، واستعمالهم لها استعمالاً مطرداً. وإن ما يصح أن يطلق عليه صواب نحوي، هو ما يؤيده السلوك اللغوي لتكلمى اللغة»^(٣)، وقول سويت Sweet «إن ما يؤيده الاستعمال العام لتكلمى لغة من اللغات، هو ما يصح أن نطلق عليه اسم الصواب اللغوي»^(٤). كذلك نجد في مقال تيجنر Te. Egnér^(٥) الذي سبق به زمنه في تفسيره اللغوي إلى حد كبير، قوله «إن اللغة ليست شيئاً، سوى «موددة» تشيع في وسط من الأوساط. ومهما كان هناك من عيوب في هذه «الموددة»، فإنها هي القانون اللغوي الذي يجب مراعاته. وإن ما يشيع بين متكلمى لغة من اللغات من ألفاظ وعبارات، هو وحده أساس الصواب اللغوي. وصوت الشعب دائماً من صوت الله». ثم يقول في مكان آخر من نفس المقال «إن ما يبدو غير منطقي، من وجهة نظر التفكير المجرد، يصبح أمراً مقبولاً بمجرد شيوع استعماله اللغوي». وقد ذكر مثلاً لذلك، تسمية السويديين للحوت «سمكة» مع أن علم الأحياء، يثبت أنه ليس من الأسماك. وقد ذكرنا لك أن العربية تؤنث بعض أسماء المذكر، وليس ذلك من المنطق في شيء. كما تطلق العامية المصرية اسم «حمار» على بعض أنواع السمك، والألمانية اسم «فأر» على الخفاش.

(١) انظر ص ١٢٢.

(٢) في كتابه.

(Den, faerdige og anerkendte sprogburg fejler ikke 1857)

وفد حذف العبارة المذكورة هنا في النص الألماني لهذا الكتاب.

Introd. to the Science of Language, 11p.333 (٣)

New English Grammar. (٤)

(٥) منشورة في Ur Spräkets Värld سنة ١٩٢٢.

ومقتضى هذا الكلام ، أن نترك للاستعمال وحده تقرير الصواب والخطأ ، وأن يتفادى الباحث بقدر الإمكان ، تحكيم ذوقه الفني في هذا الشأن . وقد يكون هذا الرأي صحيحاً عندما نفكر في الباحث ، باعتباره باحثاً ولا غير . وفي هذه الحالة ، ليس له إلا أن يقوم بإحصاء درجة شيوع الظاهرة اللغوية . ولكن الباحث قد يكون في نفس الوقت ، من أبناء اللغة التي يدرسها . وهو بهذا الاعتبار يحس بالجمال والقبح الفني فيها ، وله لهذا السبب ، نفس الحق في تحكيم ذوقه ، كما أن لكل من سواه من متكلمي لغته أن يحكّم ذوقه في اختيار طريقة تعبيره . وربما كان للباحث من معرفته بلغته وأسرارها ، ما يجعل حكمه على شيء بالصواب أو الخطأ ، أكثر قبولاً من حكم سواه ، ممن لم يخالوا حظه من الثقافة اللغوية .

ويبدو من كلام نورين ، أنه يتخذ درجة الشيوع مرجعاً للحكم على تعبير ما بالصواب أو الخطأ ، حينما تتعادل الظروف التي ترجح كونه صواباً ، مع الظروف التي ترجح كونه خطأ . فلو أردنا الحكم على أي الكلمتين أفضل «صابع» أو «صابع» ووجدناهما سواء في الدلالة ، وفي النظرة الاجتماعية لمن ينطق بهما ، لكانت درجة شيوع الصيغتين هي المرجح للصواب أو الخطأ . وذلك لأن نورين يرى ، أنه كلما زاد شيوع لفظ أو عبارة ، كلما كان من اليسير فهمها وورودها على ذهن المتكلم . والعجيب أن نورين يقصر ذلك على طريقة نطق الألفاظ فحسب ، ولا يشمل حكمه هذا تركيب العبارات ، أو تصريف الكلمات ، أو غير ذلك من الظواهر اللغوية . ولسنا ندري ، على أي أساس يقصر هذا الحكم على طريقة النطق وحدها ، دون سواها من الظواهر (١) .

* * *

(١) يشبه هذا ما يقوله جوشات عن وجود التطور اللغوي في نطاق الأصوات دون سواها .

وقد ردّدنا على هذا الرأي عندما تعرضنا إليه — أنظر ص ٤٢ — ٤٣

أما وجهة النظر المنطقية ، فإنها تحكم على صواب التعبير ، بمدى مطابقتها للمقاييس العامة للتفكير المجرد . ومعنى هذا ، أن هناك مقياساً عاماً تخضع له جميع اللغات الإنسانية . ويرى أصحاب هذه النظرية أنها ، أفضل من اتخاذ الإحساس الفردى ، أو الإحساس الشعبى ، وسيلة للحكم بالصواب أو الخطأ . وليس من الصواب فى شيء ، أى لفظ أو تعبير لا يتفق والحكم المنطقى السليم . وهذه النظرية كما ترى ، تناقض مناقضة صريحة النظريات السابقة عليها .

ويعارض أكثر علماء اللغة ، فى اتخاذ المنطق المجرد مقياساً للسلوك اللغوى . وذلك لأن مصدر اللغة هو نفس الإنسان ، أكثر مما هو عقله ؛ هو أحساسه وانفعاله ، لا حكمه وقياسه . ولهذا فمن بجانب الصواب فى رأى هؤلاء اللغويين ، أن نقول عن لغة ما إنها منطقية أو غير منطقية .

وقد يبدو هذا عجيباً إلى حد يحملنا على مراودة أنفسنا قليلا ، قبل تأييد اتجاه هذه الأغلبية من اللغويين . وربما كان السبب فى رفضهم قياس الحكم المنطقى على الظواهر اللغوية ، أن الأحكام المنطقية التى استعملت بالفعل فى مجال الدراسات اللغوية ، لم تكن أحكاماً سليمة فى ذاتها ، أو أنها كانت سليمة ، ولكن لم يحسن القائلون باستعمالها تطبيقها .

ولو راجعنا ما يرفضه هؤلاء اللغويون ، من أقيسة وأحكام منطقية ، لما وجدناها ، فى حقيقة الأمر منطقاً ؛ بل قواعد اللغة اللاتينية ، تقدم فى ثوب منطقى . ولقد ظلت اللغة اللاتينية ، حيناً من الدهر ، تعتبر اللغة المثالية التى تتفق مع المنطق السليم . وقد أدى ذلك بكثير من دراسى هذه اللغة ، إلى الظن بأن القواعد اللاتينية ، هى صورة أخرى من المنطق .

ولذلك يمنع معلمو قواعد اللغة الانجليزية أن يقول « It is me » ويحتمون « It is I » باستعمال ضمير الإسناد ، وهو يناظر ضمير الرفع فى العربية .

والحق إن عبارة «It is me» الإنجليزية شائعة وسليمة . أما أساس منع هذه العبارة ، فهو قياس النحوين القواعد الإنجليزية على اللاتينية ، التي لا تجيز مثل هذا التعبير . حقيقة إن اللغة العربية تحتم أن نقول « هذا كتابي » وتمنع « هذا كتاب أنا » ، أى أنها تخصص ضميراً خاصاً للإسناد يسميه النحاة ضمير الرفع ، يختلف عن ضمير الإضافة ، الذى يسمونه ضمير الجر . ولكن المنطق لا يحتم مثل هذا الاختلاف ، بل إن الذى فرضه ، هو اللغة نفسها . ونستطيع أن نتصور لغة أخرى ، تسوى بين الضميرين . بل إن ضمير النصب فى العربية هو بذاته ضمير الجر ، كما نرى فى المثالين « كتابهم » ، « ضربتهم » . ولم يكن الاختلاف فى العلاقة المعنوية بين الضمير فى كل من الحالتين مبرراً لاختلاف صيغته ، ولهذا ترى أنه من غير السليم ، أن نجعل الاختلاف المعنوى المجرد سبب اختلاف صيغة ضمير الرفع ، عن صيغة ضمير النصب . وذلك لأن هذا الاختلاف نفسه موجود بين ضمير النصب وضمير الجر ، مع اتحادهما فى الصيغة .

إن كل ما يهدف إليه الإسناد المنطقى ، هو وجود المسند والمسند إليه ، دون اعتبار للصيغة الخاصة التى يوجدان بها . وبهذا لا يهم إن كان ضمير رفع أو ضمير نصب ، مرفوعاً أو غير مرفوع . وإن كل ما يهم المنطقى هو نسبة الأحداث أو الأوصاف للذوات ولا غير . وما دامت ياء المتكلم ، تدل على نفس الذات التى يدل عليها الضمير «أنا» فأى من هذين الضميرين ، يكفى لتحقيق الإسناد المنطقى . ولكن هل من الممكن أن تكون قضية خاطئة ، من وجهة نظر المنطق ، صواباً من وجهة النظر اللغوية ؟ !

كثير من اللغويين يردون على هذا السؤال بالإيجاب . ولقد قال بوت «Bott» « إنه لا يلزم من كون العبارة صحيحة من وجهة النظر اللغوية ، أن تكون صحيحة من وجهة النظر المنطقية . فالجمله « حاصل جمع اثنين إلى اثنين هو خمسة » صحيحة من

وجهة النظر اللغوية ، ولكنها ولا شك خطأ منطقي جسيم ^(١) . وكذلك قال بيني Benfey « لو قال قائل العبارة « حاصل جمع اثنين إلى اثنين هو خمسة » أو العبارة « إن الأسود أبيض » فإنه ولا شك يدرك الخطأ المنطقي فيما يقول ؛ ولكنه يدرك في نفس الوقت ، الصواب اللغوي لكل من هاتين العبارتين » . لقد كنت كثير المناقشة ، مع بعض اللغويين ، حول صحة مثل هذه العبارات وكانوا يجمعون على صحتها اللغوية ، وفي نفس الوقت يصرون على خطأها المنطقي . ولا شك أنهم عند ما يحكمون هذا الحكم ، يغفلون أهم وأبسط الحقائق المعروفة . ذلك أن اللغة أمر ذو جانبين ، إذا صح أن الصياغة والتركيب أحدهما ، فإن الدلالة ولا شك هي الجانب الآخر . ولهذا فإن تحقق الخطأ في الجانب الدلالي يقضي ولا شك إلى خطأ في صميم التعبير اللغوي ^(٢) .

إنه مما لا شك فيه ، أن الأجيال المتعاقبة ، التي شككت لغة من اللغات ، لم تكن أجيالا من الفلاسفة أو المفكرين . ومما لا شك فيه كذلك أن اللغة تحمل بين طياتها ما يشهد بهذه الحقيقة . وقد بلغ من تناقض اللغة مع المنطق السليم ، عند بعض الفلاسفة ، أن زعموا أن كل ما يفعله الفيلسوف ، هو وضع القضايا اللغوية الخاطئة وضعا سليما . ولكن الواقع أن الخطأ اللغوي ليس من الخطورة بحيث يفسد الطاقة التعبيرية في اللغة . وسواء أطلق على الحوت اسم « سمكة » أو اسم حيوان ، وعلى الخفاش اسم « فأر » أو اسم طائر ، فإن كل ذلك لا يحول دون الفهم الدقيق لعبارة اللغة . إن في اللغة ولا شك منطقا ، ولكنه منطق الحكم

Intern. Zeitsch.f. allgem. Spr.PI,14. (١)

Geschechte d. Sprachwiss p.10. (٢)

(٣) الخلاف كاترى بين جسر سن وبين سواء غير ذي موضوع ، فن يقصر تفكيره في اللغة على الجانب التركيبي فليس لديه خطأ ، ومن يدخل في حسابه الجانب الدلالي يقول ولا شك بوجود الخطأ .

القريب المنال ، لا منطق القضية التي تتطلب نقاشا وجدلا طويلا ، لإثبات صحتها أو خطئها . فعندما يطلق اسم من الأسماء على شيء من الأشياء ، أو يستعمل تعبير من التعبيرات ليدل على فكرة من الأفكار ، فإن الدلالة في هذه الحالة هي الدلالة السطحية — لا الفلسفية . ولولا هذه السطحية في اللغة لما كانت وسيلة جماعية للتعبير على الإطلاق .

ولدينا في العربية مثلا تمييز العدد ، وهو مفرد في الجملة « عندى مائة قطعة » ، ولدينا إلى جانبه تمييز العدد ، وهو جمع في الجملة « عندى خمس قطع » . وكان من المنطقي أن يكون التمييز جمعا في الحالتين . ولكن اللغة جعلته مفردا مع « مائة » ، وهي أكثر دلالة على الجمع من « الخمس » . وينظر ذلك في الإنجليزية « one hundred Pieces » بصيغة الجمع مع المائة . ولكن الإنجليزية نفسها تقول « five thousand » (خمسة ألف) بصيغة المفرد في التمييز ، وهي هنا تخالف العربية التي تقول (خمسة آلاف) . وهذا نوع من الاضطراب المنطقي . ولكن الذى لاشك فيه ، أنه عندما نشأت هذه التعبيرات ، كان لقائلها وجهة نظر منطقية . ولو أمكننا البحث في تاريخ نشأتها ، لوجدنا تمييز العدد من ثلاثة إلى عشرة في العربية ، قد انحدر إليها من مصدر لغوى ، يختلف عن المصدر الذى انحدر إليها منه تمييز العدد لما بعد العشرة . هذا من ناحية ، ومن ناحية أخرى ، فإن هذا الاختلاف لا يعوق التفاهم الدقيق على الإطلاق .

وإن من القواعد المنطقية ، ما يردده النحويون العرب ، دائما ، من أن « نفى النفى إثبات » . ولهذا فأنهم يقولون في مثل العبارة « ما أنت بالرجل الذى لا يطعمان إليه » بأن الحكم فيها ثابت للحكموم عليه ، وليس منفيًا عنه . ولكن لو جاء نحوى آخر ، يطبق هذه القاعدة المنطقية بحرفيتها في قول الشاعر :

لا لأبوح بحب بثنة إنهما أخذت على موافقا وعهودا

فيقول بأن الشاعر سيبوح بحبها لأنه نفى النفى ، فذلك إساءة لتطبيق

(م — ٩ اللغة بين الفرد والجمع)

المنطقية . وسبب ذلك أن اللغة ، ليست كالرياضة . فكل (- = - +) في العمليات الرياضية ، ولكنها ليست دائماً كذلك في العمليات اللغوية ، كما رأيت في البيت السابق ^(١) وذلك لأن الجانب النفسى ، لا وجود له في الرياضة ، بينما هو من الأسس اللغوية الهامة .

ولهذا يقال في البيت ، إن تكرار النفى لم يكن لإنتاج إثبات ، بل كان لتأكيد النفى . ولكننا لا يمكن أن نقول إن (- = -) وذلك لأن (-) الأولى هي لتأكيد (-) الثانية .

إن من المنطق السليم أن نستعمل الأحكام المنطقية في اللغة إستعمالاً خاصاً يختلف عن استعمالها في التفكير المجرد . ومعنى هذا أننا نقول ، بتدخل الحكم المنطقي عندما نحكم بصواب أو بخطأ ، بشرط أن يكون استعمال المنطق ، مقيداً بمراعاة الظروف النفسية والاجتماعية ، التي تتدخل في تشكيل التعبير اللغوى ^(٢)

* * *

وأخيراً نتحدث عن المستوى الذوقى ، للحكم بالصواب أو الخطأ اللغوى . ومقتضى قول القائلين بهذا رأى ، أن تكون اللغة السليمة ، هي التي تصل إلى المستوى الذى يملئنا إحساسنا الفنى باللغة . وبهذا تكون اللغة السليمة هي لغة الشعر أو النثر الفنى فحسب . وكثيراً ما يحدث ، عندما نحكم شخصاً ما فى اختيار أصح عبارتين ، أن يلفظ كلا منهما ، أو أن يفكر فى أيهما ، أحسن وقعا وأجمل جرسا ، ثم يصدر حكمه بناء على تذوقه لنواحي الجمال أو القبح فى كل

(١) نفترض أن العلامة الرياضية (ناقص) تتساوى فى دلالتها مع النفى فى اللغة .
(٢) يؤخذ من هذا أن المؤلف لا يقول بتطبيق المنطق ، بالمعنى المعروف ، للحكم بالصواب أو الخطأ . إنه فى الواقع يقول بالمنطق الخاص باللغة ذاتها . وليس هذا بعيداً عما نقول المدرسة اللغوية الحديثة .

منهما . وقد يقول « ليس لهذه العبارة جمال الجرس التي لتلك » أو « ليس لها حلاوة الصياغة التي للأخرى » أو غير ذلك ، مما يشعر باعتماده في حكمه على تذوقه الشخصي لأسلوب ، أو دلالة ، كل من العبارتين . ولكن إذا ناقشته ، في أسباب ضعف العبارة التي رفضها ، فإنه قد لا يستطيع أن يحدد لك خطأ فيها . وكثيراً ما يكون مثل هذا الحكم ، لا يعتمد على أساس علمي سليم ، بل إنه ليس أكثر من تفضيل مثل هذا الشخص ، لما ألفه هو من الأساليب ، ولما اعتاده من ألفاظ . ومن الواضح أن مثل هذا الحكم لا يصلح أساساً لتمييز الخطأ اللغوي ، من الصواب اللغوي ؛ فقد تكون بعض الكلمات التي يمكن الحكم عليها بجمال الجرس ، من الكلمات التي لا يتداولها الاستعمال الصحيح . ولديك مثلاً الكلمة المصرية « محبوب » للشخص المرح ، وهي في رأي كلمة حسنة الإيقاع ، مناسبة في جرسها للدلالة التي تدل عليها . ولكنها بالرغم من ذلك ، لاحظ لها من الصواب اللغوي ، التي نصف به نظيرتها في الدلالة « مرح » . وقد توجد كلمتان ، أو عبارتان ، يحكم لكل منهما بالصواب ، ولكننا أكثر استساعة لأحدهما دون الأخرى . ومثال ذلك « تسكاً كأ عليه » و « تجمع حوله » . وبالرغم من اتحاد المعنى بينهما وتساويهما في كونهما من الصواب اللغوي ، إلا أننا نفضل التعبير بالثانية ، عن التعبير بالأولى .

وهكذا نجد أن اللجوء للتذوق ، في الحكم على الصواب أو الخطأ ليس أساساً سليماً .

والآن وقد استعرضنا المستويات التي تقيس جمهرة المتكلمين ، على أساس من بلوغها أو البعد عنها ، صحة عبارة أو خطأها ، يبدو لنا أننا بعد كل هذه الدورة التي طالت بنا ، لم نصبح أقرب إلى معرفة مقياس الصواب والخطأ اللغوي مما كنا .

والحق أن واحداً من هذه المقاييس السبعة التي سردناها وناقشناها ، لا يصلح أن يكون أساساً علمياً دقيقاً يطمئن إليه الباحث اللغوى .

وقد رأينا كيف أن جهات الاختصاص اللغوى كالمجامع ومعاهد الدراسات اللغوية ، ليست وحدها صاحبة القول الفصل في الأمور اللغوية . وقد رأينا كذلك أن كاتباً ، أو جماعة من الكتاب ، لا يصلح أن يكون الحكم الأول والأخير في الصواب اللغوى . وليس هذا الحكم من حق الطبقة الارستقراطية وحدها ، أو من حق الطبقة المتوسطة أو الدنيا . كما أن المنطق أو الذوق الفنى ، ليس أحسن حظاً من كل ماسبق من مقاييس .

ولكن هل معنى هذا ، أننا انتهينا إلى نتيجة سلبية بعد كل هذا البحث الطويل ؟!؟ هل نحن نقول بأنه لا يوجد مقياس ثابت للصواب أو الخطأ اللغوى ؟!؟ الواقع أنه بالرغم من كل ذلك ، يمكننا أن نقول بوجود هذا المقياس ، إذا أدخلناه في حسابنا ما قلناه من قبل عن حقيقة اللغة .

وسترى في الفصل القادم كيف يستقيم لنا مثل هذا المقياس اللغوى .

الفصل السادس

الصواب اللغوي

عندما نقول بأن هذه العبارة صحيحة ، وأن تلك خاطئة ، فإن ذلك يستلزم ضمناً وجود قاعدة من نوع خاص ، تفرضها الجماعة اللغوية . وليست القاعدة أمراً خاصاً بالسلوك اللغوي ، فإن وجود قواعد تحكم السلوك الاجتماعي الإنساني ، من الأمور المسلم بها .

وتبعاً للظروف الاجتماعية المختلفة ، يختلف سلوكنا الاجتماعي . فعندما نلقى صديقاً من الأصدقاء ، فإن من قواعد السلوك السليم أن نبسم . ولكننا عندما نسير في جنازة من الجنائزات ، لانستطيع أن نسلك نفس السلوك ، فتفتر شفاهنا بالابتسام . إن العرف الاجتماعي الذي قبل الابتسام في الحالة الأولى ، هو الذي يرفضه في الحالة الثانية . والقاعدة السلوكية ، هي الحكم بقبول سلوك معين ، أو رفضه ، تبعاً لما يقضى به العرف الجماعي . والسلوك اللغوي كذلك محكوم بقواعد ولكن هذه القواعد أكثر تعقيداً ، من قواعد السلوك الأخرى .

ويمكننا تعريف الصواب اللغوي بأنه « الكلام المتفق مع ما يتطلبه العرف اللغوي للجماعة اللغوية التي ينتمى إليها المتكلم » ويؤخذ من هذا ضمناً ، أن الخطأ هو ما يخالف هذا العرف الجماعي . وسنحاول الآن أن نوضح ما يتميز به هذا التعريف للصواب والخطأ عن المقاييس السبعة التي عرضنا إليها في الفصل السابق .

* * *

إن أول ما يمكن أن نتفق عليه ، هو أن الصواب ليس مجرد كون الكلام

صالحاً للإفهام . لأن الإفهام أمر قد يتحقق دون تحقق الصواب اللغوي . ولوفرز
أن قلت « التام عليكم » كما ينطق الشخص الذي يلسانه لغة ، لأمكن لك الفهم .
ولكن هذا الكلام مع ذلك لا يوصف بالصحة من ناحية نطقه على الأقل . كذلك
قد يتكلم اللغة بعض الغرباء عنها ، ويستطيعون بها أن يتفاهموا مع سواهم من
أبنائها ، بالرغم من أن ما يقولون مليء بالأخطاء ، في نطق الألفاظ وتركيب
العبارات .

وقد يقول قائل إن اتخاذ العرف اللغوي للجماعة ، أساساً للصواب والخطأ ،
لا يفتقر كثيراً ، عما يقوله من يرون أن شيوع استعمال عبارة من العبارات
هو الأساس الذي يتخذ للحكم على صوابها^(١) . والحق أن هناك فرقاً بين رأينا
وبين هذا القول .

فأولاً : إن عبارة « الاستعمال » عبارة عامة غير محددة ، ونحن هنا نقيّد الصواب
بعرف الجماعة اللغوية ، والجماعة اللغوية ثابتة ومحدودة

وثانياً : يمتاز هذا الرأي عن سواه ، بعدم افتراض سلطة عليا يخضع لها الأفراد
في نشاطهم اللغوي . وقد سبق لك أن بعض الآراء يتخذ جهات الاختصاص
أو الاستعمال اللغوي عند بعض الكتاب الخ ، مقاييس ، يتبعها المتكلم حين يريد
انتهاج الصواب في لغته . ومثل هذا الرأي يناقض ما ذكرنا من قبل من أن للفرد
مكاتبته المستقلة المعتبرة ، في كل نشاط لغوي . وكيف يتفق هذا الاستقلال ، وما
نفرسه عليه من التزام سلوك خاص ، حتى يكتب ما يقول أو ما يكتب ، صفة
الصواب ! ونحن عندما ندخل عنصر الجماعة اللغوية في تعريفنا ، تتفادى هذا
التناقض . وقد رأينا أن القول بالجماعة اللغوية لا ينفى على الإطلاق ذاتية الفرد ، لأن

(١) أنظر ص ١٢٢ — ١٢٥ .

الجماعة لدينا ليست سوى مجموعة من الأفراد . ولما كان الفرد مكوناً للجماعة ، كان ماتفرضه الجماعة من اصطلاح لغوى ، نتيجة للنشاط اللغوى للفرد نفسه إلى حد ما . ولو فرض أن قال الشخص عبارة لا تتفق والعرف اللغوى للجماعة التى ينتمى إليها ، فليس ذلك خطأ فى ذاته ، بل باعتباره أمراً خارجاً على المؤلف . وقد يحدث بعد حين أن يسود هذا القول بين الجماعة ، فيكون القاعدة ، التى يمكن الحكم بها على الصواب اللغوى فيها بعد .

إن هذا رأى الذى نقول به لا يجعل الفرد عبداً فى سلوكه اللغوى لجهة من جهات الاختصاص ، أولاديب أو جماعة من الأدباء ، أوحتى للجماعة اللغوية ذاتها . والحق أن علاقة الفرد بالجماعة ، هى كعلاقة كل من الفريقين فى لعبة « شد الحبل » بالفريق الآخر . هذا يجذب ذاك مرة ، ثم ذاك يجذب هذا إليه مرة تالية . ومثل هذا النوع من التفاعل المتبادل هو ما يحدث بين الفرد وبين جماعته اللغوية . ونحن حين ننفي عبودية الفرد لجماعته اللغوية ، لا نفترض له حرية مطلقة لا قيود لها . وقد رأينا من قبل كيف أن حرية الفرد اللغوية ، مقيدة بالجماعة ، حيث أنه لابد من تحقق عنصر الإفهام وهو أمر جماعى ^(١) . ونقول هنا الآن إن الصواب اللغوى كذلك مقيد بالجماعة ، حيث أنه يعتمد على مدى اعتراف الجماعة ، أو رفضها ، لابتكار الفرد اللغوى . وهكذا فإنه بالرغم من أن للفرد حرية الشخصية ، فإن عليه كذلك واجباته الجماعية .

وكأن الفرد لا يتمتع بحرية كاملة فى سلوكه اللغوى ، فإن الجماعة كذلك لا تفرض عليها سيطرتها كاملة . وذلك لأن الأمور المقررة فى اللغة تقرر آنهائياً ، قليلة ومحدودة ، ثم هى إلى جانب ذلك ليست مما يلجأ الفرد إلى المخالفة فيه . فمثلاً

وضع الفاعل بالنسبة للفعل في الجملة المصرية من الأمور الجوهرية ، حيث يتحتم تقديمه على الفعل ، ولو تأخر لأوهم ذلك كونه مفعولاً ، لا فاعلاً . ونحن نقول « **مَحَمَّدٌ ضَرَبَ** » حين يكون محمد ضارباً ، ونقول « **ضَرَبَ مُحَمَّدٌ** » حين يكون شخص آخر قد ضرب محمداً . وليس هذا مما يسمح الفرد لنفسه فيه بالتجديد أو الابتكار . أما مجال الابتكار الفردي ، فالأمور الاختيارية في اللغة ، كاستعمال لفظ مكان لفظ مرادفه ، أو صيغة مكان صيغة تؤدي وظيفتها ، أو تركيب عبارة مكان طريقة أخرى لتركيبها . ومنذ أيام قليلة سمعت سيده تقول « **أَنَا مُسْتَعِدَّةٌ** » .. بينما يقول سواها من السيدات « **أَنَا مُسْتَعِدَّةٌ** » . كذلك يوجد في مصر من يستعمل لجمع كلمة « ولد » صيغة « **فَعَال** » فيقول « **وِلَاد** » ولكن هناك أيضاً من يقول « **أولاد** » . كما نسمع في تعريف جمع ولد كلمة « **الأولاد** » ، « **الولاد** » ، « **لِولاد** » . وهناك من يضع العبارة « **أبوك فين** » هذا الوضع « **فين أبوك** » . ولكن إذا صح أن للمتكلم في الأمثلة المذكورة هذا الاختيار ، فليس له أن يقول بالمصرية « **أنا مستعدة** » أو « **ولدان** » أو « **فين أبو إنت** » بدلا من التعبير بالألفاظ والصيغ المذكورة ، حيث أن الأوضاع اللغوية بالنسبة لها قد استقرت على أحد الأشكال التي عرضتها عليك .

وكثيراً ما يتحدث الكتاب عن تحكم الاستعمال اللغوي في أبناء اللغة . ولا شك أن كل الظواهر الاجتماعية ، واللغة من بينها ، يمكن أن توصف بالتحكم . ولا يعني تحكم الجماعة ، حين تفرض قواعدها السلوكية ، أن ما تقضي به هذه القواعد متميز لذاته عن سواء من أنواع السلوك الأخرى . فنحن حين نقبل عرف الجماعة في مصر ، بالتسليم على الناس باليد اليمنى ، لا يعني ذلك أن اليد اليسرى في ذاتها أقل شأنًا من اليمنى . ومن الناحية اللغوية نقول للبدء بالتحية في مصر « **السلام عليكم** » ونقول للرد عليها « **عليكم السلام** » ، ولكن ليس معنى

ذلك أن « عليكم السلام » أقل أو أكثر ميزة ، من « السلام عليكم » التي بها نبدأ . إن العرف الجماعي لا يقوم على أساس أفضلية عمل على عمل ، أو حديث على حديث ، بل هو مجرد قبول لما تجرى عليه العادة . وربما نجد في أنفسنا رغبة في الخروج على هذا العرف الجماعي ، لغوياً ، وغير لغوى . ولقد عبر عن مثل هذه الرغبة الكاتب ن . م . بيترسن N. M. Petersen^(١) ، بقوله « كيف يستطيع الألعى ، الذي تتميز به طاقته على الابتكار في اللغة والتجديد في أساليبها ، أن يقبل التعبير بعبارة لا يتدخل فيها ذكاؤه وألميته بالتجديد والإبداع ؟! » . ولكن من يشور على الأوضاع اللغوية المقررة يصطدم ولاشك بقوتها الجبارة ، التي عبر عنها النحوى الدينمركى العظيم هويسجارارد Hojsgaard ، بقوله « إن الاستعمال اللغوى مارداً عنيف ، تزداد قوته بازدياد عمره » .

وكثيراً ما يتساءل الناس ، ولكن هل من المرغوب فيه أن تحتفظ ببعض الأمور المتناقضة كاختلاف الهجاء مع نطق الكلمات ، لمجرد أن هذه الأمور قديمة ومعمره ؟! وهل من المرغوب فيه أيضاً أن تحتفظ في النحو العربى بما يقارب ثلاثين صيغة في جمع التكسير ، وفي القاموس العربى بمائة اسم للأسد ، لمجرد أن هذه الصيغ والألفاظ قد مضى على الاعتراف بها حين من الدهر طويل ؟! إن مثل هذا الإحساس ، هو فى رأى طليعة القافلة . وسيأتى على أثره ولاشك تغيير طبيعى ، غير مصنوع ، لهذه الأوضاع التي هى منا فى محل الثورة والاعتراض . إن فى النشاط اللغوى قوتين ، تدفع إحداها لاحتزام القاعدة ، وتدفع الأخرى لنسكرائها والخروج عليها^(٢) . وسأقتبس لك عبارتين من قول كاتبين معروفين ، توضحان لك ما أعنيه بالقوة الاجتماعية ، فى التعبير اللغوى .

(١) Samlede ofhandling 1 V, p. 133.

(٢) عالـج هاتين التـرعتين فى محيط الدراسات الأدبية الأستاذ : J. L. Lowes فى كتابه :

Convention and Revolt in Poetry المطبوع فى ليدن سنة ١٩١٩ .

أما أولاهما ، فمقتطفات من محاضرات جورج براندس Goerg Brandes ،
 التي هاجم فيها « الجماعة » هجوماً عنيفاً أثار ضجة بين ذوى رأى . ومن رأيه ،
 أن الجماعة الإنسانية ليست سوى عدد من الوحوش ذات السطوة ، وعدد آخر من
 القردة المقلدين ، وعدد ثالث ، هو الأغلبية الساحقة ، من الأغبياء ، وأن القول بفكرة
 الجماعة هو تعميم ، يعيبه أول ما يعيبه أنه يتناسى الفروق الفردية ، وهو بذلك
 يغفل كثيراً من الخصائص المميزة للأفراد الذين يكونون الجماعة . ثم يستطرد من
 هذه الفكرة إلى تفصيلها فيقول « إن عملية التعميم هذه لا تهتم إلا بمسح الحقائق
 الفردية مسحاً يصحبها في قوالب متشابهة . واللغة مثال لهذا التعميم المريب . وذلك
 لأننا مهما اختلفت أمتجتنا وأفكارنا ، نستعمل نفس الألفاظ وبفهم الطريقة .
 ولو فرض أن كان أحدنا عبقرى العقل أو عبقرى الشعور ، فإنه لن يستطيع أن
 يعبر عن أفكاره الممتازة وعن شعوره الفريد ، إلا بنفس الألفاظ والتراكيب ،
 وبفهم الدلالات ، التي يستعملها السوق والجهلاء ومحدودو الذكاء . وهكذا تكون
 اللغة لدى مثل هذا الشخص قييداً لأفكاره منه . إنه لا يستطيع أن يتذكر أسلوباً
 وألفاظاً وتراكيب خاصة يعبر بها عن أفكاره وأحاسيسه التي لا يشاركه فيها أحد
 سواه . وكثيراً ما تحملنا دلالة الألفاظ ذاتها ، على المغالاة في الوقت الذي لا يزيد
 فيه المغالاة ، أو التصور عن المبالغة حينما يزيد المبالغة . إن عيب اللغة ، أنها قد
 تهيبت للفرد دون أن يتدخل الفرد في تكوينها ، فهو وارث لخالق لها . ولهذا
 لا يهيباً له أن يجد الوسيلة المناسبة للتعبير عن شعوره الفريد الذي لا يشاركه فيه سواه .
 إن التعبير اللغوي لا يبدو أن يكون مجرد دلالة تقريبية لما تفكر ونحس . ولهذا نجد من
 الكتاب المبرزين من يحاول أن يتذكر لنفسه ألفاظاً وأساليب ، تكسب عباراته
 ذاتية خاصة . ولعل أعظم ما يعاب على جميع الأمور الاجتماعية هذا الجانب الجمعي
 فيها ، الذي يقضى على التميز الفردي ، ويطلع الجميع بصورة متقاربة ، مهما اختلفت
 بهم الفروق . »

وأما ثانيتهما ، فقول شيلر Schiller :

« حسبت نفسك شاعراً مبدعاً .

وما أبدعت بل أبدعت لك لقتك .

أفكارك ميراث منها .

وعباراتك لم تجمل إلا بأساليبها .

وهذه ليست من صنع يديك » .

لقد قال شيلر هذا لبعض النظاميين ، الذين يدرون ألسنتهم ، بالعبارات المتوارثة المحفوظة . ولكن هذا القول ، على كل حال ، تعبير واضح عن قيمة اللغة ، ومدى استعانة الفرد بما تخلفه له الأجيال فيها من ذخيرة ثقافية غنية . ومنذ طفولة الطفل حتى رجولة الرجل ، أو شيخوخة الشيخ ، تتراكم في وعاءيته ، ثروة لا ينقطع مددها من صيغ وعبارات وأفكار . وبهذه الثروة يفكر ، وعلى ضوء منها يتدع ماشاء له فنه وذوقه .

إن ما يتقاه الفرد من جماعته اللغوية من تراث فكري ولغوي ، تزداد قيمته كلما كانت العادة اللغوية أكثر استقراراً وثباتاً . ومن الأمثلة التي توضح لك ذلك الاصطلاحات العلمية . فكما تحددت اللفظة التي تعبر عن نظرية من النظريات أو مذهب من المذاهب ، كلما كان من اليسير ، الحديث والتفاهم حول هذه النظرية . فاولاً أن كلمة « الفاعل » قد تخصصت للمعنى النحوي المعروف ، دون سواها من الكلمات التي تشبهها في الدلالة ، لما أمكن في سهولة الحديث ، والمناقشة في مختلف نقاط الموضوع المسمى بهذا الاسم . وتصور معي أنه قد ترك لكل كاتب نحوي ، حرية التعبير بلفظ يشبه الدلالة بلفظ الفاعل ، فقال نحوي عنه « المحدث » وقال آخر « العامل » وقال ثالث « المؤثر » ، وكلها أسماء لها دلالة كلمة « فاعل » القاموسية ، هل ترى لو ترك للنحاة مثل هذه الحرية ، يكون من السهل علينا فهم

حديثهم بنفس السهولة التي نفهم بها اليوم . إن زعة استقرار التعبير وتخصيصه زعة لغوية ذات قيمة عظمى مهما يؤخذ عليها من عيوب . وقد يهز بعضنا كتفيه استهتاراً بمثل العبارة « أتعهد أنا الموقع فيه أدناه بأن .. » أو سواها من العبارات الثابتة التقليدية . ولكن مثل هذه العبارات عظيمة الفائدة في الدائرة الاجتماعية التي توجد فيها . وذلك لأنها قد اكتسبت دلالة خاصة تعارف عليها أفراد هذه الدائرة الاجتماعية من ناحية ، ولأنها من ناحية أخرى توفر مجهود الابتكار الفردي ، الذي قد لا يتأتى دقيقاً بمحدد الدلالة إلا لعدد قليل من الناس .

وما يقال عن مثل هذه العبارات ، يقال عن الهجاء الذي لا يمثل النطق تمثيلاً دقيقاً . فطالما كانت طريقة هجاء كل كلمة مستقرة وثابتة ، فإن تمثيلها للنطق ، أو عدم تمثيلها له ، أمر لا يقدم ولا يؤخر .

وهذا النوع من الاستقرار والثبات ، يجب ألا يبعد إلى حدود التطرف . ولذلك فنحن لا نؤيد من يغالى في التمسك بالصيغة أو العبارة المتعارف عليها . ومن هذا النوع من المغالين ، فئة تصادفها في حياتنا المصرية ، من هؤلاء الذين يتشبهون بالنصوص القاموسية المنقرضة لمجرد وجودها في أحد المعاجم ، أو هؤلاء يتمسكون بطريقة خاصة للكتابة الهجائية ، لمجرد أنها هي الطريقة التي توارث عليها الاصطلاح . ونتيجة هذا النوع من التشبث ، لو تهيا هؤلاء أن يفرضوه على الناس ، أن تبتعد لغة الكتابة قليلاً قليلاً ، عن الحياة العامة ، حتى تصبح هذه اللغة ، بعد عدة أجيال عظيمة الصعوبة على الناشئين . إن التطور والتغير في اللغة ، من الأمور التي لا يمكن منها فكاك . ولهذا فلو فرض أن تمسكنا بشكليات من الشكليات ، فسنجد أنفسنا بعد حين متخلفين عن هذا التطور . ومن ثم نجد أنه من اللازم أن نحاول أن نلزم جانب المرونة التي لا تجمد حتى تكسر ولا تلبس حتى تعصر ، على حد تعبير الحكمة العربية . ومثل هذا الحد الوسط لا يتنكر للقديم ولا للجديد

بل هو يعترف بها كليهما ، عنصرين هامين يحيطان بحاضرنا اللغوى .

وقد يكون من المسلم به وجود كثير من النقص فى طريقة الكتابة الهجائية الشائعة . وقد تكون هذه الكتابة غير مناسبة ، وغير متمشية مع تاريخ اللغة التى تمثلها ، ولكننا بالرغم مما نعيب عليها ، نتمسك بها ، فهى الطريق الذى عبده التراث الذى خلفه لنا ماضينا اللغوى . ولن نستطيع أن نستغنى فجأة عن الكتب القديمة والحديثة المدونة بالطريقة الهجائية التى نعيبها . ومثل هذا يضطر العلماء إلى استعمال الاصطلاحات العلمية التى يعيونها ، لأنهم لا يستطيعون الاستغناء عنها ، قبل أن يشيع استعمال سواها مما هو أكثر قبولا منها . إن اللغة شركة بيننا وبين أبناء جماعتنا اللغوية ، ولا بد لنا منها علت أفهامنا وارتقت عن مستوى بقية أفراد الجماعة ، أن تقبل هذه الشركة على علاقتها . ولولا ذلك لما استطعنا أن نتبادل وإياهم علاقاتنا الاجتماعية التى لا يمكننا أن نستغنى عنها . إن ما تتطلبه هذه العلاقة الاجتماعية ، بين الفرد وأبناء جماعته ، من تضحية لبعض ما يتميز به ، أمر معقول وضرورى لا يمس جميع أفراد الجماعة اللغوية ، لأن الغالبية العظمى منهم ليسوا من ذوى الابتكار والتجديد . ولا يعدو نشاطهم اللغوى أن يكون إعادة وتكرارا لنشاط غيرهم . ولقد صدق قول لويل Lowell « قد تكون عبقرية الإنسان فى أنه يستطيع الاحتفاظ بما يلقى إليه من سواه من أبناء الماضى والحاضر ، أكثر مما هى فى استطاعته للتجديد والإبداع . ولو تميز الإبداع والابتكار بالطرافة والجدة ، فإن فى الاحتفاظ بالتراث الثقافى الإنسانى ، الميزة الهامة التى تعلق بالإنسان عن مرتبة العجاوات » .

* * *

والآن ما هى هذه اللغة ؟! أى قيود وعقبات تعترض طريق أصحاب العقول الممتازة ، وتربطهم بالمستوى الشعبى غير الرفيع ؟؟ أم هى عصى العاجز ، تعين قدميه

السكيلتين على غنت الطريق ؟؟ . أم هي بالنسبة لسكل منا قيد يعوق ذات مرة ، وعصى تعينه على السير مرة أخرى ؟؟ إن استعمال الفرد للكلامه ، يتموج مستواه ، فهو يعلو به مرة للتعبير عن المعاني الدقيقة والأحاسيس الغامضة ، ومرة يهبط به إلى الحديث العابر عن حاجاته المادية . هو مرة تعبیر الشاعر ، ومرة تعبیر المطبخ . وبين هذين المجالين ، ما ارتفع منهما وما انخفض ، يهبط كل منا ويعلو ، مهما بلغ مستواه العقلي من ارتفاع أو ضعة .

ومن هنا نرى أن هناك مجالين للتعبير اللغوى . لدى كل فرد من الأفراد . ويتدرج التعبير فى كل من هذين المجالين ارتفاعاً وانحطاطاً . ومن أجل هذا نرى أن نعين هذا التدرج بمجموعة من الأوصاف نطلق كل وصف منها على درجة من الدرجات التى يصل إليها التعبير فى كل من المجالين .

فأما المجموعة الأولى من الأوصاف ، التى تعين درجات المجال العادى للتعبير فهى ، شائع ، سهل ، سطحي ، ممل ، غير محتمل . ويمكن أن نصف بأحد هذه الأوصاف الكلام الذى تتداوله فى حياتنا العملية .

وأما المجموعة الثانية من الأوصاف ، التى تعين درجات المجال الممتاز للتعبير فهى ، غير عادى ، جديد ، مبتكر ، عبقرى ، مغال ، مخرف . وبواحد من هذه الأوصاف ، نصف الكلام الذى تتداوله فى التعبير عن حياتنا العقلية والنفسية .

* * *

تحدثنا الآن عن المجالين الذين يتراوح بينهما التعبير اللغوى . وإلى جانب هذين المجالين نميز بين درجات من الصحة اللغوية نطلق على اللغة باعتبارها عبارات « اللغة المفهمة » و « اللغة الصحيحة » و « اللغة البليغة » . ولا تتطلب من « اللغة المفهمة » أكثر من أن تكون مجرد أداة للإفهام فى أدنى درجاته .

ومن بعدها تجيء « اللغة الصحيحة » وهي درجة أعلى من مجرد كونها أداة للإفهام . وهناك إلى جانب هاتين ما يمكن أن نطلق عليه « اللغة البليغة ^(١) » وهي درجة تعلق على مجرد الصحة اللغوية . وقد يعترض معترض على هذا النوع من التقسيم ، بحجة أن الأمر إما أن يكون صحيحاً أو غير صحيح ، ولا ثالث لهماذين الاحتمالين . ولكننا في الحقيقة نتحدث عن درجات من الإجابة في التعبير ، لا عن تقسيم منطقي إلى صحيح وغير صحيح ^(٢) . ولو قال أجنبي « أنا عربية في البيت بتاعى » (يقصد بذلك « عربى في المنزل ») لما كان قوله مستكملاً لعنصر الإفهام ، ولكان من غير الممكن أن يكون قوله قد بلغ مستوى « اللغة الفهمية » . ولكنه لو قال « عربية بتاع أنا في البيت » لاستكمل هذا القول عنصر الإفهام ، دون أن يصل إلى مستوى « اللغة الصحيحة » . وذلك لأن العرف اللغوي يقتضى أن يقول « العربية بتاعى » أو « عربيتى » . ثم انظر إلى العبارة ، « سمعنا صوت الحمامة وهي تغنى في عشها كعادتها وقت الأصيل » وقارنها بقول أبي العلاء :

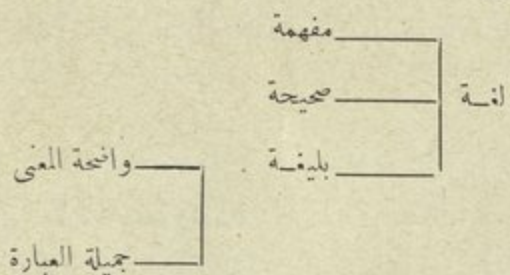
وغنت لفا في دار سابور قينة من الورق مطرب الأصائل مئبال
لاشك أن العبارة صحيحة ومفهومة ، وأن البيت كذلك صحيح ومفهوم . ولكن هناك فرقاً ، بين المستوى التعبيري الذي تصل إليه العبارة ، والمستوى الذي يصل

(١) ليست البلاغة هنا بالمعنى المعروف في كتب البلاغة . ولكنها تمثل درجة مرتفعة من درجات الإجابة في التعبير ولا أكثر .

(٢) يمكن بالرغم من هذا ، أن نقول بوجود قسم آخر ليس بصواب ولا خطأ . وذلك لأن الجماعة اللغوية قد لا تصل إلى تحديد قاعدة في كل حالة من الحالات . ولذلك نرى أحياناً الاختلاف بين من يقول بصحة عبارة ، ومن يقول بعدم صحتها ، مع أنهما من أبناء جماعة لغوية واحدة . ولذلك مثلاً في اللغة المصرية كلمة حياة (أى حبة) وهي من الكلمات التي قد لا نجد أجمعاً على صوابها أو على خطئها .

إليه البيت. ولو اكتفينا في دراستنا بالتفريق بين الصحيح وغير الصحيح ، لأغفلنا شطراً كبيراً من الفروق التي من حقها على الباحث أن تعتبر . والتعبير الصحيح ، هو التعبير الذي يصل إلى الحد الأدنى الذي يتطلبه العرف اللغوي . أما التعبير البليغ فيتجاوز هذا الحد الأدنى إلى أفق آخر . والبلاغة تصل إلى مستويات تختلف درجة ارتفاعها عن مجرد الصواب . ولذلك يتحتم علينا ألا نكتفى بأن نصف العبارة بالبلاغة محسب ، بل علينا أن نحدد إلى جانب ذلك درجة بلاغتها ^(١) .

ولكن لماذا نصف بيت أبي العلاء السابق ، بأنه أبلغ من العبارة التي قارناه بها؟؟ إننا حين نحكم مثل هذا الحكم ندخل في حسابنا اعتبارين هامين ، هما وضوح المعنى — وهو أمر عقلى يتعلق بسهولة الإدراك أو عدم سهولته ، وجمال التعبير — وهو أمر ذوقى يتعلق بالإحساس والعاطفة ، اللتين يثيرهما التعبير في نفس السامع أو القارئ . ويمكن أن نصور ما ذكرنا عن هذه الأقسام في هذا الشكل :



وكثيراً ما تكون العبارة مفهومة وصحيحة، ولكنها في نفس الوقت لا تكون واضحة أو جميلة . وقد تكون واضحة غير جميلة ، أو جميلة غير واضحة . وعندما نتكلم عن وضوح العبارة أو جمالها ، نجاوئ في الواقع موضوع الصواب والخطأ ، إلى

(١) راجع ما ذكرنا عن مجال التعبير اللغوي والأوصاف التي يمكن أن تطلق على الدرجات

علم « الأسلوب » ، وسنعرض عرضاً خفيفاً للأسلوب ، بالرغم من خروجه عن موضوع حديثنا .

* * *

يتحتم علينا عند ما نعالج موضوع الأسلوب ، أن ندخل في حسابنا ، عبارة تجنير المشهورة ، التي قالت بأن التعبير الصحيح هو ما سهل قوله وإدراكه ^(١) . ولكن الأسلوب لا يتعرض في الواقع لمدى السهولة أو الصعوبة بالنسبة للمتكلم والسامع ، بل يقتصر على ذلك بالنسبة للسامع وحده . وسواء كان التعبير سهلاً في وروده على خاطر المتكلم أو الكاتب ، أو صعباً ، فإنه يكون تعبيراً بائعاً للأسلوب ، طالما استوفى عنصرى البلاغة ، وهما وضوح المعنى وجمال التركيب . ولا تقتصر عناصر الأسلوب ، على ما نعرفه عليه المؤلفون في هذا الصدد ، من اختيار الألفاظ والتركيب ، بل يمتد إلى طريقة نطقها ووقعها السمعى .

لقد عالج هربرت سبنسر Herbert Spencer في مقاله المشهور « فلسفة الأسلوب » هذا الموضوع ، من وجهة نظر يمكن أن تسمى « الجهد المبذول » . وقد رأى أن أهمية تخير الألفاظ ، ووضعها بالنسبة لبعضها البعض ، وبناء الجملة ، وغير ذلك من الأمور الأسلوبية ، تنحصر في أنها توفر الجهد العقلى الذى يبذله القارئ أو السامع . والأسلوب البليغ بناء على ذلك ، هو الذى لا يستلزم من السامع ، أو القارئ ، مجهوداً ضخماً لحصر انتباهه فيما يقرأ أو يسمع ، حتى يصل إلى ما يراد به من أفكار وآراء . ولقد كان سبنسر يدرك أن مقاله لا يجمع كل أطراف القضية ، بل جزءاً منها .

والواقع أن سبنسر لم يختار عنوان مقاله هذا بنفسه ، فقد كان عنوانه

(١) انظر ص ١٠١ وما بعدها .

أولاً « قوة التعبير ^(١) » .

وقد كان و. ليبي W. Libby ^(٢) على حق حين خالفه فيما قال . وعند ليبي « أن مدى الجهد الذى يبذله القارىء ، ليس هو الذى يحدد كون الأسلوب جيداً أو غير جيد ، وأن المهم هو مدى قدرة الكاتب أو المتكلم على الاحتفاظ بانتباه القارىء والسامع . وعلى هذا فليس مقياس الجودة ، هو الحد الأدنى لجهد القارىء والسامع ، بل الحد الأقصى لاهتمامهما » .

وقول كل من سبنسر وليبي ، يدخل فى نطاق ما نسميه « الطاقة الانموية » ، وهى أمر جامع للجهد الذى يبذله كل من السامع أو المتكلم (أو القارىء والكاتب) ، سواء كان بذل هذا الجهد عن طريق جاذبية ما يقرأ ، أو عن طريق رغبته فى فهم ما يقرأ ولو كان غير جذاب .

وهكذا نرى كلا من الرأيين يكمل رأى الآخر . إن أحد الرأيين يعالج « دقة الفكرة ووضوحها » ، بينما يعالج ثانيهما « قوة جاذبيتها » ؛ وقوة الجاذبية تسكمل دقة الفكرة عندما نحكم على أسلوب من الأساليب . وقد تتعارض دقة الفكرة مع قوة جاذبيتها . فكثيراً ما يكون سبب عدم جاذبية الموضوع ، أنه بالغ من الدقة درجة كبيرة . وفى مثل هذه الحالة يترك الأمر للقارىء نفسه ، لاختار بين التعبير الدقيق الذى يعسر بلوغ مداه ، أو التعبير الجذاب الذى يسهل مآناه .

وللأسلوب جمال داخلي وجمال خارجي ، فأما جماله الداخلي ، فهو جمال الجرس فى عباراته والانسجام الموسيقى بين ألفاظه ، ويدخل الجمال الداخلي للأسلوب فى نطاق « الطاقة الانموية » . وذلك لأن جمال الجرس والانسجام الموسيقى ،

(١) انظر : Autobiograpdyp. 405.

(٢) انظر : Popular Science Monthly 1910.

من الأمور التي تتصل بسهولة بالنطق بالعبارة أو صعوبته .
ولأعرج بك الآن على المثال المشهور في كتب البلاغة العربية ، وهو قول
رجل قد سأله آخر عن مكان ناقتة ، « تركتها ترعى الهعضع » . والهمضع ، كما يقول
من يفسرون هذه العبارة نوع من الشوك ترعاه النياق . وعدم انسجام هذه
الكلمة ينسب إلى تنافر حروفها من هاء إلى عين ثم إلى خاء وإلى عين ثانية .

واستمع معي إلى الأستاذ أحمد حسن الزيات في مقال له عن وضاح الشاعر ،
حين يقول « في اليمين الخضراء » ، وفي صنعاء ذات الظل والماء ، نشأ وضاح أبيض
الوجه ، أسود الشعر ، مليح القسما . وإذا كان الجمل يكتب لون الصحراء ،
والسمك يستفيد مرونة الماء ، والطاووس يستعير أفواف الروض ، فإن
اليمانيين لم تربطهم بطبيعتهم ولا يبنثهم صلة . . . » وأنت ترى في هذه القطعة
تناسب الفقرات ، وتساويها الطول ، وتوزيع النبر فيها توزيعاً متماثلاً ، فهو
(أى النبر) يوجد على المقطع الأخير من كلمة « الخضراء » وكلمة « الماء » ،
وكلاهما في نهاية إحدى الفقرتين المتواليتين . كما تجسد النبر واقعاً على الواو في كلمة
« الوجه » والشين في كلمة « الشعر » ، وموضع كل منهما متناسب مع موضع الأخرى
في الكلمة التي توجد فيها . ثم تجد تناسباً بين النبر في كلمة « القسما » والنبر
في كلمتي « الخضراء » و « الماء » السابقتين . وبذلك يربط هذا النبر بين هذه
الفقرة والفقرتين السابقتين عليها ، (في اليمين الخضراء ، . . . والماء) وهكذا .

ومن هذا المثال ترى كيف يؤثر تماثل توزيع النبر وطول الفقرات في جمال
الأسلوب . وهذا النوع من التماثل يكسب هذه القطعة إمتاعاً يسهل ولا شك نطق
المتكلم بها . ولما كانت « الطاقة اللغوية » تتوقف على مدى السهولة أو الصعوبة
في إنتاج الأحداث اللغوية ، وإدراكها ، فإننا نستطيع أن نحكم بأن الجمال
الداخلي للأسلوب ، داخل في نطاق « الطاقة اللغوية » .

إن إحساسنا بالجمال في مثل هذا النوع من التناسق في النبر والتشابه في طول الفقرات وغير ذلك ، لما يضاف على الشعر جاذبية الوقع التي يتميز بها على النثر .
وسر هذه الجاذبية هو أنه من السهل على من يقرأ الشعر ، الانتقال بأعضائه الصوتية من مقطع إلى مقطع في انتظام مطرد .

ولكن إذا صح أن تعتبر هذه السهولة أساساً لجمال الأسلوب ، فليست وحدها كل شيء ؛ لأنها تعالج أظهر أنواع الجمال فيه . وفي الأسلوب الفني جانب أدق من أن يقاس بمجرد التشابه في النبر ، أو شكل المقاطع أو طول الفقرات ولا تزال مقاييسنا العلمية حتى اليوم أقصر من أن تتناول إلى تحديد سر الجمال في الفن الجميل . وهذا القصور يبدو بصفة خاصة في نوع آخر من الجمال الداخلي في الأسلوب ، الذي يعتمد على طريقة رصف الكلمات بعضها إلى بعض ، لأن وضع الكلمة أو العبارة ، كثيراً ما يوحى بطرافة دقيقة أو يثير شعوراً بالجمال . وبمثل هذه الوسيلة يستطيع الكاتب المجيد أن يفعل بنا ما تفعل التعاويذ في عقول البسطاء ، دون أن يستطيع عقولنا العلمي تحليل سر لهذه القدرة الفنية ، ولا أن يجد القوانين التي عليها يعتمد مدى جاذبيتها وجمالها . وعند هذا الحد نقف بك في حديثنا عن الأسلوب ، فقد طال ابتعادنا عن موضوعنا الأصلي — موضوع اتخاذ ما تقره الجماعة من أوضاع لغوية ، مقياساً للصواب .

* * *

ذكرنا لك من قبل أن تجنبير ومن يرى رأيه من علماء اللغة ، قد عرفوا الصواب اللغوي ، بأنه « الكلام الذي يسهل نطقه وفهمه » . وقد فرقنا عند ما عالجنا هذا الموضوع بين الصواب اللغوي وبين البلاغة اللغوية . وفي حديثنا عن الصواب اللغوي لم نستعمل أى الجانبين الذين قال بهما تجنبير (أى سهولة القول وسهولة الإدراك) أساساً في حكمنا .

ولكننا عندما تحدثنا عن البلاغة اللغوية ، اتخذنا الجانب الثانى ، أعنى سهولة الإدراك ، من بين العناصر التى يعتمد عليها « القول البليغ » . ولكن تقويمنا للغة Linguistic Valuation لا يقف عند اعتبارها لغة « صحيحة » أو « بليغة » ؛ لأننا نعتبر أن هناك إمكانية ثالثة للتقويم اللغوى . وهذه الإمكانية الثالثة لا ينظر فيها إلى اللغة باعتبارها نتاجاً فردياً ، كما هو الحال فى الإمكانيتين الأخريتين ^(١) ؛ بل باعتبارها نتاجاً للجماعة اللغوية فى عمومها . ويمكن تقويم اللغة فى عمومها بالقياس إلى مثالية لغوية نفترضها . وتزيد قيمة اللغة — أو أى جانب من جوانبها — كلما قربت من بلوغ هذه المثالية . وفى اعتبارنا أن اللغة المثالية هى التى تحقق أقصى حد من السهولة والدقة فى التعبير ، بالنسبة لكل من المتكلم والمخاطب ، عند تبادلها الأفكار والمعلومات .

وقد حرصنا فى هذا التعريف للمثالية اللغوية على عنصرين : السهولة ، والدقة ، بالنسبة إلى طرفين ، المتكلم والمخاطب ، دون اعتبار للوسائل التعبيرية الأخرى ، كرفع اليد للتحية ، أو دق الجرس لبدء المحاضرة ، التى قد تعين على فهم التعبير اللغوى .

وقيمة اللغة بهذا الاعتبار تختلف عن قيمتها باعتبارها نتاجاً فردياً . وذلك لأن الحكم بتميز الفصحى على العامية المصرية فى أساليبها الأدبية ، أو بتميز المصرية

(١) رأيت من قبل أن العبارة الصحيحة ، هى التى تتفق وما تفرضه الجماعة التى ينتمى لها المتكلم من أوضاع لغوية . ورأيت أيضاً أن كل إنسان تتراوح لغته بين مجالين من الحديث ، حديثه عن الحاجات العابرة وحديثه عن أموره النفسية والعقلية . ولهذا لم تقتنع بالوقوف بتقديرنا للغة عند الصواب والخطأ ؛ بل افترضنا درجة أخرى فوق الصواب هى درجة « البلاغة اللغوية » . وتقديرنا لسكلا هذين الموضوعين « الصواب اللغوى » و « البلاغة اللغوية » باعتبار الفرد لا باعتبار اللغة فى عمومها ، حيث لا يمكن أن نصف « اللغة العربية » بالصواب أو بالبلاغة ، ولسكننا نصف لغة محمد أو على بالصواب أو الخطأ وباستكمال عناصر البلاغة أو القصور دونها .

على الفصحى ، في أساليب السمر والتفكه ، ليس صادراً على ما يقوله محمد أو على ، بل على الثروة اللغوية في كل من العربية والمصرية في عمومهما . وتأمل معي قول الشاعر :

وما مثله في الناس إلا مملك أبو أمه حتى أبوه يقاربه

هل تراك تفهم ما يقوله في سهولة ؟ أظن لا . وهل يرجع العسر في فهم البيت إلى اللغة في عمومها أم إلى سوء استعمال الشاعر للألفاظ والتراكيب اللغوية ؟ إن معنى البيت يكون واضحاً لو أعدنا ترتيب كلماته واستبدلنا عبارة من عباراته فقلنا : « وما مثله في الناس حتى يقاربه إلا خاله الملك » ، وأنت ترى أننا قد عبرنا بكلمة .

١ — « مَلِك » بدلا من مُمَلِّك . والأخيرة صيغة مشتقة من « مَلَك » توحى بتملك أحد له . أما الأولى فاسم لا يوحى بمثل هذا الحدث .

٢ — « خاله » بدلا من عبارة « أبو أمه أبوه » . وفي هذه العبارة غنوب . لأنها تعبير عن المعنى الذي يمكن الدلالة عليه بلفظ واحد مخصص له (هو خال) ، بجملة مرتبكة . ولأن بها ضميرين يختلط علينا عائداهما ؛ فالضمير في « أبو أمه » يعود على « المدوح » والضمير في « أبوه » يعود على « الملك » . وبهذا الاعتبار يكون الملك خال المدوح . ومن الممكن أن تتصور العكس فيعود الضمير في « أبوه » على « المدوح » والضمير في « أبو أمه » على « الملك » . وبهذا يكون المدوح خالا للملك . ولا يوجد في البيت ما يوضح هذا اللبس . ولأننا نحتاج لعملية ذهنية شاقة لفهم علاقة القرني بينهما ، فيما لو فرض وعرفنا عائدا كل من الضميرين . وكما ترى من هذه المناقشة ، يمكن القول بأن هذا الاضطراب في التعبير أمر ينسب إلى « الفرد » وتصرفه ، لا إلى اللغة ووسائلها التعبيرية . فاللغة قد زودت

الشاعر بكلمة « ملك » وكلمة « خاله » ، ولكنّه عدل عنهما واختار تعبيرات غير ملائمة .

كذلك خالف نظام وضع الكلمات في الجملة العربية ، بأن فرق عدداً من الكلمات كان ينبغي أن تكون مجتمعة ؛ فلم يقل « ما مثله حتى يقاربه الخ » بل وضع « حتى » بين « أبو أمه » و « أبوه » ، ووضع « يناربه » في آخر البيت — وقد سبب كل هذا التصرف الشخصي أرتباكاً في الدلالة .

ولو قارنا هذا النوع من اللبس ، باللبس الناجم عن استعمال الكلمة الإنجليزية « you » (أنت أو أنتم ، للمذكر والمؤنث) ، لوجدنا أن هذا اللبس ليس ناجماً عن استعمال فردي كما رأيت في المثال السابق ، بل عن الأوضاع اللغوية التي استقرت وتحتم على الفرد قبولها . ولهذا لا يمكن أن توجه النقد إلى شخص قال لك وأنت في وسط جمع من أصدقائك you were there ، فلم تفهم أن كان يعينك وحدك ، أو يعينكم أجمعين . وإذا صح أن نصف أحداً بعدم الدقة في التعبير في هذه الحال فلن توجه ذلك إلا إلى اللغة الإنجليزية في عمومها .

ولثل هذا نسمع الناس يقولون بأن اللغة الفرنسية « لغة المنطق السليم » ، أو أن الإيطالية « لغة موسيقية » أو غير ذلك من الأحكام .

وعيب مثل هذه الأحكام أنها شاملة ، فهي تتحدث عن اللغة الفرنسية أو الإيطالية ، لا عن خاصة أو خواص من خواصها . وقد تتميز الإنجليزية على العربية في ناحية ، بينما تتميز عليها العربية في ناحية أخرى . وسأعرض لك هنا بعض الأمثلة .

رأيت فيما قبل قصور اللغة الإنجليزية عن التعبير الدقيق في طريق استعمال الضمير « you » . وتشارك الألمانية الإنجليزية في هذا القصور ، فهي تستعمل الضمير « sie » لجمع الغائب مذكراً ومؤنثاً كما تستعمله للمخاطب ، المفرد والجمع .

ولذلك فإن العبارة « sie kommen » يمكن أن تعنى « هم يأتون » ، « أنتم تأتون » أو « أنت تأتى » إلى جانب « هن يأتين » ، « أنتن تأتين » و « أنت تأتين » . وأنت ترى من هذا أن العربية أقرب إلى المثالية اللغوية في هذا المجال من كل من الإنجليزية والألمانية ، حيث فرقت صيغها بين هذه الدلالات المختلفة .

وفي العربية نجد صيغة « أفعل » تدل دلالات مختلفة . ويتضح ذلك بمقارنة دلالة أَخْرَجَ = جملة يخرج ، أَدْخَلَ = جملة يدخل ، بدلالة أَحْصَدَ الزرع = بلغ الحصاد ، أزوجت هند = بلغت سن الزواج . فهى للسببية فى المثالين الأولين لا فى الآخرين . وفى المثال ، أفذيت عين محمد ، نجد المعنى أزلت القذى من عينه (لا جعلت القذى فيها) (١) .

وليست صيغة « فَعَلَ » بأحسن حظاً من صيغة « أفعل » . ولدينا زوج بمعنى « سبب الزواج » ، بينما تعنى قَتَلَ « أكثر القتل » . ولاشك أن من عدم الدقة فى التعبير ألا تختص كل فكرة بصيغة خاصة ، فى لغة كالعربية غنية بصيغها . ومن أمثلة ذلك فى العربية أيضاً ، اسم الزمان والمكان واسم المفعول من الرباعى ، وكلها على وزن واحد .

وللجمع فى العربية قصة أخرى . فلدينا جموع للتكسير ، وهى تبلغ بنا حدَّ الثلاثين . وليس هناك من ضوابط دقيقة لتعيين المفردات التى تندرج تحت كل منها . وهناك إلى جانب ذلك جمع المذكر السالم ، ومع ذلك فبعض الأسماء المذكورة تجمع جمع تكسير كغلام وغلمان ورجل ورجال ، وجمع المؤنث السالم ويجمع عليه بعض الأسماء المذكورة مثل رجالات جمعاً لرجل (أو جمعاً لجمع رجل ، حتى لا يحاسبنا المتعسفون من رجال اللغة) .

وهل يمكن أن نتساءل عن القيمة التعبيرية لتعيين التذكير أو التأنيث بصيغة

(١) انظر شذى العرف ص ١٢٢ .

الجمع ، مع أن الكلمات نفسها تدل عليهما . وإذا صح أن كلمة « فاطمة » تدل على أنثى ، فإن جمعها بالألف والتاء لم يصف شيئاً إلى هذه الدلالة .

أو ليس من العجيب أيضاً أن نجد مفرداً لا جمع له ، مثل « امرأة » وجمعاً لا مفرد له مثل « نساء » ؟ ! ؟ .

الحق أننا لو قارنا هذه الناحية من اللغة العربية بالانجليزية التي تضيف « s » ، أو بالنوبية التي تضيف « gu » ، إلى المفرد للحصول على صيغة الجمع ، لحكمنا بأن العربية تقصر هنا عن الوصول إلى المثالية اللغوية ، التي قاربها كل من الانجليزية والنوبية .

وقد يكون قصور اللغة ناتجاً عن قلة مفرداتها في ناحية من نواحي التفكير الإنسانية ، وإسرافها في الغنى اللفظي في ناحية أخرى .

ومن أمثلة ذلك العامية المصرية ، فهي غنية جداً بالتعبيرات والألفاظ التي تستعمل في الشتائم ، وفقيرة بشكل ملحوظ في التعبيرات المتعلقة بالأمور العقابية . ولغة الشتائم في العامية المصرية موضوع طريف يستحق الدراسة . وتنوع أساليب الشتائم تنوعاً كبيراً . فمنها السب الشخصي بتمنى الأذى مثل « جك ضربه » « جك وجع بطنك » الخ ، والسب بآبن وبنت مضافة لأسماء الحيوانات كالكلب والجمار ، أو أسماء الأشياء المحترقة « كالجزمة » و « البلغة » ، والسب بالتهديد بالضرب بإحدى الأشياء المحترقة « كالصرمة » . وهناك السب باللعن بوجه للشخص نفسه أو لآبائه الخ .

وبالرغم مما يبدو لأول وهلة من أن مثل هذا الموضوع أتفه من أن يكون محلاً للدراسة ، فإنه في الواقع من أعظم المواضيع اللغوية اتصالاً بالقيم الاجتماعية .

ولو فرض أن ترجمت عبارة السباب المصرية (حاضره بالجزمة) فقلت

« I shall hit him with the shoe » لما فهم من يسمعك من الإنجليز من هذه العبارة معنى السب . وذلك لأن كلمة shoe الإنجليزية ليست كمنظيرتها المصرية (حزمة) مليئة بالإشارات المعنوية (connotation) التي تعتبر نسبتها إلى شخص من الأشخاص إساءة كبيرة له .

وإلى جانب هذا الغنى فقر ظاهر في التعبير عن المعاني النفسية والعقلية . ولذلك لا تقتأ المصرية تستعير من اللغة الفصيحة مفردات تدل على هذه المعاني . فمن العربية الفصحى أخذنا كلمة « ذكى » ، « عبقرى » ، « حساس » الخ .

ولا تزال طريقة نطق بعض الكلمات دليلاً على هذا الاقتراض ، فنحن نقول « عبقرى » بالقاف دون استبدالها همزة ، كما نفعل في بقية الكلمات التي توجد القاف بين حروفها في صورتها الفصحى .

والقرض إحدى الوسائل التي تعالج اللغة بها نقصها في المفردات . والمصرية والعربية الفصحى مليئتان بالألفاظ المقرضة من مختلف المصادر . ولابد للمقرض أن يراعى جانب السهولة بالنسبة للسامع والتسكلم كما يقول تيجنير ، وإلا لما كان للألفاظ التي يقترضها نصيب كبير من قبول الجماعة .

* * *

وتقد اللغة على مثال ما عرضت عليك يأخذ صورة مقارنة . وذلك بأن نقارن بين اللغة وسواها من اللغات . أو بين اللغة ونفسها في مختلف عصورها . ولهذه الدراسة علاقة خاصة بدراسة تاريخ الثقافات ethnology التي تحتل مكاناً هاماً بين الدراسات الاجتماعية . وقد رأينا فيما سبق أمثلة من مقارنة اللغة بسواها من اللغات . وسأمثل لك الآن لمقارنة اللغة في عصر من عصورها ، بنفسها في عصر آخر يوضح لك علاقة اللغة بعلم الثقافات .

ليس من المستهجن في العربية الفصيحة أن نقول « كان ذلك الرجل ابن امرأة من قبيلة كذا ». ولكن من المستهجن في المصرية أن نقول عن شخص إنه « ابن مرة » لما في كلمة « مرة » من أشارات معنوية غير مقبولة . ولا يقف الأمر عند ذلك الحد ؛ بل إنه من غير المقبول في العرف المصرى أيضاً ، أن تنسب شخصاً إلى أمه . ويبدو لي ذلك عرف جديد على البيئة المصرية ، ظهر أثره في نشاطها اللغوى . أما أن هذا العرف أمر جديد فيؤيده ، أن اللغة النوبية وهي قريبة الصلة بالقبطية ، التي كانت اللغة القومية في مصر قبل وفود اللغة العربية ، تسمح بنسبة الشخص إلى أمه ، بدلا من أبيه . وليس من المريب بين النوبيين — بالرغم من نفور المثقفين من ذلك — أن تدعو شخصاً بإسم أمه ، ومثال ذلك : « عبده حجيجة » — وحجيجة اسم الأم . كما أننا لا نزال ننادى الموتى بعد الدفن باسم أمهاتهم ، عند تلقينهم الشهادة . وكلنا سمع كثيراً العبارة المأثورة : « يا محمديا ابن فاطمه » ، إذا جاءك ملكان شفقان .. الخ » ومثل هذا النداء بقية من عصر لغوى لم يكن يمنع دعوة الشخص باسم أمه ، كما هو الحال في بعض طبقات المجتمع النوبى . وقد كانت المصرية القديمة والعربية الفصيحة لا تمنع مثل هذه النسبة على ما أعتقد .

ولو أمكن لنا أن نتتبع الأساليب المصرية في عصور مختلفة ، وعرفنا العصر الذى انقرض فيه مثل هذا الاستعمال اللغوى ، لاستطعنا أن نتخذ المادة اللغوية مفتاحاً لدراسة القيم الاجتماعية التى جددت في ذلك العصر ، والتي كان السبب في استهجان هذا الاستعمال اللغوى .

ويمكن أن نجعل هذا البحث لغوياً خالصاً ، فندرس الألفاظ والصيغ والتركيبات في لغة من اللغات في مختلف عصورها ، مما يمكن لنا من الحكم على مدى التطور نحو السكال أو نحو الانحلال التعبيري في لغة من اللغات^(١) .

(١) تعرض المؤلف في كتابه language لهذا الموضوع في الفصلين ١٧ ، ١٨ . ومن رأيه أن اللغة تتطور نحو السكال التعبيري بصفة عامة .

وتطور اللغة لا يتم إلا عن طريق مانسميه بالأخطاء اللغوية . والخطأ عند ما يبدأ
يكون من الناس في محل الاستنكار ، ثم لا يلبث أن يشيع حتى يصير القاعدة
التي يسير عليها كل المتكلمين . ولقد قال بعض اللغويين : « إن تاريخ اللغة ليس
سوى تاريخ الأخطاء اللغوية فيها » . ولثل هذا السبب رفض بعض المؤرخين
اللغويين أن يعترفوا بوجود ما يسمى (الصواب) أو (الخطأ) في اللغة . ولكننا
نقرر وجود (الصواب) و (الخطأ) اللغوي عندما ندخل في حسابنا :

١ — الجماعة اللغوية بالمعنى الذي ذكرناه من قبل ، وعلاقتها بالأفراد الذين
يكونونها .

٢ -- أن (الصواب اللغوي) هو التعبير الذي يتفق وما تقبله الجماعة اللغوية
في عصر خاص ، وأن (الخطأ اللغوي) هو التعبير الذي يخالف ذلك ، هذا بصرف
النظر عن القيمة الداخلية للكلمات والصيغ .

٣ — أن هناك نوعاً آخر من تقدير (القيمة اللغوية) — بعيد كل البعد عن
الصواب والخطأ — أساسه قياس اللغة إلى مثالية لغوية تعتمد على (سهولة
القول وسهولة الفهم) .

* * *

وعلى أساس من هذه المثالية اللغوية ، قامت محاولات كثيرة لابتكار لغات
صناعية ، وقد كان غرض هذه المحاولات أن تقدم للإنسانية وسيلة لغوية ، تحقق
سهولة التفاهم لأكبر مجموعة من البشر الذين يختلف بهم لغاتهم .

الفصل السابع

أثر الطبقة في التعبير اللغوية

مر بك في عرض ما ذكرنا من قبل ، أن لا تقسام المجتمع إلى طبقات أثرأ في لغة الأفراد الذين ينتمون إليها . ومن أجل ذلك استطعنا أن نتكلم عن لغة الطبقة الراقية ، أو لغة الطبقات الدنيا . ولا شك أن الطبقات الاجتماعية تتميز بعضها عن بعض بلغتها ، كما تتميز بملابسها وعاداتها وطرائق تفكيرها . وتظهر مثل هذه الفروق الطبقة بشكل واضح في القصص التمثيلية التي يكتبها الكتّاب المعاصرون . ولهذا نجد أنواعاً مختلفة من التعبير اللغوي في هذه القصص ، كل نوع منها يدور على لسان شخصية من الشخصيات الممثلة فيها . وليست هذه النزعة في كتابة القصة أمراً جديداً ، فقد وجدت ظاهرة واضحة ، في بعض الأقاصيص التمثيلية الهندية القديمة . وتختلف اللغة في هذه الأقاصيص باختلاف الشخصية التي تدور على لسانها ، فإن كان المتكلم أهلاً ، أو ملكاً ، أو أميراً ، أو رجلاً من رجال الدين ، أو أستاذاً لفن الرقص ، فلغته السنسكريتية Sanskrit ، وإن كان رب حانوت ، أو موظفاً صغيراً ، أو حارس حمام ، أو صياداً ، أو امرأة ، فلغته الباراكريتية Parakrit . وليس من المعقول أن نجد في حياتنا الحديثة مثل هذا الفرق الواسع بين الطبقات الاجتماعية المختلفة . فبالرغم من وجود الطبقة في المجتمع الحديث ، ومن آثارها الواضحة المتنوعة في طبقة اللغة ، فإن هناك من العلاقات الاجتماعية بين مختلف الطبقات ما يخفف من حدة الفروق اللغوية بينها . وإنا لنسمع في كل حين أنواعاً

من اللهجات ، وطرائق من التعبيرات الطبقية ، التي تجعلها غير غريبة على آذاننا بل وعلى ألسنتنا .

وليس للفرد طريقة واحدة من طرق الكلام . فهو يتخذ لكل محيط اجتماعي لغة تناسبه في مفرداتها وتعبيراتها وطرق نطقها . ومعنى هذا أن لغة ألوانا متعددة ، فهي في لسان العاشق الهامس غيرها في لسان القاضي ، كما أنها في لسان الغاضب تختلف عنها في لسان المازح . ومثل هذه الأنواع المختلفة من التعبير اللغوي تدخل في نطاق ما نسميه بالأساليب اللغوية . ولست أريد أن أتعرض هنا لهذا النوع من الدراسة . ولكني أود أن ألفت نظرك إلى حقيقة هامة ، هي أن الشخص الواحد يتكلم بإحدى طرائق متعددة ، تختلف تبعاً لشخصية من يتحدث إليه .

وقد لاحظ الكاتب الإنجليزي تشوسر مثل هذه الملاحظات ، حين قرر أن اللغة التي يتحدث بها الإنسان إلى الملوك تغاير اللغة التي يتحدث بها إلى عامة الناس . وهكذا ترى أنه إلى جانب ما قررناه من قبل من أن اللغة تختلف باختلاف متكلميها ومستواها العقلي والاجتماعي ، أنها تختلف باختلاف المستوى العقلي والاجتماعي للسامع كذلك .

ولا يبدو لاختلاف اللغة باختلاف مركز السامع الاجتماعي ، من أثر كبير في اللغات الأوربية أو لغة كالعربية . ولكن في قواعد بعض هذه اللغات بعض الآثار التي تشهد بوجود مثل هذا الاختلاف في عصر من العصور الماضية . ومن هذه الظواهر ضمير المخاطب ، الذي يختلف باختلاف مكانته ، فإن كان طفلاً أو صديقاً حميماً أو ابناً ، استعمل له ضمير المفرد . وإن كان ضيفاً أو شخصاً يستحق الاحترام استعمل له ضمير الجمع . وترجع نشأة هذه الظاهرة إلى عهد الرومان ، فقد كان الأباطرة يتحدثون عن أنفسهم ، ويودون أن يتحدث إليهم الناس ، بضمير الجمع (أنتم) ، كما كانوا أشخاصاً كثيرين في شخص واحد . وقد ورث الملوك هذه

العادة عنهم حتى هذا العصر . ثم شاع استعمال صيغة الجمع للمخاطب ، حتى أصبح من الخطأ أن تستعمل du في الألمانية أو tu في الفرنسية (أنت) لأستاذك أو لشخص لا تعرفه ؛ بل لابد أن تستعمل sie في الألمانية و vous في الفرنسية . وفي الإنجليزية انقرض ضمير المخاطب المفرد thou الذي كان موجوداً يوماً ما ، وأصبح ضمير الجمع you يستعمل كذلك مع المفرد المخاطب .

ونحن نلاحظ مثل هذه الظاهرة في العربية الحديثة ، فنحن نخاطب رؤساءنا وأولى الأمرين بصيغة الجمع . وهذا من آثار اتصالنا بأوروبا ، التي أخذنا عنها كثيراً من تقاليدنا الاجتماعية الحديثة .

ونذكر في هذا الصدد أن العربية قد تأثرت بتأثيرات مختلفة من هذه الفاحية على مر العصور . ومن المعروف أن الجاهلي أو العربي في عصر الإسلام ، لم يكن يستعمل صيغة الجمع لخطاب المفرد ، مهما ارتفعت مكانة المخاطب . وفي العصر العباسي شاهدنا نوعاً جديداً من أسلوب خطاب الحكام والأمراء ، تستعمل فيه صيغة المفرد متبوعة بجملته اعتراضية للدعاء أو التعظيم . ومن أمثال ذلك « اعلم حفظك الله أن ... » وقد ظلت هذه النزعة سائدة حتى العهد التركي . وعن الأتراك اقتبست العربية نوعاً آخر من أسلوب الخطاب ، يتمثل في استعمال كلمة « حضرة » أو « جناب » مضافة إلى ضمير المخاطب . ولا يزال ذلك جارياً في استعمالنا العادي حتى اليوم . ونحن نضيف « حضرة » أو « جناب » إلى ضمير المخاطب المفرد والجمع فنقول « حضر تكم » أو « جنابكم » أو « حضر تك » و « جنابك » . ولم يقف الأمر عند هذا الحد ، فقد استعملنا أسلوباً خاصاً لخطاب من كان يحمل لقب « بك » أو « باشا » فاستعملنا « عز تكم » للأول و « وسعادتكم » للثاني . هذا إلى جانب ألفاظ التعظيم الأخرى ، التي كانت تستعمل للعائلة الملكية مثل « جلالة » و « سمو » الخ . وبعد إلغاء الألقاب حلت كلمة « سيد » ، وهي ترجمة لكلمة Sir الإنجليزية

و *monsieur* الفرنسية ، محل كل هذه الكلمات . وكما تضاف كلمة سيادة إلى ضمير المفرد والجمع للخطاب فيقال « سيادتك » و « سيادتكم » .

كذلك لعبت الحياة الحديثة في لغتنا الاجتماعية دوراً آخر ، فيما يتعلق بمحدثنا عن المرأة أو إليها ، فمنذ عهد غير بعيد كانت الكلمة المصرية التي تستعمل للحديث عنها هي « مره » ، ولم يكن هناك أى حرج في استعمال هذه الكلمة على الإطلاق . وإنا لا نزال نسمعها على ألسنة بعض الفلاحين في القرى ، دون أن يكون في استعمالها إشارة من إشارات الاستهجان . وتأثير الأتراك دخلت كلمة « هانم » — وهي تستعمل في التركية للرجال — واستعملت بعد علم الشخص فقلنا « فاطمة هانم » « خديجة هانم » الخ . وإلى جانب ذلك كانت توجد كلمة « الست » وهي نظيرة الكلمة الفصيحة « السيدة » . وقد استعملت المصرية أولى الكلمتين لذوات المسكنة من النساء ، وأما الثانية فقد استعملتها لوليات الله (مؤنث أولياء الله) كالسيدة زينب والسيدة نفيسة . ولكن استعمال « السيدة » لم يقف عند هذا الحد ، فقد احتاجت الطبقة المثقفة إلى كلمة تناظر *Mrs* الإنجليزية *Madam* الفرنسية . ولما كانت العربية تختلف عن الإنجليزية ، في أن الزوجة تحتفظ باسم أسرتها ، بينما هي تفقده وتكتسب اسم أسرة زوجها في الإنجليزية والفرنسية ؛ فقد استعملت العربية صيغتين من الصيغ لخطاب المرأة المتزوجة . أما الأولى فتستعمل فيها كلمة « سيدة » ، ومن بعدها اسم المرأة مع لقب أسرتها ؛ مثل « السيدة فاطمة العشماوى » . وأما الثانية فتستعمل كلمة « حرم » مضافة إلى اسم الزوج وأسرته مثل « حرم محمد افندى الشوربجى » . وكلمة « حرم » هذه جديدة على مثل هذا الأسلوب ، فقد حلت محل كلمة « مرات » (صيغة الإضافة لكلمة « مره ») لما جد عليها من استهجان . ولهذا فبدلاً من أن نقول — كما كان يحدث من قبل — « مرات محمد افندى » نقول « حرم محمد افندى » . وقد اقترضت المصرية من الفرنسية كلمة « مدام »

لنداء المرأة المتزوجة دون ذكر اسمها أو مع ذكره . وهكذا نجد لدينا الصيغ الآتية :

١ - « ست » ويليهما العلم الشخصي وتستعمل للخطاب والغيبة .

٢ - « مدام » وتستعمل مثل « ست » ، إلا أنها أعلى منها في قيمتها الاجتماعية .

٣ - « سيدة » ويليهما العلم الشخصي لإحدى حالتين .

(أ) وليات الله مثل « السيدة زينب » في الخطاب والغيبة ^(١) .

(ب) الزوجات في الأسلوب المهذب ، في الخطاب والغيبة .

٤ - « حرم » ويليهما اسم الزوج في الأسلوب المهذب ، في الغيبة فقط

مثل حرم خليل افندى .

لقد فرض علينا العرف الأوربي ، التفريق بين المتزوجات وغير المتزوجات

وقد اعترفت العربية بمثل هذا الفرق في مفرداتها ، حيث استعملت « بنت » لغير

المتزوجات و « امرأة » للمتزوجات . ولكن هذا التفريق لم يكن حاسماً كما هو الحال

في اللغات الأوربية ، فلم يكن ثمة مانع من مناداة المتزوجة بكلمة « بنت » ،

بينما لا تسمح الفرنسية أو الإنجليزية بمثل هذا النداء . وقد جدت في العربية كلمة

« آنسة » للفتاة غير المتزوجة ، كما اقتربنا من الفرنسية كلمة « مدام » ،

وكتابها تستعملان في خطاب المفردة المؤنثة وفي الحديث عنها . وهناك إلى

جانب كل ذلك ألقاب أخرى اعترفت بها الدولة حين كانت تعترف بالألقاب ،

منها « صاحبة العصمة » و « صاحبة السمو » ، وتستعمل على السواء للمتزوجات

وغير المتزوجات .

وكل هذه الصيغ التي جدت وتجد هي رد فعل للاختلاف الطبقي بين أبناء

(١) يمكن في هذه الحالة أيضاً استعمال « ست » ، مثل « ياست يام هاشم » وقد تستعمل

مضافة للضمير مثل « ياستي زينب » أو مجردة عن الإضافة كما في المثال الأول .

(م - ١١ اللغة بين الفرد والمجتمع)

الجماعة اللغوية الواحدة . ومن الممكن أن تتصور نزعة أخرى تحاول التسوية بين الطبقات المختلفة في التخاطب . وقد تنتج عن مثل هذه النزعة ظاهرة طريفة في اللغة الإنجليزية لا بأس من عرضها هنا .

ربما كنت تعرف شيئاً عن جماعة السكويكرز Quakers الدينية في إنجلترا وأمريكا ، التي لا تؤمن بالفروق الطبقة بين الناس . ولقد كان لنزعة المساواة التي آمنت بها هذه الجماعة أثر لغوي . وذلك لأنهم كانوا يرفضون استعمال الضمير you لخطاب الفرد حسب الاستعمال السائد في الإنجليزية الحديثة ، ويصرّون على استعمال ضمير الفرد الذي كان يستعمل في لغة الإنجيل . وقد استعملوا ضمير الأفراد هذا حتى في حالات الجمع . ولغة الإنجيل نفسها تفرق بين خطاب المفرد والجمع فهي تقول :

أنت تعطي = Thou givest للمفرد المخاطب

أنتم تعطون = Ye give للجمع المخاطب

ولم يكن السواد الأعظم من أعضاء هذه الجماعة من المثقفين الذين يعرفون هذا الفرق في لغة الإنجيل . لذلك فقد رأيناهم يستعملون هذه الصيغة Thee gives للمفرد والجمع ^(١) ، وهم هنا يخالفون لغة الإنجيل في أنهم :

١ — يستعملون ضمير النصب Thee (اياك) بدلاً من ضمير الرفع Thou (أنت) في حالة الإسناد .

٢ — يستعملون الصيغة المفردة في حالة الجمع .

٣ — يخاطبون في تصريف الفعل فيجعلون التصريف gives زيادة «S» فقط بدلاً من givest زيادة est كما في الإنجليزية القديمة وهم في هذا الخطأ متأثرون بالإنجليزية الحديثة .

(١) وهكذا نرى أن كل ما فعلوه هو أنهم استعملوا ضمير الفرد القديم لخطاب الفرد والجمع بعكس اللغة الإنجليزية السائدة التي تستعمل you (وهي في الأصل ضمير الجمع القديم ye) للخطاب أفراداً وجمعاً .

وكانت نتيجة كل ذلك أن ظهرت استعمالات أخرى تختلف عما في اللغة الإنجليزية العادية ، وعما في لغة الإنجيل التي حاولوا تقليدها على السواء .

* * *

إن مارأيت من تأثير الطبقة في اللغات الأوروبية واللغة العربية لا يقاس بشئ ، إلى جانب ما يوجد في بعض اللغات الأخرى . وفي اليابانية مثلاً توجد ألفاظ مختلفة لا باعتبار الأفراد والجمع فحسب ، بل باعتبار مكانة المخاطب الاجتماعية . فضمير المتكلم المفرد المذكور مثلاً ليس كلمة واحدة ، بل عدة كلمات حسب المكانة الاجتماعية للمخاطب . ومثال ذلك كلمة *duku* = أنا ، ولا يستعملها إلا طفل يتحدث إلى طفل آخر ، فإن كان يتحدث إلى أبيه ، فإنه لا يستطيع استعمالها ، بل لا بد من استعمال كلمة أخرى بمعنى « أنا » أيضاً .

وفي لغة بورما يختلف تصريف الفعل باختلاف مركز من مخاطبه . فإن كان شخصاً من ذوى المكانة أضغت في وسط الصيغة الفعلية *taunio* ، فالفعل *Pruthi* معناه « أنا أضغت » ، ويستعمل عندما مخاطب شخصاً عادياً ، فإذا كان المخاطب عظيماً فإنه يتحتم في هذه الحالة أن تكون الصيغة *Pru-taunio-thi* ولا يستعمل سكان جاوة الأصليين لغة واحدة فلديهم :

١ — اللغة العادية واسمها نجوكا *Ngoka*

٢ — لغة خاصة لخطاب الأمراء واسمها كراما *Krama*

٣ — لغة لخطاب طبقة الحكام وذوى الجاه وهى تحريف للغة كراما

٤ — لغة تستعمل في قصور الملوك واسمها باسا كاداتون *basa kadaton*

٥ — لغة تستعمل للحديث عن الملوك والأمراء واسمها كراما انجيل

Krama Ingil

ولا يستعمل هذه اللغة الأخيرة إلا الملوك والأمراء ، عندما يتحدثون عن أنفسهم أو عن سواهم من أبناء طبقتهم . ومفردات اللغة المسماة كراما ، مجموعة من الألفاظ المحلية المأخوذة من اللغة العادية (نجوكا) بعد التحوير فيها بإضافة بعض المقاطع ، ومن الألفاظ المقرضة من لغات أخرى كلغة الملايو ، والسوندا ، والسنسكريتية^(١)

قد يبدو ما أذكر لك هنا غريباً بعيداً عن تصديقك . ولكننا لو تدبرنا حديثنا مع الأطفال الصغار ، لو جدنا صورة أخرى لاختلاف اللغة باختلاف مكانة المخاطب . وبدلاً من أن تقول للطفل « نام » تقول له « ننه » أو « نام ننه » ، كما تقول « دح » أو « دحه » بدلاً من « كويس » ، و « أح » بدلاً من « سخن » ، و « كخ » بدلاً من « وسخ » ، و « تانا » بدلاً من « امشى » . ولا أشك في أن دراسة لغة خطابنا للأطفال ، يمكن أن تكشف لنا عن نشاط لغوي ، له قواعد ومفرداته ومعانيه الخاصة به . ويعتقد الكثيرون ، أننا نخطب الأطفال بمثل هذه الألفاظ ، لأنها أسهل فهماً عليهم . وليس الأمر كذلك على الإطلاق ، بل إن هذه الألفاظ تلقي على كاهلهم عبئاً لغوياً آخر . وذلك لأن الطفل يتعلم في نفس الوقت لغتنا العادية ، وليس من السهولة أن نضيف إلى جانبها لغة أخرى ، سوف لا نستعملها في حديثنا إليه بعد حين . وتفرق بعض اللغات بين الطريقة التي نخطب بها الأطفال واللغة العادية بزيادة بعض الحروف أو تعديل نطق بعض الحروف الأخرى . ونحن في مصر نفعل شيئاً مثل هذا حين نبدل « الراء » و « اللام » « ياء » و « الجيم » « دالا » و « الكاف » « تاء » الخ ، فنقول « الدمى » عن الجمل ، و « التيب » عن السكب ، و « الحيوف » عن الخروف . الخ .

وسأنتقل لك ما قاله ساپير Sapir عن هنود النوتكا Nootka Indians من سكان جزر فانكوفري Vancouver islands (١).

وعند ما يتكلم هؤلاء إلى الأطفال أو عنهم ، يضيفون (is) إلى نهاية الفعل ، فإن كان مخاطبون ، أو يتحدثون عن شخص عظيم أو شيء كبير الحجم أضافوا إلى صيغة الفعل المقطع (aq) ، فإن كان المخاطب أو المتحدث عنه قرماً أو وضع القدر ، أضافوا قبل المقطع الدال على التصغير نوعاً من السين « s » Palatalised ، وتعامل هذه المعاملة الطيور الصغيرة كالعصفور . وتستعمل صيغة التصغير أيضاً للأعور والأحول . ولكن السين التي تسبق مقطع التصغير تتحول إلى لام مهموسة « L » Voiceless . وإذا كان المخاطب أو المتحدث عنه أحجب استبدلت السين بتاء وشين Afaicate Palatal Voiceless Sound ، ولكنه إذا كان أعرج أضيف إلى صيغة الفعل لام مهموسة أو لام أو لام وشين . وبهذا الشكل الأخير يتحدثون عن الدب ، ويعتقد الناس في هذه البلاد أن بقدنيه عاهرة موروثة . وعند الحديث عن الشربين تضاف تاء وسين وخاء بعد المقطع الأول من الفعل ، وبهذه الصيغة يتحدثون عن الغراب ، وهو يعتبر لديهم عظيم الشره . أما الحديث عن الجبناء أو إليهم فلا يميز بزيادة حرف أو حروف ، بل باستعمال نغمة صوتية منخفضة فيها شيء من الصراخ .

واستعمال مثل هذا الصيغ يعتبر إهانة للمخاطب . ولكنها قد تستعمل للمداعبة للإهانة . ويفترض المتكلم في هذه الحالة أن المخاطب أعظم من أن يعير اهتمامه لمثل هذه التوافه .

وعندما تروى الأغاني الشعبية لهنود النوتكا كلاماً على لسان الحيوانات ،

تستعمل ألفاظاً تخالف الألفاظ العادية . وفي قصة من قصص هذه الأغاني ، نجد جميع حروف الزين والسين والشين Sibilants وأمثالها تحول إلى نوع من اللام . ويقول ساير ، إن ذلك ليس خاصاً بهنود النوتكا بل إن قبائل البوشمان Bushman في أفريقيا ^(١) تفعل شيئاً مماثل هذا .

وقد أيد مينهوف Meinhof ما يقوله ساير ، عندما قال بأن لكل حيوان من الحيوانات يذكر في القصص التقليدية بين هؤلاء الناس ألفاظاً خاصة تستعمل في الحديث عنه .

الفصل الثامن

التعبير البلدى

اتضح لدينا بعد كل ما سبق أن هناك فرقاً بين اللغة المشتركة واللهجات المختلفة . وقد كان علماء اللغة العرب يدركون هذا الفرق ، ولكن بطريقة تخالف طريقة إدراكنا له . وقد أطلقوا على ما نسميه اللغة المشتركة اسم « اللغة الفصحى » ، كما أطلقوا على لهجات البلاد المختلفة اسم « اللهجات العامية » . واللهجة العامية تطلق عادة على عدد من اللهجات التي توجد في وطن سياسى واحد . ولهذا قيل « العامية المصرية » ، « العامية العراقية » الخ ، ولكن لا يقال فى العادة « العامية الصعيدية » أو « العامية الشرقاوية » ، وليس هذا هو ما يعنينا هنا على أى حال . ولكن الذى يعنينا هو ظاهرة لغوية أخرى لم يحفل بها علماء اللغة العرب ، لأنها كانت منهم فى محل الاستهانة — بل والإنكار . وهذه الظاهرة هى نشأة التعبيرات التى نطلق عليها بالمصرية عبارة « تعبيرات أولاد البلد » أو « التعبيرات البلدية » . وتحتل مثل هذه التعبيرات مكاناً هاماً من الدراسات اللغوية فى أوروبا . ويطلق عليها بالإنجليزية اسم « Slang » ، وبالفرنسية « Argot » وقد اضطرنا هنا لاستعمال كلمة « البلدى » ، بالرغم من عاميتها الواضحة ، لكونها فى نظرنا أقرب إلى الدلالة التى نريدها من الكلمات العربية المفتعلة ، التى لاتصيب الدلالة المقصودة فى صميمها . وقد انتهينا فيما قبل من تقرير نزعة الفرد فى التخلص من كثير من القيود اللغوية الجماعية . وتحرر الفرد من هذه القيود هو الذى ينتج تنوع الأسلوب من

فرد إلى آخر ، وابتكار الاستعارات والكنائيات في اللغة الفصحى . وهو كذلك الذى ينتج « التعبير البلدى » في اللهجات العامية . وموضوعنا الآن ينحصر في هذا اللون الأخير من التجديد في اللغة العامية .

وقبل أن نعالج موضوع التعبير البلدى ، أحب أن أفرق بين هذه الظاهرة في اللغة المصرية — والعاميات العربية كلها على ما أعتقد — وبين نظيراتها في اللغات الأوروبية . وقد سبق أن قررنا أن وجود لغة عربية فصيحة هي اللغة الأدبية ، إلى جانب اللهجات المحلية ، يجعلنا إلى حد كبير شعباً ذا لغتين . وقد قررنا كذلك أن التوحيد بين لغة الكتابة واللهجة العامية لن يكون تاماً ، حتى يتحقق لنا في مصر والبلاد العربية ، ما تحقق لأوروبا منذ عهد طويل ، من تعميم التعليم . وهذه خطوة قد يطول أمدها بعض الطول . ومن نتائج اختلاف مستوى التعليم في مصر انقسام المجتمع — باعتبار لغوى — إلى طائفتين ، طائفة مثقفة تأخذ من العربية الفصيحة ، ومن اللغات الأوروبية ، عدداً عديداً من الألفاظ والتعبيرات ، وطائفة أخرى ليس بين يديها هذا المعين اللغوى تغترف منه . وعندما يلجأ أبناء الطبقة المثقفة إلى التجديد اللغوى ، يغلب أن نجد في تجديدهم أثراً للغة الأدب أو أثراً لإحدى لغات أوروبا — الفرنسية ، والإيطالية والإنجليزية بصفة خاصة .

ومن أمثلة ذلك الكلمات العربية « لذيذ » ويناظرها في العامية (حلو — كويس) ، « ممتاز » ويناظرها « شاطر خالص ، جدد قوى » ، « جداً » ويناظرها « خالص أو قوى » ، « متشكر » ويناظرها « كتر خيرك » ، ومن الكلمات الأوروبية « مرسى » « أوروفوار » الخ .

وإذا صح أن لدى المثقف هذا المعين اللغوى ، فإن لدى غير المثقف معينة اللغوى الخاص — أعني لهجته العامية نفسها — وفيها يتسكّر ويجدد ويتصرف .

ومن أمثلة ذلك : « قَلَّع » بمعنى اذهب ، « حَب » بمعنى افسح المكان قليلا ، « زأطط » بمعنى سُرَّ ، « زى البربند » بمعنى كثير الكلام الخ .

* * *

وقد خلط بعض واضعى قواميس « التعبير البلد » ، بين هذا النوع من التعبير وبين لغة التستر Language of Concealment — أو لغة اللصوص كما يسميها الأستاذ جيسبرسن مؤلف الكتاب — وبين « تعبيرات الأجلاف » Vulgarism . أما لغة التستر فهو موضوع قائم بذاته سنعالجه فى الفصل العاشر ، وأما « تعبيرات الأجلاف » فهو موضوع يدخل فى نطاق الطبقة اللغوية . كذلك خلط بعض الكتاب بين « التعبير البلدى » وبين اللهجات المحلية . ومن هؤلاء فيلات Villatte فى كتابه Parisismen ، باومان Baumann فى Londonismen وسينيان Sainéan فى Le language parisien . وسنفرد هنا بين « التعبير البلدى » وبين كل هذا .

إن السبب الرئيسى فى ابتكار التعبيرات البلدية ، هو شعور من يبتكرها بالتميز العقلى على سواه من أبناء جماعته اللغوية . وكثيراً ما نلاحظ أن بعض مفردات اللغة قد فقدت جذمتها وجاذبيتها ، بعد ما جرت على كل لسان . وفى هذه الحالة نشعر بالرغبة فى استبدالها بسواها من ابتكارنا اللغوى ، الذى له ميزة خاصة فى اعتبارنا . و « التعبير البلدى » نتيجة لهذه الرغبة الإنسانية ، أعنى رغبة اللعب بابتكار الألفاظ ، عند ما لا توجد ضرورة لهذا الابتكار . وبهذا الاعتبار نرى أن مثل هذه التعبيرات فى الواقع ترف لغوى ، يلجأ إليه فى العادة الشباب الذى يفتنه دائماً إحساسه بالتفوق ؛ فهو لا يفتأ يتظاهر به ؛ واللغة خير وسيلة للإعلان عن التفوق العقلى . ولهذا نجد أن مثل هذه التعبيرات شائعة بين صفوف الشباب بشكل واضح . ولناخذ مثلاً بعض التعبيرات المصرية لفكرة « الصفع » . وأبسط أنواع التعبير عنها هى العبارة « ضربته بالقلم » . ولكننا نجد إلى جانبها « لحسته قلم » . ولا شك

أن العبارة الأولى كافية في الدلالة ، ولكنها عبارة تقليدية موروثة ، لا يقنع بها هؤلاء الذين ينتفون التظاهر بالتجديد . ولمثل هذا السبب ابتكرت العبارة الثانية وكثير غيرها للدلالة على نفس هذا المعنى . وأظنك تلاحظ في العبارة الثانية نوعاً من الشاعرية ؛ فقد استعملت الفعل « لحس » ، وحركة اللحس سريعة ، لا تستعمل إلا طرف اللسان . وهذه الحركة شبيهة بالصفع الذي تستعمل فيه أطراف أصابعك . أما عبارة « فقهته ألم » و« هفّيته ألم » فيبينهما وبين « لحسته ألم » اختلاف معنوى ؛ حيث أن الضرب فيهما بكافة اليد .

وهكذا تتبين قدراً كبيراً من الفن والتجديد في « التعبير البلدى » .

ولما كان « التعبير البلدى » يقصد إليه من أجل التجديد ، فإنه لا بد من استبداله ، بعد أن يشيع استعماله ، وتذهب جدته . ويحدث في هذه الحالة أن نتذكر تعبيراً آخر يأخذ محله ، وهنا يسقط التعبير القديم من الاستعمال أو يبقى تعبيراً لغوياً عادياً . وهذا يفسر كثرة التعبيرات عن فكرة الصفع ، هذه الكثرة التي نسرّد لك منها ، إلى جانب ما ذكرنا ، عبارات : « سكعته ألم » « تشته ألم » « نشيته ألم » « خطفته ألم » « ادبته ألم » و« سكّيته ألم » . ويمكن تقسيم الأفعال التي تستعمل في هذه التعبيرات إلى نوعين ، أولهما يدل على سرعة الضرب مثل : « لهفته » « خطفته » « تشته » « لسعته » ، وثانيهما يدل على التمكن من إيقاع الحدث مثل « هفّيته » « سكعته » « لرقته » « رقعته » الخ . وكل من هاتين المجموعتين من الأفعال تفيد العنف بأحد نوعيه ، تمكن الحدث أو سرعته وإيلامه . وإلى جانب هاتين المجموعتين ، مجموعة أخرى من الأفعال يكون الحدث عند التعبير بها عادياً . ومن هذه : « ناولته » ، « إديته » « عطيته » . وفي هذه المجموعة الأخيرة لا تتركز طرافة التعبير في إحكام الحدث ، كما في الحالتين السابقتين ، بل في الحالة النفسية التي تصورها هذه الأفعال حين تعبر عن الإعطاء ، وهو حدث ينصب

في العادة على أمور رضية مقبولة ، ولكنها هنا تستعمل لأمر أليم مهيئ .
ويبدأ « التعبير البلدى » في مكان ما وبين بيئة خاصة ، ثم لا يلبث أن ينتشر
ويبقى قبولا شعبياً عاماً في زمن قصير . وقد يكون من حظ بعض المفردات
والتعبيرات المبتكرة أن تعم حتى تصل إلى كل زوايا الوطن اللغوى ، كما قد يكون
من حظ الأخرى أن تظل قاصرة محدودة المجال .

وأنت تعرف العبارة : « يمسح جوخ » (بمعنى يتملق) ، وهى عبارة
كانت في الأصل « تعبيراً بلدياً » ، ولكنها انتشرت وساد استعمالها في كل
أنحاء مصر . وقد كانت هذه العبارة كثيرة الدوران على ألسنتنا بدار العلوم ، ولم نلبث
بعد حين أن تصرفنا فيها وتطورنا بها ، فقلنا : « يمسح جزم » لنفس المعنى ، ثم
لم نلبث أن جعلنا التعبير « يلمع جزم » ثم « يلمع » فقط .

وكل ابتكار من هذه الابتكارات قد أتى على أقباض الابتكار السابق له .
وذلك لأن مجرد شيوع أحد هذه الاستعمالات في دائرة أوسع من الدائرة
الخاصة من الطلاب ، الذين كانوا يعتبرون لأنفسهم بعض الامتياز الاجتماعى بين طلبة
القسم الداخلى ، كان يحتم ابتكار اصطلاح آخر ، لهم وحدهم ، وترك الاصطلاح
القديم لعامة الطلاب يلوكونه على قدر ما يشاءون . وفي هذه الأمثلة كلها ترى :

١ — انتشار بعض التعبيرات البلدية في كل أنحاء الوطن اللغوى

٢ — قصور بعض التعبيرات على بيئة خاصة لا تتعداها

٣ — تجديد الابتكار عند شيوع الابتكار القديم .

ويكثر هذا النوع من التجديد بين طلبة المدارس ، وفي ثكنات الجيش ،
والمصانع ، كما يكثر أيضاً بين الجماعات الخاصة والأندية ، وغير ذلك من الأماكن
التي تنظم عدداً كبيراً من الشباب .

وقد كان من الشائع بين جماعة من الأصدقاء هذه الأسماء ، « شخسر » لشخص اسمه « الشيخ رياض » ، « عَبر » لشخص اسمه « عبد الرحيم » ، « مُحَمَّدَكْ » لشخص اسمه « محمدى » ، « مَنَبَر » لشخص اسمه « منير » . كما كانت هذه الجماعة تقول « العِفْو » بدلا من « العفو » رداً على عبارات الشكر ، وغير ذلك مما لا تسعف به الذاكرة بعد عهد طال بها .

وقد ساد بين جماعة أخرى استعمال « اشكا » فى أواخر الأعلام ، فكان يقال « عِيدُ شكا » « لعبده » ، « أَحشكا » « لأحمد » ، وكانوا يقولون كذلك « اِحْشكا » (بتعطيش الجيم) بدلا من « ازيك » . وكذلك كان أفراد هذه الجماعة يردون على « ازيك » بعبارة « أدبنى ازيك » ؛ وهم هنا يستغلون وزن كلمة « ازيك » ، وهو يناظر وزن فعل الأمر ، ولهذا كانوا يأخذون منها كلمة على وزن الفعل الماضى . ويناظر استعمالهم هذا استعمال من يقول « أتادم » (تقدم) ومن يجيب « أدبنى اتأدمت » (ها أنا قد تقدمت) . كما كانوا يردون أحيانا بعبارة « الله يزيك » « على ازيك » . بدلا من « الله يسلمك » .

والتعبير البلدى ، كما قلنا ، تعبير مبتكر يشغف به الشباب ، وهو لهذا أمر شائع فى كل اللغات . وبالرغم من الخصوصيات الإقليمية والشخصية التى يتسم بها أى نشاط لغوى ، فإنه من الممكن أن نسجل بعض الخصائص العامة فى كل نشاط لغوى . وبهذا الاعتبار يمكن أن ندرس دراسة مقارنة ، هذا النوع من التعبير فى مختلف اللغات . وسنخرج فى نهاية الأمر ببعض النتائج التى قد تلقى ضوءاً على طبيعة الإنسان العقلية فى عمومها .

ويمكن لمن يتجه لهذا الدراسة الطريفة أن يجد كثيراً من العون فى القاموس^(١) الذى وضعه فارمر Farmer وهنلى Henley فى سبعة أجزاء ، والذى حوى عدداً

عديداً من المفردات المترادفة ، التي نعتقد أنها وليدة نزعة الابتكار ، وهذه النزعة هي مصدر « التعبير البلدى » .

ومن الموضوعات التي يكثر فيها استعمال « التعبير البلدى » أجزاء الجسم . ونحن نقول في المصرية عن الرأس هذه الكلمات : « قرعة » « زلطة » « زلبطة » « لفته » « بصلة » . وهذه الكلمة الأخيرة تستعمل بصفة خاصة في لعبة القفز ، حيث يقول الأطفال دائماً « وطى البصلة » . وتعبّر الإنجليزية عن الرأس كذلك بالفاظ Onion (بصلة) ، turnip (لفته) Pumpkin (قرع عسلى) الخ . أما الفرنسية فتقول عنها Citron (ليمونة) Poire (كثرى) Noisette (نوع من الجوز) . وتقول الألمانية Kürbis (قرع عسلى) . وأظن الشبه واضحا بين المعانى التي تستعملها كل هذه التعبيرات . وللم كلمة « رأس » في الفرنسية والألمانية قصة طريفة فكلاهما نشأت عن تعبير بلدى . فأما الفرنسية tête فأصلها اللاتينى هو testa (ابريق) ، وأما الألمانية Kopf فتشترك في أصلها مع الإنجليزية Cup (فجان) . وبشيوخ هاتين الكلمتين في الألمانية والفرنسية ، تغير معنى الكلمتين اللتين كانتا في الأصل تدلان على الرأس . وقد صارت الألمانية « haupt » بمعنى رئيس ، والفرنسية « Chef » بمعنى طبّاخ أو رئيس الطباخين . وهنا نلاحظ الشبه بين مصدر التعبير البلدى في اللغتين ، فهو في إحدهما « إبريق » وفي الثانى « فنجان » . وكذلك نلاحظ أن الكلمتين اللتين كانتا تدلان في الأصل على رأس قد تغير معناه ، بعد أن صارت الكلمتان المبتكرتان من مفردات اللغة العادية .

والأنف كذلك من أجزاء الجسم التى ينشط فى التعبير عنها الابتكار البلدى . وفى المصرية نقول « مناخير » ، ولكننا نقول أيضاً « منخور » و « خرشوم » . وتعبّر الانجليزية والدانيمركية عن الأنف بالفاظ معناها بالعربية « منقار » « بربوز » « صندوق التشوق » الخ

ونقول في المصرية كلمة « شفاف » ونقول إلى جانبها « شفائر » حين نعرض
بعضها، ثم نبالغ في الإساءة فنقول « شلاصيم » .

* * *

وقد يكون من الإطالة أن نستمر في الحديث عن التعبيرات البلدية المتعلقة
بأعضاء الجسم . ولهذا فسنتركها إلى معان أخرى يكثر فيها مثل هذه التعبيرات .
ومن هذه ، السباب ، السخرية ، الغباء ، السكر ، الأطعمة والمشروبات . وقد
تعرضنا من قبل لموضوع السباب في العامية المصرية ^(١) . ونضيف إلى جانب ذلك
نوعين يمكن أن يدخلوا في موضوع السباب .

أما الأول ، فهو التعليق على ردود من هو أدنى ، بنوع من الشتم التي تشتق
مادتها من الرد ذاته . فلو ناديت خادمك فرد عليك بلفظ « إيه » فكثيراً
ملتعلق على الرد بعبارة « جك أوه » وإن رد بلفظ « نعم » قلت « نعمة ترفضك »
وإن قال « لا » قلنا « لأه في سيرك » ولو سألت « من فعل هذا » فقال « هو »
قلت « جك هوا » ولو قال « انت » قلت « جك تني رأبتك » (رقبتك) . ^(٢)
أما الثاني فهو التعليق على الأمر بعبارة سباب مشتقة من مادة الأمر . ومثال ذلك
« هش هَشَك وجع بطنك » ، « سَك سَكك ضرب الدم » ، « إمشي جك مَشَش »
« بس بَسَك عفريت » « حط حط تقايلك » .

وهذان النوعان متشابهان في أنهما يستعملان مادة الأمر أو الرد في ابتكار
ألفاظ جديدة . وقد لا تكون هذه الألفاظ المبتكرة ذات معنى على الإطلاق .
ومثال ذلك « جك أوه » « سَك سَكك عفريت » إذ أن « الأوه » « والسك »

(١) انظر ص ١٥٣

(٢) من الأساليب التي نلجأ إليها هنا أيضاً إعادة لفظ الرد متبوعاً بعبارة في عنيك ، فلو
قال الخادم [نيم] قلت نعم في عنيك أو إيه لقلت « إيه في عنيك » ... الخ

ليست من الكلمات ذات الدلالة اللغوية المحددة ؛ وكل ما في الأمر أنهما امتداد للأمر أو الرد السابق عليهما . وقد يتصادف أن تتشابه الكلمة المستعملة في الرد أو الأمر مع بعض المفردات الموجودة في اللغة بالفعل ، وهنا تستعمل هذه المفردات في التعليق عليهما . ومثال ذلك « بس بس لك مادقتيه » و « انت » والتعليق عليها « جك تنى رقتك » . والشبه الصوتي واضح بين لفظ الأمر « بس » وبين الفعل « بس » ، وبين الضمير « انت » والمصدر « تنى » . أما الرد على « نعم » فيتردد بين « جك نعمة ترفضك » و « جك نعمة ترفضك » ، أى بين الاشتقاق من لفظ « نعم » وبين استعمال كلمة « نعمة » التى تشابهها تشابها صوتيا .

ومن أساليب السخرية وصف الشخص الذى نسخر منه بأوصاف حميدة ، على سبيل التهمك . وفي الإنجليزية يقال nice man بمعنى « شخص دنى » مع أنها في العادة تعنى « رجل لطيف » . وفي المصرية تقول « لأه ناصح خالص » « اسم الله زكى ياخى » وغيرهما ، لوصف شخص بالغباء .

ومن أنواع السخرية كذلك إطلاق أسماء خاصة على من نسخر منهم . وقد لا يكون لهذه الأسماء أية دلالة لغوية على الإطلاق ، وقد تكون ذات دلالة معيبة ، أو ذات دلالة عادية ولكنها صرفت عنها . ويبدو أن مجرد إطلاق اسم على شخص للسخرية به ، كاف لتحقيق هذا الهدف ، سواء كان الاسم فى ذاته دالاً على السخرية أو غير دال . وأذكر ذات مرة أننا سمعنا راديو لبنان يقدم أحد الموسيقيين باعتباره « أمير البزق » ، و « البزق » آلة موسيقية . واتفقنا على إطلاق هذه الكلمة على أحد الزملاء وكان قصيراً غليظ القوام . وجلسنا نتحدث حتى دخل فصاح أحدنا « أمير البزق » فهاج هذا الزميل وماج . وكان يكفى بعد ذلك أن تذكر لفظ « البزق » أولفظ « الأمير » حتى يستشيط غضباً . ولم يكن الزميل يعرف معنى كلمة « البزق » ، ولكن الجرس الصوتي لهذه الكلمة كان السبب فى اختيارنا لها وفى غضبه منها .

وقد ينشأ التعبير البلدى على أساس من تسلسل الأفكار . ومثال ذلك فى الإنجليزية قولهم *Keep your head* (احتفظ برأسك) يستعملونها لمعنى « كن حاضر الذهن » وقد تطور هذا الاستعمال إلى *Keep your hair* (احتفظ بشعرك) ، ثم إلى *Keep your wool* (احتفظ بصوفك) لنفس المعنى . وأظنك تدرك تسلسل الفكرة من الرأس إلى الشعر إلى الصوف . وقد كنا نقول وننحن طلاب عن الفتيات « قوارير » عندما لا يزيد ذكر كلمة فتيات صراحة . وأساس هذه التسمية قول النبي « رفقا بالقوارير » ، ثم استعملنا بعد ذلك المفرد قفلنا « قارورة » ثم « آرورة » (عامية مأخوذة من الفصيحة قارورة) وقلنا كذلك « إزازه » ثم « كازوزة » يزيد « فتاة » وأنت ترى هنا التسلسل من « قوارير » إلى « قارورة » ثم « آرورة » ثم « إزازه » ثم « كازوزة » .

وقد ينشأ هذا التعبير أيضاً باختصار الكلمات أو تركيبها . ومثال الاختصار مع التركيب الكلمات العربية « حوقل » أى « قال لا حول ولا قوة إلا بالله » « حيعل » أى « قال حى على الصلاة أو حى على الفلاح » و « صلعم » أى « صلى الله عليه وسلم » . ومن أمثلة الاختصار ما ذكرت لك من قبل عن استعمال « شخر » بدلا من « الشيخ رياض » و « عر » بدلا من « عبد الرحيم » .

وفى اللغات الأوروبية نجد لنزعة اختصار الكلمات أثراً كبيراً . ومن أمثلة ذلك فى الإنجليزية *lab* وهى اختصار كلمة *laboratory* (معمل) ، *bus* وهى اختصار كلمة *omnibus* (أتوبيس) ، *cab* وهى اختصار *cobriolet* (سيارة) . وفى الفرنسية *kilo* وهى اختصار *Piano kilograme* وهى اختصار *Piano forte* *auto* (وهى ألمانية أيضاً) وهى اختصار *automobile* (سيارة) .

وقد قسم سينيان التعبير البلدى إلى قسمين : قديم *argot ancien* وحديث *argot moderne* . وقد قال إن نزعة الاختصار توجد فى الحديث دون

القديم . والواقع أن ما سماه تعبيراً بلدياً قديماً ، ليس تعبيراً بلدياً على الإطلاق ، وإنما هو داخل في نطاق لغة التستر التي سنتحدث عنها فيما بعد . والفروض أن لغة التستر تلجأ إلى إخفاء معالم الكلمات ، ومجرد الاختصار لا يحقق ذلك . وهذا هو السبب فيما لاحظته من عدم وجود الاختصار في التعبير البلدى القديم .

وزعة الاختصار تظهر بوضوح في البلاد التي يزيد حظها من الحياة المدنية . وسبب ذلك أن الزمن في مثل هذه الحال عنصر جوهري . أما في البلاد التي لم توغل المدنية في حياتها إغلا كبيراً ، فليس للوقت أهمية كبيرة ، ومن ثم نرى زعة اختصار الكلمات محدودة قليلة الأثر .

ويمكن تصور الفائدة العملية لاختصار اسم الولايات المتحدة الأمريكية : United States of America إلى u. s. a. حين نتذكر كم مرة يكتب فيها هذا الاسم في الصحف والإعلانات ودور الطباعة ونشرات الأخبار !!! إن الاختصار ينزل بعدد حروف هذا الاسم من واحد وعشرين إلى ثلاثة !!

ليست زعة الاختصار إذن كما قد يتوهم البعض ، وليدة رغبتنا عن الكلام الطويل ، فكثيراً ما نتحدث لمجرد الحديث ، وكثيراً ما تنطلق ألسنتنا وراء أفكارنا حين تتسلسل وتتابع بما لا طائل تحته .

وإنك لتلاحظ القيمة العملية للكلمة المختصرة « صلعم » حين تكتب موضوعاً يرد فيه اسم النبي ، تتوقع أن يقرأه قوم من المحافظين . إن هذه الحروف الأربعة التي يكتبها القلم دفعة واحدة ، تغني عن كتابة عشرين حرفاً ، يتوقف القلم أثناء كتابتها ست مرات ، ليفصل بين كلمة وكلمة ، أو بين حرف لا يوصل بما بعده ، وما يليه من حروف .

ونحن نلجأ في لغتنا المصرية إلى نوع آخر من الاختصار . فنقول : « المجمع اللغوى » مثلاً ، وقد كان الاسم : « مجمع فؤاد الأول للغة العربية » فاكثفينا (م — ١٢ اللغة بين الفرد والمجتمع)

بكلمتين بدلاً من ست . ومصدر هذا النوع من الاختصار ليس الضرورة العملية كما هو الحال في « صلعم » و U. S. A. ؛ بل عملية نفسية ، تنتخب من الاسم المركب أهم أجزائه المميزة ، وتسكتفي بها عن الإسم كله . ويظهر ذلك في أسماء الأعلام المصرية المركبة من « عبد » مضافة إلى اسم من أسماء « الله » سبحانه . وليس من الغريب أن يقال عن « عبد العزيز » ، « عزيز » ، وعن « عبد الحميد » ، « حميد » ، ولكن الشائع الكثير أن يقال « عزوز » و « حمدي » . وهذا نوع من اختصار الاسم الطويل والاكتفاء بالجزء الجوهرى في الدلالة .

كذلك نجد أن مثل هذه الأسماء قد تختصر إلى « عبده » . وفي هذه الحالة لا يكون بين أفراد الأسرة أكثر من شخص يدعى بهذا الإسم . وقد يحدث أن يكون هناك أكثر من شخص يسمى بالاسم المركب من « عبد » واسم من أسماء الله ، وأن ينتج عن ذلك أن يدعى أكثر من شخص بالاسم المختصر « عبده » . وفي مثل هذه الحال نلجأ إلى التمييز بوسائل أخرى ، فنقول « عبده الصغير » ، « عبده الكبير » مثلاً .

وهذه الحالة جديرة ببعض التأمل . فقد اختصرنا كلاً من الاسمين بخذف المضاف إليه (فصار « عبد الحميد » مثلاً « عبده ») ، ثم أطلقنا الاسم من جديد بأن وصفناه بصفة من الصفات . وذلك شاهد على أن العامل الجوهرى في اختصار الأسماء ليس مجرد الرغبة في الاختصار ، بل هناك إلى جانب ذلك اعتبار آخر ، هو القيمة الاجتماعية للاسم المختصر .

وترداد نزعة الاختصار في لغة العناوين والإعلان ، وما شابه ذلك من نشاط لغوى ، يعتبر من مميزات حياتنا الحديثة . وذلك أن لغة الإعلان وما يماثلها نلجأ إلى تركيز الألفاظ وتقليلها ، لتسكون أيسر على ذاكرة الجمهور . وقد نلجأ أحياناً إلى

القائمة على مثل هذا النوع من النشاط اللغوى إلى إدخال كثير من الاستعمالات اللغوية ، وابتكار عدد عديد من الألفاظ . ومنذ أسابيع قليلة طلعت علينا شركة شل بهذه الحروف (ا . ض . ا) بديلا عن (إضافات ضبط الأشغال) . ولا شك أنه من السهل على الجمهور أن يسمى النوع الجديد من البترول الذى تدعو إليه الشركة بهذه الحروف الثلاثة .

كما أن هذه الحروف الثلاثة لا تدفع إلى مثل هذا التيه الذى وجدت نفسى فيه أزاء هذه العبارة الغريبة . ولن تكون هذه الحروف أكثر من اسم لا ندرى حقيقة مسماه ؛ وكم من الأسماء لا ندرى حقيقة مسمياتها . ومن أمثلة الاختصارات أيضاً هذه الكلمات الجديدة التى أخذت صفة لغوية عالمية مثل « يونسكو » Unesco وهى اختصار للعبارة الإنجليزية :

United Nations Scientific and Cultural Organisation

مؤسسة الأمم المتحدة للشئون العلمية والثقافية .

وهذه الحروف السبعة اختصار لسته وثلاثين من الحروف . وكلمة « يونسكو » (Uono) وهى اختصار لعبارة United nations organisation (هيئة الأمم المتحدة) . ومنها أيضاً ما نرى من اختصار أعلام الأشخاص ، بالاكتفاء بالحروف الأولى مثل « م سعيد » بدلا من « محمود سعيد » .

ولا أشك فى أن حياتنا المستقبلية ستشهد كثيراً من مثل هذا النشاط اللغوى الذى تهتم الدراسات اللغوية الحديثة به اهتماماً كبيراً .

* * *

وللتعبير البلى نشاط واضح فى كل اللغات . وسأعرض عليك هنا بعض ما ألاحظه فى عاميتنا المصرية من تأثير مثل هذا التعبير فى الصيغ والمفردات ، معترفاً لك فى نفس الوقت بأن الأمر يحتاج إلى دراسة متسعة ودقيقة . ومن ذلك :

أولاً — ازدواج الألفاظ .

وهو على نوعين . الأول : ورود لفظين مرتبطين بطريق تداعى المعانى . ومن ذلك « وشكْ ضهرْكَ » ، « كلامْ وحديثْ » . والثانى : ابتكار كلمة تماثل الكلمة الأصلية فى شكلها الخارجى — أعنى الميزان أو الأصوات . ومثال ذلك « فلانْ وعلانْ » « حتتْكَ بتتْكَ » ، « يا سخامهْ يا لطامهْ » ، « زعيطْ ومعيطْ » ، الخ .

ثانياً — ابتكار أوزان خاصة ومنها :

(١) وزن فُعَيْلٍ مثل صغير ، زغير ، رفيع ، سفيف ، أليل (قليل) ، دليع ، للأشياء الصغيرة . ولعل هذه الصيغة ذات علاقة بصيغة التصغير فى العربية .
(ب) وزن مَفْعَلٍ مثل « محندقْ » ، « مزنهرْ » ، « مأنعرْ » ، « متنفخْ » .
وقريب من هذا الوزن ، « مسلوعْ » ، « مدروخْ » وغير ذلك .

(ح) انتهاء بعض الكلمات بحرف الطاء مثل « مسخمطْ » وأصلها من (سخامْ) ، « مبغلطْ » ، وأصلها من « بغلْ » ، « مشلفطْ » ، « مأنطْ » « محفلطْ » الخ ولا أدرى لهذه أصلا .

وقد ينتج عن التصرف فى الأوزان بهذا الشكل أن نأخذ من الكلمة الواحدة كلمات عديدة . ومثال ذلك « زغنْ » ، « وزأنْ » ، « وزغنططْ » ، « وزأنططْ » ، « وزغنونْ » ، « وزأنونْ » ، وصغير « والجميع من كلمة « صغير » .

ثالثاً — ابتكار بعض الألفاظ :

ومثال ذلك « بريندْ » ، « فكيكْ » (فى عبارته « آلْ يا فكيكْ ») . ومنها شعنونَهْ ، (بمعنى مجنونَهْ) أرردعْ (بمعنى كل) . والعبارات التى تستعمل فى التعوايد ودعاء الجن مثل « اشتاتاً اشتوتْ » . ومن أنواع الابتكار الجزء الثانى الذى يستعمل فى التركيب الناتج عن ازدواج الألفاظ الذى أشرنا إليه ، مثل « لطامةْ » و « بتتْكَ » . فى العبارات السابقة .

رابعاً — وضع الإسم الجامدموضع المفعول المطلق (adverb) ، ويكثر هذا التعبير مع أفعال الحركة . مثل « جه هوا » « راح حمامة » . ومثل هذا النوع داخل في نطاق الأسلوب ، إلى جانب اتصاله بقواعد اللغة .

خامساً — الاقتراض . والاقتراض اللغوى موضوع واسع الأطراف . وقد افترضت العامية المصرية من مختلف المصادر ، وعلى الأخص العربية الفصحى والتركية واللغات الأوربية وخاصة الإيطالية . وتخضع الكلمة المفترضة لطبيعة اللغة المقرضة ، فتتشكل وتتطور بالطريقة التى تسير عليها كلمات اللغة العادية ، وإن كانت قد تحتفظ بكثير من الخواص الأصلية فى اللغة التى نقلت منها . ودراسة الاقتراض واسعة الأطراف ، فمنها الدراسة الصوتية والتركييبية ، والأسلوبية ، وسأكتفى لك هنا بأمثلة قليلة .

اقتبست المصرية من التركية المقطع « جى » للنسب ، قلنا « عربجى » للنسبة إلى « عربية » كما قلنا « بلطجى » وهى فى الأصل نسبة إلى « بلطه » . و« أهوجى » نسبة إلى « أهوه » (قهوه) وغير ذلك . وكذلك اقتبسنا من التركية « خانة » التى توجد فى مثل « أجزخانة » ، « اتسكخانة » ، « كتبخانة » .

ومن الإيطالية أعرض عليك مثالين لعبت طبيعة اللغة المصرية فيهما دوراً له أهميته .

أما الأولى فالكلمة المصرية « بُأ » (بق = فم) . وأصل الكلمة الإيطالى هو « bucca » . وقد عاملت العامية هذه الكلمة معاملة الكلمات العربية التى يحتوى على حرف القاف ، حيث تقلب هذه القاف همزة . وهكذا نرى القاعدة الصوتية الخاصة بالكلمات العربية تطبق على كلمة غير عربية .

وأما الثانية فالكلمة المصرية « استبيننا » بمعنى « اتفقنا » . وأصل هذه الكلمة

هو العبارة الإيطالية « *estā beini* ». وكلمة « *esta* » معناها « يكون » (قارنها بالفرنسية *est*) وكلمة « *beini* » معناها « جيد » (قارنها بالفرنسية *bien*). وتقال العبارة الإيطالية بعد الاتفاق على أمر من الأمور، بمثل الطريقة التي تستعمل فيها الكلمة الإنجليزية « *alright* ». وعندما اقترضت المصرية هذا التعبير حدث أمران، أولهما أن جمعت من الكلمتين كلمة واحدة. وثانيهما أن عاملت هذه الكلمة معاملة الأفعال.

وسبب ذلك أن هذا التعبير يبدأ بالأصوات « اس ت » وهي تناظر المقطع المصرى الذى يضاف لأول الأفعال مثل « استغفر » « استفاد » الخ. وكذلك ينتهى التعبير بالنون المتحركة بالكسرة، وقد صيرتها المصرية فتحة طويلة، فصارت النهاية مماثلة للضمير « نا » الذى يتصل بنهاية الأفعال، مثل « كلنا » « شربنا ». وهكذا نجد أن « استبيننا » تماثل أى فعل يبدأ بالالف والسين والتاء، وينتهى بالضمير « نا ». ولهذا السبب تنصرف كبقية الأفعال، فنقول، « استبينتم » كما نقول « أكلمتم ». ولسكننا بالرغم من ذلك لانستعمل صيغة الأمر أو المستقبل من هذا الفعل المبتكّر.



وهكذا نرى أن للتعبير البلدى مصادر عديدة يعتمد عليها فى تغذية اللغة المشتركة. ولا تقتصر مصادره على الأصول اللغوية الخاصة باللغة ذاتها، بل قد تتعداها إلى لغة أجنبية، وخاصة حينما يكون التعبير متعلقا بابتكار أو فكرة مأخوذة عن بعض الجماعات الأجنبية. وليس من الضرورى خلو اللغة من تعبير مناسب عن فكرة ما، حتى يمكن نشوء تعبير بلدى لها، حيث أن التعبير البلدى كما سبق « ترف » لغوى نلجأ إليه بالرغم من كفاية التعبيرات العادية فى اللغة.

وقد تنشأ التعبيرات أو الكلمات البلدية عن أصل معروف ، ولكنها كذلك قد تنشأ نشأة لا يعرف لها أصل . ومنذ عهد غير بعيد نشأت في لغتنا المصرية كلمة « حليط » (بمعنى تملق) ، ولا أدري ولا يدري سوى ممن سألت لها أصلاً .

وبعد ، فإن التعبير البلدى يختلف في جوهره عن أنواع النشاط اللغوى الأخرى ، التى كثيراً ماتختلط لدى بعض الكتاب به . والتعبير البلدى مخالف للغات الخاصة ^(١) . فمن المعروف أن لكل صناعة أو حرفة تعبيراتها الخاصة بها ، لا يعرف دلالتها سوى أبناء هذه الصناعة أو الحرفة . وقد يشيع تعبير بلدى بين أبناء صناعة ما ، فيكون تعبيراً بلدياً داخل هذه اللغة الخاصة بالذات .

وكذلك يجب التفريق بين التعبير البلدى وبين ما يمكن أن نطلق عليه « لغة الأجلاف » *Vulgarism* . والفرق بينهما هو التقدير الاجتماعى لكل منهما . وبالرغم من أن كثيراً من الناس يرفض أن يستعمل التعبير البلدى ، فإن السبب فى ذلك هو أن مثل هذا التعبير متطرف ، أو مستهتر ، بعكس الآخر الذى هو خشن غليظ .

(١) هى لغة جماعة من الجماعات كلغة التجارين أو الحدادين أو الجزارين . وتعتبر لغة النساء من اللغات الخاصة كذلك

الفصل التاسع

الخرافة واللغة

نعالج في هذا الفصل تأثير الخرافات والمعتقدات على استعمال ألفاظ اللغة. وليس مثل هذا التأثير بالأمر العجيب، فإن اللغة هي التعبير الخارجي للعاني النفسية، ومن بينها مخاوف المرء، ومعتقداته، وشكوكه، وأوهامه.

ولقد اتخذت فكرة الموت في نفس الإنسان مكانة حساسة، ومن ثم تنوع التعبير عنها في كل اللغات. ومن الملاحظ أن هناك اتجاهًا سائدًا بين مختلف اللغات لاستعمال الكنايات، بدلا من ذكر كلمة الموت بذاتها عند الحديث عنه. وفي العربية نستعمل لفظة « الوفاة » وهي مشتقة من « الوفاء »، أي رد ما يستحق الآخرون عند الإنسان.

وتعبر كثير من اللغات عن الموت بألفاظ بمعنى الذهاب. ففي الإنجليزية نجد العبارات الآتية تستعمل للتعبير عن الموت، وكلها تدل على الحركة.

(gone West، peg out، hop the twig، push up، hop off) الخ. وفي العربية نجد عبارات، أفلت شمس، شالت هامته، صعد إلى ربه، قابل ربه، لقي حتفه، من كل هذه العبارات التي تتضح فيها فكرة الذهاب.

ويعمل ماك نايت M' knight استعمال مثل هذه العبارات للدلالة على الموت، بأنها محاولة لتخفيف السكارة، بالتكنية عنها بدلا من ذكر ما يدل على الحدث الصريح. فعندما تقول عن شخص إنه قد مات، « مسكين راح لحاله »، فإننا تهون على أنفسنا أو على السامع، بجعل « الموت » مجرد ذهاب الشخص لبعض شأنه.

وعندما تقول « توفاه الله » ، ندعى أننا لم نفقد في الواقع شيئاً ، بل لقد استرد صاحب الشيء وديعة أودعنا إياها ، وهكذا .

وقد يكون في هذا القول كثير من الصحة . ولكن الواقع أيضاً أننا نتفادى استعمال الألفاظ الدالة على الأحداث والأمور التي تزجنا ، لما هو مستقر في نفوسنا من اعتقاد ، بأن بين هذه الألفاظ وبين الأحداث الدالة عليها ، علاقة أقوى من مجرد الدلالة . أننا نتوهم أن لفظ الموت مجلبة للموت ، وأن لفظ الخراب مجلبة للخراب . ولهذا تتبعها بعبارات أخرى تدفع بها روح الشر ، التي كادت هذه الألفاظ تجلبها علينا ، فنقول بعد لفظ « موت » أو « سُل » أو « خراب » أو نظير ذلك عبارات « كفى الله الشر » « حد الله » « بعد الشر » الخ . ونحن نستعمل هذه العبارات في أعقاب تلك الكلمات ، لنُدفع الكارثة الكامنة وراءها .

لقد لاحظت السكاتبة الإنجليزية روز ما كولي Rose Macaulay الفرق في الدلالة بين « سقط الرجل » و « سقطت المرأة » . فسقوط الرجل موت ، وسقوط المرأة وقوعها في رذيلة تمس عفافها . وتتعجب السكاتبة من الفرق بين الدالتين ، مع أن كل ما يختلف به إحداها عن الأخرى هو مجرد التذكير أو التأنيث . ونحن لا نساءل هنا عن سر الفرق في معنى العبارتين ، بل عن السبب الذي من أجله استعملنا كلمة « سقط » للقتل مرة ، ولارتكاب الرذيلة مرة أخرى .

ومما هو جدير بالنظر كذلك ، تعبيرنا في لهجتنا المصرية عن محل قضاء الحاجة . ومن الألفاظ التي تستعمل لهذا ، الكنيف ، الكورسى ، المستراح ، بيت الراحة ، بيت الأدب ، المرحاض ، دورة المياه ، السكابيه الخ . ويتساءل المرء عن السرفى وجود هذه السلسلة الطويلة من الألفاظ ، فلا يجد تعليلاً معقولاً ، إلا أن هذا المكان هومنا في محل الاستهجان ، ولذلك نثرع إلى عدم ذكر اسمه الحقيقي والتسكينة عنه بلفظ أو عبارة . ولكن هذا اللفظ ، أو تلك العبارة ، لا يلبث أن يلتصق بهذه الدلالة ، ويرتبط بها ارتباطاً قوياً يجعلنا ننفر منها ، فنلجأ إلى ابتكار لفظ آخر .

ولا يلبث هذا اللفظ الجديد بدوره أن يلتصق بالمعنى فنعمد إلى تغييره ، وهكذا .
والكلمات التي ذكرتها لك تتميز اشمئزازنا بدرجات مختلفة ، ولعل أخفها في هذا ،
الكلمة الأخيرة ، وأكثرها الكلمة الأولى^(١) .

وفي القرى المصرية لا نجد الأطفال يتحدثون عن الجن باسم « العفريت »
أو « الشيطان » ، بل يقولون مثلاً « امبارح بالليل شفت بسم الله الرحمن الرحيم »
فيعبرون بالبسملة عن دلالة أحد هذين اللفظين .

ولا يقرأ اليهود الكلمة العربية الوهيم (الإله — الله) كما هي مكتوبة على
الإطلاق ، بل يستبدلون بها كلمة « ادوناي » بمعنى « سيدى » أو « ربى » .
ومن كل هذا ترى أننا حين نتفادى استعمال كلمة من الكلمات ، إنما نكون
في ذلك مدفوعين بأحد عوامل كثيرة ، من الخوف ، إلى الاستهجان ، إلى الاحترام
وغير ذلك .

ولن يمكن لنا أن نفهم حقيقة اللغة ، لو نظرنا إليها باعتبارها وسيلة منطقية
معقولة للتفاهم البشرى فحسب . واللغة بالنسبة للطفل وللرجل البدائي ليست مجرد
وسيلة للتعبير عن الحقيقة ، بل هي إلى حد كبير ، الحقيقة ذاتها . وإلا فلماذا يخاف
الطفل من ذكر كلمة « بعبع » ، بالرغم من أنه لا يرى أمامه شيئاً ؟ بل ولماذا تنزعج
أنت من كلمة « الرسوب » لو لم تكن الكلمة ، في اعتبارك ، ذات الفكرة التي
ترعجك ، أو على الأقل قوة تستطيع أن تنزل بك هذا الحدث الذي تخشاه ؟
لقد تربت مثل هذه الأحاسيس معنا في مهد طفولتنا .

وذلك لأن الطفل لا يلبث في شهوره الأولى ، أن يدرك أن للكلمة قوة
وسلطاناً . وعندما صرخ لأول مرة وجرت أمه إليه تنفذ له ما يرغب فيه ، وجد

(١) من الطريف أن نلاحظ أن الكلمة الأخيرة أوروبية مقترضة ، أما الكلمة الأولى
فشائعة في القرى . وقد تدخل التقدير الاجتماعي في الحكم على قيمة هذه الألفاظ ، فخفت أوروبية
الكلمة الأخيرة من حدة اشمئزاز الذي تثيره الدلالة الأصلية ، بينما زادت الكلمة الرقيقة
من هذه الحدة .

في حنجرته وسيلة سحرية لتحقيق أغراضه ، فكما تضغط أنت على زر الجرس فيهرع إليك الخادم يتعهد ما تريد ، يطلق هو صيحة من حنجرته لها مثل هذا الأثر على ذويه . وعند ما يتزايد صياحه تلجأ أمه إلى الحديث عن « البعبع » أو « الغول » ، فتكتسب هذه الكلمات في نفسه دلالة ينزعج لها . ويساعد كل ذلك على ربط الأفكار بألفاظها ربطاً شديداً . ويقول العالم النفساني سالى Sully « ترتبط الأسماء والأشياء في ذهن الأطفال ارتباطاً غامضاً بمقدار ما هو قوى . وعند الطفل أن الشيء الذي لا يعرف اسمه ، ناقص الوجود » . ويقول في مكان آخر (٢) « إن العلاقة بين الدلالة واللفظ ، لا تبدو للطفل علاقة بين شيء وشيء آخر ، بل إن الكلمة لديه هي حقيقة الشيء الذي تدل عليه » .

واعتبار الطفل للكلمة على الشكل الذي ذكرناه ، شبيه باعتبار البدائيين ، في مختلف أنحاء العالم لها . ولقد قرر كنود راسموسن Knud Rasmussen ، أكثر من مرة ، أن سكان جرينلاند يعتبرون الأسماء ذوات واقعية (٣) . وهو يقول في هذا الصدد « إنهم يعتبرون الإنسان مكوناً من اسم (٤) ، وروح ، وجسد ... والإسم شيء روحى تختزن فيه قوى الإنسان ومقدرته . ولذلك فإن تسمية شخص بإسم شخص ميت ، ليست مجرد وراثة للإسم ، لأنه يرث عن الميت كذلك مواهبه وطاقاته البدنية والذهنية ، التي تختزن في هذا الإسم . ولا يستقر لروح الميت قرار ، قبل أن يسمى بإسمه طفل وليد . وسبب ذلك أن فضائله ومواهبه تظل عرضة

(١) Nineteenth Century Nov. 1891 p. 739.

(٢) The Human Mind, 1892, p. 312.

(٣) لعل منشأ نظرية المثل لدى أفلاطون اعتبار شبيه بهذا . وهو يرى أن « رجل » حقيقة تعيش في عالم المثل ، أما أنا وانت ، فظلال لتلك الحقيقة .

(٤) عالم الأستاذان أوجدن وربنشارد موضوع الأسماء من وجهة نظر سيكولوجية في كتابهما : The Meaning of Meaning المطبوع في لندن سنة ١٩٢٣ .

للضياع ، حتى يسمى باسمه طفل وليد فيحتفظ بالفصائل التي يحويها . وعندما يموت الشخص يهرع اسمه إلى بطن امرأة حبل ، فيحفظها ظاهرة نقية حتى تلد وليداً يرث هذا الاسم ! ^(١)»

وتذكرنا هذه العقيدة بما نفعله نحن من تخليد ذكر آبائنا وأجدادنا ، بإطلاق أسمائهم على أبنائنا .

وظاهرة تسمية الأطفال بأسماء بعض الأقارب أو العظماء ظاهرة عامة في كل اللغات . وقد استطاع جوستاف ستورم Gustav Storm ، أن يكشف عن بعض الحقائق الطريفة ، التي تتصل بهذه النزعة في لغات اسكنديناويا . وقد وجد أن العادة قد جرت على تسمية الطفل باسم أحد أقاربه ذوى الصفات السكرية والمكانة العالية ، أملاً من والديه في أن يرث الطفل عنه صفاته ومكانته .

وقد انقرض مثل هذا الاعتقاد ، ولكنه خلف من ورائه عادة لغوية هي تسمية الأطفال بأسماء الممتازين من ذوى قرباهم . وقد وجد ستورم أن الطفل يسمى دائماً باسم أبيه ، إذا مات الأب قبل مولد الطفل . ولو استطعنا أن نصل إلى معرفة جميع العادات والتقاليد القديمة لشعب من الشعوب ، لأمكن لنا معرفة كثير من الأمور التي ترتبط بتسمية الأطفال .

ويكره كثير من البدائيين أن يذكروا أسماءهم للغرباء عنهم ، لأنهم يعتقدون أن في مجرد معرفة الغريب لأسمائهم نوعاً من السيطرة عليهم . ^(٢) فقبائل الساكلافا Sakalava في مدغشقر ، لا يخبرون الغرباء عن أسمائهم ولا عن أسماء قراهم ، خوفاً من روح الشر التي يستطيع الغريب عندئذ تسليطها عليهم . ولكل من أفراد بعض القبائل الاسترالية اسمان ، يعرف أحدهما عامة الناس ، ولا يعرف الآخر إلا أبناء

Nye mennester, pp. 121, 130 : gronland p. 124. (١)

A. Niceforo, la Génie de l'argot, paris 1912. (٢)

توتيه (أى أبناء القبيلة التى ينحدر منها والى تنسب فى اعتقادهم إلى حيوان من الحيوانات ، يتخذونه رمزاً للقبيلة ويطلقون عليه اسم توتيم) .
وفى جنوب إيطاليا لا يذكروا العين الشريرة باسمه ؛ بل بضمير الغيبة أو الإشارة إليه ، فيقولون « هذا الذى لا نستطيع ذكر اسمه » أو « الرجل الذى لا يذكروا اسمه » .
وذلك لأنهم يعتقدون أن مجرد ذكر اسمه مجلبة للشر .

وكثيراً ما نجد فى ثنايا الأساطير مثل هذه الظاهرة . ومن هذه قصة سانت لورنس St. Lawrence . وروى أنه عند ما كان يبنى كنيسه اتصلت به بعض القوى الخفية وحذرت من ذكر اسمها . ولكنه لم يستطع الاحتفاظ بالإسم فتحول حجراً أصم . ومثل هذه الأفاصيص كثير شائع فى أوساطنا الريفية المصرية .
ومن مظاهر القوة الخارقة للألفاظ ، هذه العادات الشائعة من الاستشفاء ، أو طلب العون ، أو دفع الشر بالدعوات والتعاويذ . ومن الظواهر الشائعة فى مصر وغيرها من بلاد العالم كتابة « الأحجية » لدفع العيون الشريرة عن حاملها ، أو دعاء « شهورش » ملك الجان ، لاستخدامه فى تحقيق غرض بشرى ، بقراءة أو كتابة بعض الألفاظ التى لا يفهم معناها فى أكثر الأحيان . وقد يتحتم أن نكتب هذه الأدعية والتعاويذ بشكل خاص ، كأن يستعمل الكاتب جلد غزال أو دم صقر لكتابتها .

ولا شك أن كل هذه العقائد ، بصرف النظر عما فيها من صواب أو خطأ ، ذات تأثير مباشر على الاستعمال اللغوى فى مختلف مظاهره ، من كتابة ؛ إلى نطق ، إلى ابتكار مفردات وتركيبات ، ولأجل هذا نهتم بها كلغويين .

ومن نتائج هذه المعتقدات من وجهة النظر اللغوية ما يأتى :

١ — استبدال اسم باسم آخر . ونجد هذه الظاهرة اللغوية فى كثير من الحالات .
وفى بعض البلاد يتغير اسم الملك لمجرد اعتلائه العرش . وقد كان ملك الإنجليز

السابق يسمى ألبرت ، ولكنّه اعتلا العرش باسم جورج السادس . وتحتفل بعض القبائل البدائية بتغيير اسم الفتى عند ما يبلغ دور الرجولة . وذلك بأن يجتمع عدد من الرجال وينالون عليه ضرباً وتعذيباً ، فإن تحمل كل ذلك ، فقد صار رجلاً واستبدل باسم طفولته اسماً آخر . وفي مدغشقر يتغير اسم في الملك في حفل تتويجه .

(قد كان اسم الملك راداما الثاني Radama قبل التتويج ، راكوتو Rakoto)
وعند ما يتم ذلك تحتفى من مفردات اللغة المحلية جميع الكلمات التي تتصل في الاشتقاق أو تتشابه في النطق باسم الملك الجديد وتستعمل مترادفاتهما . وتسود عادة مماثلة لهذه في جرينلاند ، عند ما يموت شخص من الأشخاص . وفي هذه الحالة يتخذ كل من يشابه اسمه اسم الميت لنفسه اسماً جديداً ، كما تسقط من اللغة المفردات التي تشابه الاسم في المعنى أو النطق ، ويستعمل بدلاً منها ، جمل أو ألفاظ مرادفة لها . وقد حدث عند ما مات رجل كان اسمه « قارب امرأة » ، أن أصبح السكان يعبرون عن القارب بقولهم (الشيء الذي تنتقل به المرأة من شاطئ لآخر) . وقد تبعث بعض المفردات التي قل استعمالها للحلول محل الأسماء ، التي تقارب في النطق اسم الميت . ويوصى ذوو الحكمة في جنوب الهند بتغيير اسم شخص من الأشخاص عندما يبطل شخص يحمل نفس الاسم بداء عضال . وفي مصر نشاهد تغيير أسماء كثير من القرى لأنها توحى بشيء من الاستهجان مثل « دار البقر » (مركز المحلة الكبرى) وقد سميت « الجارية » ، « كفر الجاموس » (بجوار القاهرة) وقد سميت « كفر فاروق » ، والعلولا (بمعنى البخلاء — مركز السنطة غربية) وقد سميت « الكرما » . ويفضل بعض أهالي « زفتى » أن يطلق على اسم مدينتهم اسم « البيضاء » .

٢ — تحريف نطق الألفاظ . ومن أمثال ذلك ما نرى في القرى المصرية شائعاً بين النساء . فبدلاً من أن تقول المرأة « يا نهار النيلة » تقول « يا نهار النيئة » أو

« يأنهار النيحة » ، وكذلك تقول بدلا من « يأنهار الرضا »^(١) « يأنهار الرخا » .
ويقول الامر يكيون gee للاستغراب بدلا من Jesus (اسم المسيح) ،
والانجليز ruddy بدلا من bloody و by Gum بدلا من by God وغير ذلك .
والسبب في هذا أنه ليس من الذوق السليم ، أن تستعمل مثل هذه التعبيرات
للاستغراب أو التعبير عن الضيق بشيء من الأشياء . ولكن مثل هذا النوع من
التعبير أمر فطري ، كثيراً ما يجد الإنسان نفسه مدفوعاً إليه . ولذلك يكتفى كثير
من الناس بالتحوير في صيغة الكلمات على الوضع الذي شاهده .

٣ — ذكر أو عدم ذكر الكلمات أو التعبيرات في ظرف أو زمن خاص .
ومثال ذلك امتناع أهالي جزيرة سيزر Sejer ، فيما بين عيد الميلاد ورأس السنة ،
عن ذكر أسماء البراغيث والقمل والفيران ، حتى لا تسكر في المنزل .

وفي جوتلاند يمنع الأطفال من ذكر كلمة lus (قمل صغير) عندما يجدونه في
أجسامهم ، ويفرض عليهم أن يقولوا basser (قمل كبير) . وذلك لأنهم يعتقدون
أن استعمال الكلمة الأولى — دون الثانية — يكثر من انتشار القمل في ملابس
الأطفال وأبدانهم .

ومن أمثلة ذلك في مصر قراءة أدعية خاصة في أوقات خاصة ، كالدعاء الذي
يقراه بمض المتصوفة عند ركوب البحر ، أو عند السفر ، أو بعد صلاة الفجر .
ودعاء نصف شعبان ، وليلة القدر ، والدعاء الذي يسبق إفطار الصائم ، كل ذلك
أمثلة لهذا النوع من الاستعمال اللغوي الخاص بوقت من الأوقات

* * *

ويمكننا الاستفادة بكل ما سبق ، في الدراسات اللغوية المقارنة والتاريخية إلى
حد كبير . فقد تفسر الخرافة لنا انقراض بعض المفردات ، وبعث بعض المفردات
التي انقرضت يوماً ما . ففي لابلاند ، نجد أن اسم الدب لا يجري على لسان الناس .

(١) تناظر هذه الكلمة في العربية « الردي » .

وهم يعبرون عنه بعبارة «الجد ذو المعطف الوبرى»، لا بكلمة واحدة . وقد عرفنا السبب في هذه التسمية ، عندما علمنا أنه قد ساد في هذه البلاد في بعض العصور ، اعتقاد بأن مجرد ذكر اسم الدب guouzhja يؤدي إلى افتراسه لماشيئهم . ولهذا السبب انقرضت هذه الكلمة لتحل محلها عبارة moedda-aigja بالمعنى الذى ذكرته لك .

وقد تمحير الباحثون في علم اللغة المقارن في تعليل عدم وجود كلمة «تناظر» الأفرقية arkos ، والسنسكريفية rk.sah (بمعنى دب) ، في بعض لغات سيبيريا . وقد استطاعوا تعليل ذلك بدراساتهم للخرافات والمعتقدات المحلية التى كشفت لهم أن سبب اختفاء مثل هاتين الكلمتين ، هو اعتقاد السكان بأن ذكر اسم الدب فال غير حسن . ولذلك فقد تركوا الاسم الأصلى وعبروا عنه بعبارات «مولانا» ، «الرجل العجوز الشهير» ، «الأب الكريم» الخ .

وفي اللغة الانجليزية والألمانية لا نجد اسماً للشعبان . ويطلق عليه في هاتين اللغتين اسمان مشتقان ، ففي الإنجليزية نجد Greeper [اسم فاعل من الفعل Greep (يزحف)] وفي الألمانية Schlange مشتق من الفعل slingen (يتلوى — يزحف) . أما الاسم الأصلى فلا نجده ، ولعل سبب ذلك أنه كان من الأسماء التى يحاول الناس تجنب ذكرها .

ونلاحظ كذلك في المصرية أننا نطلق على بعض الحشرات «أبو سبع رجلين» وعلى بعض الطيور «أبو قردان» و«أم قويق» . وليست هذه أعلام بل أوصاف ، نطلقها على الحشرة أو الطائر . ويتساءل الباحث في مثل هذه الحال عما إذا كان لهذه أسماء ذات يوم، ولكنها انقرضت للتشائم من ذكرها ، واستبدلت بها هذه الأوصاف . ويلاحظ الأستاذ ميليه Meillet ، أن الكلمات التى بمعنى (عين) في اللغات الهندو أوروبية لا تتسق العلاقة فيما بينها ، على شكل يطرد مع القاعدة المقررة

(١) من الطبيعى أن توجد الكلمة الخاصة بالدب في كل هذه اللغات لأنها تنحدر من أصل لغوى واحد .

لعلاقات الألفاظ في هذه اللغات ، بالرغم من الشبه بين ألفاظها . ويتوقع أن سبب ذلك هو تغيير في طريقة نطق هذه الكلمة ، لبعض الأسباب الراجعة إلى الخرافات ، التي سادت مواطن هذه اللغات في عصور مبكرة . وقد وجد أن من المحظور في جزر الملايا أن تتحدث عن « العين » في موسم الصيد . وقد أوحى ذلك إليه بما قرره من تعليل لشذوذ العلاقة بين الكلمات الدالة على العين في مختلف اللغات الهندو أوروبية كما ذكرنا .

لقد كتب الأستاذ ج . فاندرييس J. Vandryes مقالا عن علاقة دراسة الخرافة ، بدراسة تاريخ الكلمات etymology . ويرى أنه من الممكن التعليل لكثير من التغيرات الشاذة التي حدثت في بعض الكلمات على مختلف العصور التي مرت بها ، بعلاقة هذه الكلمات ببعض المعتقدات والخرافات التي حملت المتكلمين على تغيير بعض حروفها بحروف أخرى ، أو تبديل وضع حرف بوضع حرف آخر في نفس الكلمة . وقد مرت بك أمثلة لهذا النوع من تبديل الحروف في كثير من الكلمات المصرية . ومن الأمثلة التي ذكرها فاندرييس ما يأتي :

في اللغة القوطية Gothic يوجد كلمتان « للنعمة » هما digha ، ghaido . والفرق بينهما في ترتيب الحروف ظاهر ، حيث حلت « d » محل « gh » . وفي اللاتينية lingua ، dingua « لسان » ، وهي في القوطية tuggo والإنجليزية tongue والإيرلندية tenge . وفي هذه الكلمات ترى الفرق ظاهراً في الحرف الأول ، فقد تردد بين d ، l ، t . وقد ثبت من الاستقراء اضطراد تحول « d » في اللاتينية إلى « t » في القوطية والإنجليزية . ولكن المشكلة هي تحول « d » الموجودة في أول هذه الكلمة اللاتينية إلى « l » في نفس اللغة اللاتينية . ولا نجد فاندرييس تعليلًا (م — ١٣ اللغة بين الفرد والمجتمع)

غير الخرافة التي جعلت اللاتيني يقول dingua بدلا من lingua ، كما تقول المرأة المصرية « يانهار اسوخ » بدلا من « يانهار اسود » .

وسواء كان هذا هو السبب حقيقة ، أم أن هناك سبباً مجهولاً لهذا النوع من الشذوذ في تطور الأصوات ، فإن الذي نقول به أنه لا بد للباحث من أن يدخل في حسابه عنصر علاقة الكلمات بالخرافات والمعتقدات ، عندما يدرسها دراسة تاريخية ، أو دراسة مقارنة .

* * *

قبل أن نختم هذا الفصل نتعرض لموضوع لغة النساء وعلاقتها بالخرافة . وللنساء في كل جماعة لغتهن الخاصة التي تتمثل في عدد عديد من مفردات وتركيبات ، وطرق خاصة للنطق .

ومن أمثلة ذلك « يا حوستي » ، « يا اختي عليكى » ، « اسيد ما أبوك جاى النهارده » الخ . ولا أظن أن كثيراً من الرجال يقول « يا حوستي » أو « ياخويا عليك » : أما العبارة الأخيرة وهى شائعة بين النساء في قرى الوجه البحرى ، فيعاد لها لدى الرجال « يمكن أبوك جاى » . وتتدخل الخرافات في تغيير كثير من هذه الكلمات ، وقد مثلنا لك من قبل لذلك . وأود أن أذكر لك عرضاً أنه قد اشتق من كلمة « حوسة » عدد من الكلمات للاستعمال في السباب والتهكم . ويعيننا من بينها كلمة « اتوحس » ، وقد استبدلنا الحاء فيها كافاً ، فوجدنا لها صورة أخرى « اتوكس » . وكذلك نجد لصدرها « وحسة » صورة أخرى هى « وكسه » .

ومن الملاحظ على الجماعات البدائية أنها شديدة التمسك بتقاليدها ، معها

بدت لنا هذه التقاليد شكلية أو تافهة . ولناخذ مثلاً تصفيف الشعر ، أو لباس الرأس ، وكيف أن مجرد الخروج على الطريقة التقليدية المتبعة فيهما ، كان يعتبر لدينا إلى عهد قريب جريمة اجتماعية عظيمة . لقد كان مما يؤخذ على الشيخ محمد عبده أنه يتكلم الفرنسيه ويلبس الحذاء . وإلى عهد قريب جداً كنا نسمع النقد الحاد لمن يسير في الطرقات عارى الرأس أو مصفف الشعر ، بصرف النظر عما في تلك العادة أو هذه من ميزات أو فوائد . ومعنى هذا أن لشكلية السلوك قيمة كبيرة ، عندما يكون حظ الجماعة من الثقافة ضئيلاً محدوداً . إن لشكليات الأشياء في مثل هذه الجماعة قيمة جوهرية ، وذلك لأنها — أى الجماعة — ليست عميقة الإدراك . تستطيع الوصول إلى لب الحقائق ، ومن ثم فهي تحتفظ بقشورها . ومثل هذه المحافظة يتناول ولا شك حتى يصل إلى اللغة ، فكما يعيب أهل الريف سلوك المرأة المترجعة ، يعيبون كذلك من يقلدون منهم لهجة العاصمة . ولكن اللغة أدق من أنه تلاحظ العين المجردة جميع دقائقها وتفصيلاتها . ولهذا فإنها تتطور بالرغم من نزعة المحافظة ، بأسرع مما تتطورة مظاهر الحياة العامة الأخرى . وتختلف درجة المحافظة على التقاليد اللغوية باختلاف درجة علاقتها بعقيدة الجماعة . وأنت تلاحظ أن المحافظين من ذوبنا وأهائنا ، لا يدايمون أن يرضخوا للأمر الواقع ، فيسلموا لأمثالنا ممن عاشوا في القاهرة ، أن يتخلوا ، إلى حد ما عن الحديث باللهجة الإقليمية ، وإن فعل بعضهم ذلك على مضض . ولكن أحداً من هؤلاء لو سمح لولده أن يقول « أنا ألت » بدلاً من « أنا جلت » ، فإنه لن يسمح بالتحريف في نص من نصوص القرآن الكريم .

ونزعة المحافظة موجودة في الحالتين ، ولكنها في حالة الكتب المقدسة أقوى بكثير منها في النشاط اللغوي العادى .

ولمثل هذا السبب حافظ العرب على تلاوة القرآن ، بل أنهم قد ابتكروا علم التجويد والقراءات ، بل والعلوم العربية الأخرى ، لتصون هذا النص المقدس من التحوير أو التغيير ، مهما بدا تافهاً .

وقد حدث مثل هذا في الهند ، حيث نشأت علوم مماثلة — ولكن بنسبة أعلى من الدقة والإتقان — للمحافظة على نصوص الفيدكا المقدسة . وفوق ذلك كان الهنود لا يسمحون للغة هذه النصوص — وهى السنسكريتية — أن تستعمل لأى غرض آخر غير دينى . ولم تخرج السنسكريتية عن أن تكون مجرد لغة دينية ، إلا على يد غزاة من غير الهنود ، استعملوها للثقافة والأدب . وهكذا ترى أن للعقيدة والخرافة على السواء ، أثرهما الخطير فى النشاط اللغوى الإنسانى .

الفصل العاشر

الهراء اللغوى و لغة التستر

عالجنا فيما مر بك أنواعا من النشاط اللغوى التى تلعب الدلالة فيها دوراً هاماً .
ولكن هناك أنواعا أخرى من النشاط اللغوى ، يمكن أن توصف بأنها غير ذات
دلالة ، بل وبأنها لم تكن من قبل ذات دلالة ، ثم فقدتها لسبب من الأسباب .
وإن الإنسان — أو أن شئت بعض بنى الإنسان — ليستمتع فى كثير من
الأحيان بمجرد التلاعب بالأصوات والمقاطع التى لا دلالة لها ، أو التى ليس لها
دلالة كاملة . ونلاحظ ذلك بصفة خاصة بين الأطفال وبين المشعوذين ، الذين
لا يفتأون يرددون كلمات صنعوها وزعموا أنها ذات دلالة دينية مقدسة . وإذا صح
أن لأهل الحقيقة من مثلى ومثلك كلاماً ، فإن لأهل الطريقة من أمثالهم لغة أخرى ،
ترتقى بهم عن مستواى أو مستواك . وليست لغتهم هذه فى واقع الأمر
إلا مجموعة من الأصوات والمقاطع يرصونها رصاً ، ويدعون لها من المعانى والإشارات
ما شاء لهم خيالهم الخصب أن ينسبوا إليها . ومثل ذلك أو قريب منه ، ما يفعله
كتاب الأحجية والتعاويذ والرقى . ويعتمد هؤلاء دائماً على جرس الأصوات وتناسب
المقاطع . وقد لجأ لاستغلال هذه الصفات الداخلية للألفاظ ، بعض الكتاب العظام
مثل رابليه الفرنسى Robelais ، وجيمس جويس James joyce الإنجليزى .
وقد كانا يتكرران الألفاظ لمجرد جرس أصواتها وترتيب مقاطعها ، ثم يستعملانها
استعمالاً أدبياً راقياً . وكثيراً ما نصادف فى القصص الشعبية عن الجن أو الغول ،

وفي الأغاني القديمة ألفاظاً لا ندرى لها أية دلالة . ومن أمثلة ذلك كلمات « وحوى » ، « أيوحا » ، « حدارجه » ، « بدارجة » وغيرها . وليس لهذه الكلمات من معنى على الإطلاق ، اللهم إلا أن تكون استجابة إحساسنا لجرسها ، نوعاً من أنواع المعنى .

ولو راجعنا الأغاني^(١) القديمة بصفة خاصة ، على ضوء العقل والمنطق السليم ، لوجدناها نوعاً من الهراء الذى لا يقبل . ولعل كل مالها من وظيفة ، لا يعدو جرسها ووقعها الصوتى ، الذى يزيد فى عنفوان الانفعال النفسى الذى تثيره ألفاظ الأغنية أو اللحن التوقيعى لها . وهناك كثير من الألفاظ تعسر على الباحثين فهم أى معنى لها فى النصوص الدينية القديمة ، التى عثروا عليها وحاولوا تحليل عباراتها وتفهم ألفاظها . وقد افترض الأستاذ ميليه Meillet أن السبب فى عدم فهم هذه الألفاظ ، ليس كونها من الألفاظ المهجورة ، بل كونها من الألفاظ المتكررة لمجرد جرسها ، والتى لا دلالة لها على الإطلاق .

ونحن نسمى مثل هذه الألفاظ والتعبيرات باسم « الهراء اللغوى » ، ويشمل الهراء اللغوى أيضاً ، الأساليب الأدبية التى حاول كاتبوها عن قصد أن يعالوا بها عن مستوى أفهام الناس . وإن بعض نصوص كتاب الأвестا Avesta ، وهو كتاب هندي مقدس ، لغامضة غير مفهومة . ويبدو أن كاتبها قد قصدوا فعلاً إلى هذا الغموض بأن خالفوا طريقة صياغة الألفاظ التى تتبع فى اللغة السنسكريتية التى كتب بها الأvesta . وكذلك قصد أن تكون أغاني الإخوان الرومانيين Brethren of Rome^(٢)

(١) راجع كتاب Arbeit und Rythmus & awfl المطبوع فى Lerqzig سنة ١٨٩٩ مؤلفه Karl Bücher وفيه يروى الكاتب عدداً من الأغاني المعاصرة التى تحتوى على هذا النوع من الألفاظ والتعبيرات ص ٣٠٣ .

(٢) هؤلاء يمثلون طائفة دينية .

غامضة في تركيبها ، إلى درجة يعسر معها فهمها . وقد تعتمد المنشدون لهذه الأغاني أن يعتمد أسلوبها عن الأسلوب المألوف ، وبذلك صار لهم لهجة خاصة يفهمها عنهم من يتبعونهم ، ولو أن فهمهم لها جزئي غير تام . وعدم الفهم التام في هذه الأغنيات يضاف عليها كثيرا من الرهبة والقدسية .

ولقد حكى لنا ثالبتر Thalbitzer ما يماثل هذا عن سكان جرينلانده الشرقية . وقال إن هذه الظاهرة شائعة منتشرة في كل أنحاء العالم . وفي الشعر البدائي نجد عددا عديدا من الألفاظ والمبهمات غير المفهومة . وقد نجد أن صوتا من الأصوات يتغير دائما إلى صوت أو أصوات أخرى . وعند اليابانيين نوع من التمثيلات الدرامية ، تستعمل فيها طريقة من النطق بالألفاظ ، تخالف الطريقة المستعملة في اللغة اليابانية العادية . وتتميز هذه الطريقة بكثرة الأصوات الأنفية ، والمبالغة في توتر الأعضاء الصوتية عند النطق ، واستعمال نفثات تشبه صوت الرجل المبجوح ، والنطق بمقاطع الكلمات متفرقة بعضها عن بعض ، مع استطالة النطق بكل منها وغير ذلك^(١) . وقد قال الأستاذ إدوارد ساپير B. Sapir بوجود مثل هذه الظاهرة بين الهنود والبابوان .

وسأعرض لك هنا بعض النصوص المستعملة في العامية المصرية في ناحيتين من نواحي نشاطنا اللغوي . أما أولاها فهي لعب الأطفال ، وأما ثانيتهما فهي كتابة الرقي والتعاويد .

١ — لعب الأطفال :

وأعرض عليك نماذج للأغاني التي تصحبها .

(١) انظر ص ٧٨ في كتاب Phonétique de la Langue japonaise مؤلفه Edward Et.

(٢) انظر له : Abnormal Types & Speech in Nootka, p. 11 ff.

والتنودج الأول ، للعبة تقذف فيها الكرة إلى الحائط بينما تقال الأغنية .
وتصحب كل فقرة من فقراتها حركة خاصة . والأغنية هي هذه .

آيا آ ياما آ ياورا (ورق) العنب
شاشا محمود على باشا رئيس الكشافة
كسح كسحوك وانت في بيت أبوك
شيش مايجيش إلا بأمر شاویش
صاحبولى فتحه للمتولى
بساريه بحاريه رز على ملوخيہ
إيمہ أبلہ نعيمہ خباصۃ ولثيمہ
لوتہ فستان سکروتہ على آخر مودہ
أبي أزاز لي واحط الباءى (الباقي) في عبي
ربي إاعد (اقمدا) جنبي وهات أخوك على حجري
باني لجه ضاني من عند الجزراني
رواه أبلہ قلہ كسرت لى الأله (القله)
كوات سبع بنات ياريتهم كانوا اخواتي
جينو العوا (قلعوا) له عينه والعوض على الله
ألسطه طبأ (طبق) اشطه « قشطه » ما يكفيننا التسعة
ألسطه ثانيه طبأ (طبق) بامية ما يكفيننا الثمانية
سأفه (سقفه) وان دخل الديوان ضر روا له سلام بالمزيكة
سأفه (سقفه) اتنين على وحسين يباعين الاتنين تارا رارا را

ونلاحظ هنا وجود كلمات قد ابتكرت لمجرد وزنها وقافيتها ، حتى تتلاءم مع ما بعدها ، مثل « آيا آ » « شاشا » « صا صامبولي » ، كما نلاحظ استعمال الكلمة الإنجليزية one واشتقاق بعض الكلمات من أصول عربية معروفة ، ولكن على غير الأوزان الطبيعية لاشتقاق الكلمة العربية مثل « بحارية » و « الجزراني » .

والنموذج الثاني هو لأغنية تردد أثناء ضرب كرة من الجلد في الأرض ، ثم ضربها باليد بعد القفز وهكذا . ويقوم اللاعب — أو اللاعبه — بحركة خاصة أثناء غناء كل مقطوعة من مقطوعات الأغنية ، وهي :

ياكلو أول

يالانجا أول

ياسيسي ياسيسي

ياسيسي بولا

ياشام وزيت

ياكلو حرك

يالانجا حرك

ياسيسي ياسيسي

ياسيسي بولا

ياشام وزيت

ياكلو مدحك

يالانجا مدحك

يا سيمى سيمى

الخ

يا كلو كلّم

يا لنجا كلم

الخ

يا كلو تسأف (تسقف)

يا لنجا تسأف

الخ

ونجد هنا كذلك ما وجدنا في القطعة السابقة ، من استعمال كلمات مخترعة مثل « كلو » ، « لنجا » ، « سيمى » ، « بولا » ، وكذلك نجد اشتقاقاً لمصادر على غير الصيغ المألوفة . وهذه هي « كلّم » ، « حرك » ، « مدّحك » « تسأف » .
وهالك مثلين لأغنيتين ترددان مع لعب الكرة أيضاً :

آن دى تروا كاروفى كاروتته

بان صانصى وكان جنته

بان صانصى وكان تروا

ويمكننا أن نتعرف في هذه الأغنية على بعض الكلمات الفرنسية ، وإن كانت بعض الكلمات الأخرى لا نعرف ماأناها ؛ وربما كانت فرنسية الأصل كذلك ، ولكن درجة التحريف فيها كانت سبباً في عدم معرفة أصلها .
والأغنية الأخرى تستعمل فيها ألفاظ العد العربية محرفة .

آويو بامبا .

سانيو بامبا .

سلايو بامبا .

ارباسيو بامبا .

كاما بامبا .

ونجد هنا تحريفاً واضحاً للكلمات العربية أول (أويو) واثنين (سانيو) وثلاثة (سلايو) وأربعة (ارباسيو) . أما « كاما » فلا أدرى لها أصلاً .

وكل هذه الأغاني قاهرية تتداولها في الغالب البنات أثناء لعب الكرة . ومن أغانيهن الجمعية أيضاً أذكر لك سطوراً قلائل :

ترا ترا يا ضيلله ترا ترا بس الليله

بس بس يا ورق الخس

* * *

الهاشا باشا شاشا الهاشا باشا تك

* * *

بك بك بك بكبك بك بكبك بك

الله لا يوريك

الست مراآت بكبك بك

بتعمل من الفرخه ديك

* * *

نى نى نى بيعنى ولا تشتربنى

وهذه إحدى الأغاني الجمعية يغنيها الأطفال (البنات غالباً). وتبدأ طائفة الأغنية ،
ويأخذون في القفز تجاه الآخرين ، ثم يقفزون خلفاً إلى مكانهم الأصلي ، بينما يردد
الآخرون اللازمة :

- الجميع : برلا برلا برلا برلا برليله
فريق ١ — برلا برلا جالكو المرسال
برلا برلا برليله
فريق ٢ — عايزين إيه برلا برلا برليله
» ١ — عايزين فاطمه »
» ٢ — تجيبوها إيه »
» ١ — نجيب لها حلق »
» ٢ — ما يكفيهاش »
» ١ — كل حاجه ليها »
» ٢ — اتفضلوا خدوها »

وفي هذه القطعة الأخيرة ، نلاحظ تسلسل الأفكار. وكل ما فيها من غرابية هو
استعمال كلمات « برلا ، برليله ». ونورجعت إلى القطعة الأولى ، لوجدت عنصر المعنى
ينقصه تسلسل الأفكار ، فما هي العلاقة بين « ورق العنب » و « محمود علي باشا
رئيس الكشف » و « فتحة لمتولى » و « رز علي ملوخية » و « فستان سكروته

على آخر موده « و « أكل الب و وضع الباقي في العب « ثم « كسر القلة »
و « طبق القشطة و طبق الباميه » و « دخول الديوان » ؟!؟ ألا توافق معى على ما قلناه
من قبل من أن هذا النوع من النشاط اللغوى لا يمكن أن يقصد به تفاهم أو ظل
من التفاهم !!! .

ويشيع في القاهرة نوع من غناء الأطفال يتم بالتعليق على أواخر الكلمات
على هذا الشكل .

حلوانى الثانى كوا نانى

6

وانا مالى النالى كوا نالى

6

حموده النوده كوا نوده

6

الأوده النوده كوا نوده

وأنت ترى هنا نوعاً عن الاضطراب في هذا الأسلوب من اللعب بالألفاظ . فهو
يحتفظ بالكلمة الأصلية ثم يعلق عليها بطريقة مضطربة .

وليس مثل هذا النوع من النشاط اللغوى قاصراً على القاهرة ، بل إنه يوجد
في جميع أنحاء مصر . وسأورد لك أمثلة من أغاني الوجه البحرى ، وأخرى من
أغاني الصعيد .

أما أغنية الوجه البحرى فهي :

البف النبف البف يا عبف
 بين بين صلاى بيلا
 وتبلىن ماى ماى
 البف النبف كترابيه
 ايل الفصل ما بليدة القصل
 تلغراف اسكندرانى
 ابلا البف البف النبف

* * *

هلا لبف ياست سكينه
 تحت العنبه والتينه
 يا ما كلنا برتقار
 خدنا الواور وطار
 وصلنا ع المحطة
 قابلتنا الست بظه
 البف النبف البف يا عبف

* * *

ومن القطع المشهورة :

ياللو جسر الحديد
 ياللو طويل وعريض
 ياللو وقابلنى البيه

يا للو واداني جنينه
يا للو واجيب به يه
يا للو أجيب وزه
يا للو والوزه تسكاكى
يا للو وتقول يا وراكى
يا للو يا وراك الشموم
يا للو عدا الفيوم
يا للو فيوم مامات
يا للو خلف بنات
يا للو خلفهم تسعة
يا للو ينجى لهم تسعة

والمعنى هنا مطرد ومتسلسل ، وإن كان غير منطقي في موضوعه . فمقابلة البيه
عند جسر الحديد وإعطاؤه جنيناً لشراء أوزة كثيرة الصباح . كل هذا متسلسل ،
ولكنها تذهب للفيوم (وهى اسم بلد) وهذا الفيوم قدمات وترك بنات تسعة .
هذا نوع من الهراء ولا شك .

وهذه قطعة أخرى كلنا نعرفها :

حدارجه بدارجه

من كل عين السارجه

يا عم يا مغربي

كل بدى واشرب بدى

وأنت (وقت) الحاجه تنسكن دى

نط الديب ع الغنام

خد خروف من الزمام

كش رجلك يا مشكاح

ولهذه القطعة قطعة تناظرها بالصعيد. وقد نسبتها روايتها، إلى مدينة بني مزار

وهذه هي :

معض معيض

كل شابه وكل صيد

كل مراكب في الطيارة

تنفح (تنفح) ليله ونهاره

يا واكل الكشك البارد

ما تا لكشي وانا فايث

طارت عركه

بحر البركه

ما طيرها

الا الزمام

والزمام راكب شابه

ومقيدها بالعيدان

حُنْأَلُ بُنْأَلُ (حنقل بنقل)

دى الى تشيل ودى الى تُنْأَلُ

وفي هذه القطعة كلمات مبكرة « مثل معض » « معيض » « الزمام » الخ.

وهناك تسلسل في الأفكار ولكنه غير تام ، وليس موضوعها منطقياً .

وهي بذلك تناظر بعض القطع التي مرت بك .

وكثيراً ما نجد الأمثلة العديدة للهراء اللغوى ، فى لغة الأحجية واستدعاء الجن ، وما يناظرها من نشاط لغوى مرتبط بمعتقدات العامة وخرافاتهم . ومثل هذه اللغة — أعنى لغة الأحجية والرقى والخرافة — هى فى الغالب لغة مكتوبة ، أو محفوظة ، متوارثة . ولقد بلغ الاعتزاز بنصوصها حدّاً جعل العارفين بها يضمنون بها على جمهرة الناس . ولذلك فهى لا تسجل إلا فى المخطوطات . وقد يسقط من مدى الاعتقاد فيها مجرد طبعها ونشرها ، لأن ذلك يخرج بها عن مجال الخاصة إلى مجال العامة . وإليك بعض أمثلة لهذه اللغة ، نقلتها لك من كتاب الديارى . وجدير بالملاحظة ، أنه لا بد لهذه النصوص من أن تُكتب بشكل خاص ، وبنوع من المداد ، وعلى نوع من الصحف ، خاص .

١ — لحفظ الإنسان (ص ٦١) .

أعيذه بالله القدوس السبوح ، رب الملائكة والروح ، رب العرش العظيم .
اهيا ، شراهيا ، براهيا ، ادوناي ، اصباءوت ، آل شداى ، أولهيم ، يابيوئا ،
ياشمخيتا ، يا عظيم .

٢ — لحضور الغائب ويكتب على قطعة من نحاس أو حديد .

وإنه تقسم لو تعلمون عظيم . إنه من سليمان وإنه بسم الله الرحمن الرحيم ،
ألا تعالوا على واثتوني مسلمين . أجب يا حميس بحق الله . أجب يا درائيل بعز
عز الله . أجب يا منططرون بالذى يسبح الرعد بحمده . أجب يا شد حيائيش بالذى
يقول للشئ كن فيكون . أنقش أنقش ، أيقش أيقش ، أطوش أطوش ، أكراخ
أكراخ ، أنواخ أنواخ ، العجل العجل ، الساعة الساعة .

ط	م	ل	س	ل	س
ط	م	ل	س	ل	س
ط	م	ل	س	ل	س
ط	م	ل	س	ل	س
ط	م	ل	س	ل	س
ط	م	ل	س	ل	س
ط	م	ل	س	ل	س

٣ — لعلاج الطحال (ص ٨١) وتكتب في كاغد^(١) وتعلق على شاة ثم تذبح
ولن تجد فيها طحالا . وهذا هو النص .
يرسم هذا الشكل ويكتب ما يأتي :



طلطميش ، طلطميش ، ياقوش ياقوش ، هييطيط هييطيط ، انشل انشل ، أيها
الطحال من جنب فلان بن فلان بحق الواحد القهار .

٤ — للمرأة المعطلة من الزواج (ص ٨٢) تكتب وتعلق على الذراع
تهش تهش ، نهش نهش ، كهل كهل ، مارش مارش ، يارش يارش ،

(١) كاغد كلمة تركية معناها ورقة . لاحظ العدول عن استعمال الكلمة العربية المألوفة
واستعمال كلمة غير مألوفة .

شروش شروش ، هوش هوش ، نوش نوش ، نوامش نوامش ، نهراش نهراش ،
أنحلت عقدة فلانة بنت فلان .

٥ — لذهاب البق (ص ٩٥) تكتب ليلة نزول النقطة على الكيفية الآتية :

عططش	ايليغما	عططش
خرج	يلليغما	جاء البق
البق	ليغما	عططش
	يغما	مات
	غما	البق
	ما	
	ا	

ونلاحظ على هذا النوع من النشاط اللغوي ما يأتي

١ — استعمال بعض آيات القرآن وأسماء الله والأنبياء .

٢ — استعمال بعض الأشكال الهندسية والحروف المفردة مثل

ا ا ا م م ا a

٣ — استعمال كلمات من العبرية مثل « أولهيم » وأودناي (النص الأول) .

٤ — تكرار الكلمات ووجود السجع بين كلمتين مكررتين . وكثيراً ما نفترق

الكلمة عن التي تليها ، باختلاف الحرف الأول فقط ، مثل « تهش » « تهش » « ونهش » ،
« مارش » ، « يارش » (النص الرابع) .

٥ — استعمال طريقة خاصة للكتابة ، مثل الرسم الموجود في الشكل الثاني .

ولعل من الطريف أن نلاحظ استعمال الكتابة في النص الخامس (لطرد البق)

حيث بدأ بكلمة « ايليغما » ثم جعل ينقص منها حرف بعد حرف حتى انقرضت .

ولعل هذه هي الطريقة التي سينقرض بها البق .

٦ — كثرة استعمال حرف النداء وصيغ الأمر ، وبعض العبارات المعينة مثل
« الوحي الوحي ، العجل العجل ، الساعة الساعة »

* * *

لعلك لاحظت في هذه الأغاني التي قدمت إليك ، أن هدف مؤلفها كان أولاً
وأخيراً ، أن يحافظ على القافية ولو على حساب الألفاظ ذاتها . ورأيت في بعض
الأمثلة كيف أن كلمة « جزار » قد تحولت إلى « جزراتي » ، حتى تتوافق القافية
مع عبارة « لحنه ضاني » .

لقد سجل كارل بوشر Karl Bücher مثل هذه الظاهرة في دراسة للأغاني
والأناشيد بين البدائيين . وقد قال بأن هذه الظاهرة تلقى كثيراً من الضوء على
نشأة أوزان الشعر . ومما ذكره ^(١) أن سكان جزر الإنديمان يحدفون أواخر
كلماتهم ، حتى تتلائم أوزانها ، عند ما يؤلفون أغانيهم . وقد نشأ عن ذلك أن صار
لكل لفظ صورتان ، إحداها للشعر والأخرى للكلام العادي ، مما أدى إلى وجود
لغة خاصة للشعر ، تخالف لغة الحياة العادية . ويرى بوشر أيضاً ، أن مؤلف الأغنية
يضطر قبل غنائها لأول مرة أن يفسر كلماتها للجمهور والمغنيين ، مستعملاً في ذلك
بطبيعة الحال ، لغتهم العادية . ويقول آير Eyre ، بأن سكان استراليا الوسطى
لا يستطيعون تفسير أغانيهم القومية ، ويقولون بأن مؤلفي هذه الأغاني لا يهتمون
بمعنى ألفاظهم بمقدار ما يهتمون بأوزانها وطول مقاطعها ، ولكن ذلك لا يتعرض
لتفسير معنى هذه الأغاني ، بل يعمل غموضها . ويرى بوشر أن أوزان الشعر في لغة
من اللغات ليست نتاجاً للموسيقى اللغة نفسها ، بل إنها نتاج للأعمال التي يأتيها
الإنسان ، عند ما يردد أغانيه وأشعاره . وقد قال بعض العلماء بأن أوزان الشعر العربي

(١) انظر كتابه Arbeit und Rhythmus, 2 auf. Leipzig 1899 من ٢٩٦

قد نشأت عن حذاء الإبل، هذا الحذاء الذى هو ولا شك متأثر فى إيقاعه بخطو الإبل وحركات أجسادها أماماً وخلفاً حين تسيير . وكذلك نلاحظ ، فى حياتنا المصرية ، أن غناء الفعلة وهم يجرون شيئاً ثقيلاً يوافق فى عنف نغماته أو هدهوها ؛ الحركات التى يأتونها أثناء العمل . وإن الأغنيات التى عرضتها عليك من قبل ، لمتوقف وزنها على الحركات التى يأتونها اللاعبون — أو اللاعبات — عند إلقائها . ولهذا فعندما نقرأ هذه الأغنيات قراءة عادية ، تجددها غير مستقيمة الوزن . وسبب ذلك أن من يغنيها يحوّر فى أوزانها الطبيعية ، فيمد غير الممدود أو لا يمد الممدود أو غير ذلك ، مما يخضع الألفاظ للإيقاع الذى تفرضه حركات اللعب ذاتها .

وللحديث العادى إيقاعه الخاص ، يعرف فى علم الأصوات بالنبر (accent) ولكل جملة — أو بالأدق لكل نوع من أنواع الجمل — نوع مخصوص من النغم . ولكن إيقاع الحديث العادى ليس ملحوظاً لنا نحن المتكلمين من أبناء اللغة . ولهذا يرى بوشر أنه لا يمكن أن تتطور الأوزان المتعددة للشعر عن إيقاع لا يلاحظه من يتكلم ومن يسمع . ولقد تعرض للمقاييس العروضية ^(١) وربط بين كل منها وبين حدث من الأحداث الإنسانية التى نلاحظ إيقاعها ملاحظة شديدة ، على هذا الوجه .

أولاً : المقياسسمى iambi إيامبي . وهو عبارة عن مقطع قصير يليه مقطع طويل [مثاله ، إلى = ساكن + حركة قصيرة . ثم ساكن + حركة طويلة] . والمقياسسمى trochee تروشى وهو عبارة عن مقطع طويل ، يليه مقطع قصير [مثاله ، ذاك = ساكن + حركة طويلة ، ثم ساكن + حركة قصيرة] . ويحدث كل منهما نوعاً من الإيقاع الذى تلاحظه أثناء سيرك حين تلمس الأرض بإحدى قدميك لساناً خفيفاً ، ثم تدقيها بالثانية دقاً ثقيلاً ، أو بالعكس . وكلنا سمع وقع الأقدام ولاحظ انتظامه ، وخاصة إذا كان الوقت ليلاً .

(١) تختلف هذه المقاييس عن التفاعيل المعروفة فى الشعر العربى .

ثانياً : القياس المسمى سبوندى Spondee . وهو عبارة عن مقطعين طويلين (مثل هذا = سا كن + حركة طويلة ، ثم سا كن + حركة طويلة) . ويمكن ملاحظة هذا الإيقاع عند التصفيق المنتظم البطيء .

ثالثاً : القياس المسمى داكليل dactyl وهو عبارة عن ثلاثة مقاطع الأولان قصيران والثالث طويل (ومثاله فَعَلًا = سا كن + حركة قصيرة ، ثم سا كن + حركة قصيرة ، ثم سا كن + حركة طويلة) ، والقياس المسمى أنا بيست anapist . وهو عكس السابق (ومثاله جاءك = سا كن + حركة طويلة ، ثم سا كن + حركة قصيرة ، ثم سا كن + حركة قصيرة) ويمكن ملاحظة هذين الإيقاعين في ضربات مطرقة الحداد . وهذه المقاييس والأحداث الخارجية التي تناسبها في الإيقاع ، ليست سوى أمثلة عرضها بوضوح على سبيل التمثيل فحسب . ولكن المهم عنده ، هو ما يقرره من أن الأوزان الشعرية ليست متطورة عن إيقاع الألفاظ أثناء الحديث العادي ، بل عن إيقاع الأحداث التي يقوم الإنسان بها عندما يغنى . ومهما كان تفسير نشأة الأوزان الشعرية ، فإن الذي يهمنا نحن هو أن نقرر أن لغة الشعر والغناء تختلف عن اللغة العادية ، لغة الحديث والتفاهم ، مهما بلغت الجماعة اللغوية من بدائية أو تحضر . ومما يميز لغة الشعر إيقاعها الشديد الواضح (الأوزان) ، واشتراك ألفاظها في بعض الأصوات في مكان خاص منها (الأول — الوسط — الآخر) ، مما يعرف له نظير في اللغة العربية يسمى القافية . وكثيراً ما توجد ألفاظ غامضة المعنى أو غير مفهومة ، أو غير ذلك من الأمور التي لا توجد عادة في لغة الحديث . وكثيراً ما تستعمل الأغاني والأشعار في الأدعية الدينية وفي الصلوات ، وهي بذلك تكتسب قدسية وروحانية تميزها عن لغة النثر . وتسكاد أدعية البدائن وصلواتهم تقتصر على الأغاني والأناشيد . ولذلك فإن هذه الصلوات تحتوي على عدد عديد من العبارات والألفاظ غير المفهومة ، التي دعت إليها ضرورة الوزن . ولكن الشعر في لغات الشعوب المتقدمة قد تطور وأصبح ، كلغة النثر ، أداة تعبيرية

لا غنائية مجردة . ولهذا فقد تخلص من الكلمات التي تصنع لمجرد توافق الإيقاع أو لمجرد استقامة القافية . وهكذا أصبح الشعر وسيلة تجمع إلى النغم والإيقاع ، المعنى والدلالة . ولكنه بالرغم من ذلك يتميز عن النثر بأنه تعبير عن الانفعال الدقيق والإحساس الغامض . وهو كما قال سانت بييف St. Beuve (ليس الشعر مجرد ألفاظ وعبارات ، بل إنه إلى ذلك خيال وأحلام) .

ويرى ما ينهوف في كتابه (دراسات في اللغات الأفريقية) ، أن لدى كثير من القبائل البدائية لغة سرية ، يستعملونها في حفلات بلوغ الشباب سن الرشد . وتماثل هذه الظاهرة ما يشيع في كثير من البيئات المتعدنة ، من استعمال رجال الدين لغة خاصة بهم ، وما يشيع أيضاً من استعمال السحرة والمشعوذين من عبارات وألفاظ غير مفهومة ، يدعون بها الجن والأرواح . والذي لا شك فيه أن في هذا النوع من الاستعمال اللغوي وسيلة طيبة يستغلها الساحر أو رجل الدين للسيطرة على أذهان البسطاء من تابعيه ، الذين يعمنون في تقديسهم كلما أمعن هو في غموضه . وتستغل الكنيسة الكاثوليكية هذا النوع من السرية اللغوية استغلالاً كبيراً ، حين تستعمل اللغة اللاتينية في صلواتها وأدعيتها ، وهي لغة لا يفهمها سواد الناس من المصلين . كذلك يستعمل الكاهن المصري اللغة القبطية في التقديس (الصلاة) ، وهي لغة لا تفهمها جمهرة أقباط مصر .

ولقد كانت اللاتينية إلى عصر ما قبل النهضة لغة الثقافة في أوروبا . وكثيراً ما كان يحدث أن تستعمل اللاتينية أمام من لا يعرفها لإخفاء موضوع الحديث عنه . وإن شيئاً قريباً من ذلك لكثير الحدوث في مصر ، فكثيراً ما يتكلم طلاب المدارس الإنجليزية أو الفرنسية أمام الفلاحين أو العمال ، ساترين بذلك عنهم ما يدور في حديثهم من أفكار . واللغة اللاتينية أو الإنجليزية أو الفرنسية في مثل هذه الحال « لغة تستر » . ويستعمل الأطباء « لغة التستر » أمام مرضاهم

فيحدثون عن المرض ، أو الجزء المصاب بالاسم اللاتيني ، حتى يستروا عنهم مدى ما يتعرضون له من خطر . ويهمننا من كل ذلك أن نقرر أن اللغة قد تستعمل لستر الأفكار عن بعض الناس ، كما تستعمل لتوصيلها إلى بعضهم الآخر . ولقد نتج عن الرغبة في التستر اللغوي أن نشأت لغات صناعية خاصة تستعمل لهذا الغرض ، بين جماعات مختلفة من الناس . وتختلف الأسباب الدافعة لنشأة لغات التستر ، كما تختلف درجات التستر التي تحققها هذه اللغات ، اختلافاً كبيراً . وقد تكون أبسط درجات التستر اتفاق جماعة من الجماعات على إطلاق اسم من الأسماء على شيء من الأشياء ، واستعمال هذا الاسم أثناء الحديث العادي أمام من لا يعرف معناه . وقد جرت العادة في بعض المحلات التجارية الكبرى في روما أن يستعمل أحد الحراس جملة تتضمن كلمة « اثنين » وكلمة « عشرة » ، لتحذير البائع من وجود أحد اللصوص بين الزبائن ، كأن يقول مثلاً « جاء الوالدان في الساعة العاشرة » . وتشير الكلمة الدالة على العشرة إلى أصابع اللص العشرة ، والكلمة الدالة على اثنين إلى عيني البائع . وقد أخذ حراس المجال التجارية في إنجلترا هذا التعبير ، فكانوا يقولون « Two upon ten » (أى اثنان على عشرة) بمعنى [اجعل الاثنين — العينين — على العشرة — أصابع اللص العشرة] . ثم انحرف نطق هذه الكلمات بحيث اختلفت معالمها ، فكان يستعمل لفظ يشبه (topunten) للتحذير من اللصوص .

وقد استغلت نفس الفكرة [الاثنين ، والعشرة] بطريقة أخرى لنفس الغرض . وذلك بأن يسلم الحارس إلى العامل ورقة مكتوب عليها ٢ جنيه ، ١٠ شلن ، فيفهم العامل أنه لا بد من تركيز عيني الاثنين على أصابع اللص العشرة .

وإذا صح أن ندخل مثل هذه الاستعمالات في نطاق لغة التستر ، فإنه مما يدخل في نطاقها أيضاً ما كنا نفعله في طفولتنا من تدخل في تركيب الكلمات ، حتى تختفي

معالمها . وقد كان ذلك يحدث بإضافة مقطع من المقاطع إلى الكلمة ، وتغيير موضع بعض حروفها ، أو غير ذلك من الوسائل . ويعرف مثل هذا النوع من الاستعمال اللغوى فى مصر باسم « لغة السيم » . ومن أمثلة ذلك إقحام « آتنا » فى وسط الكلمة المصرية . وبذلك تصير الجملة « أنا حرّوح بـكره » « آرتانا حرارتفوح بوتيفـكره » . أما الجملة « محمد جاى » فتصير « محافنمد جاتناى » وهكذا . وهناك طريقة أخرى أكثر تعقيداً من هذه الطريقة . وهى أن يحذف الحرف الأول من الكلمة ثم يوضع مكانه حرف « ص » ، وبلى الكلمة المحرفة كلمة ثانية ، تحتوى على الحرف الأول . وليس لهذه الكلمة الثانية وظيفة فى تركيب الجملة ، إلا الدلالة على الحرف الذى حلت محله الصاد فى الكلمة السابقة عليها . ومثال ذلك « صبوك أهوه صاى جنبى » . ويتضح معناها بحذف الحرف الأول من كلمة « صبوك » وإحلال الحرف الأول من الكلمة الثانية « أهوه » محله ، ويكون الناتج كلمة « أبوك » ، وبحذف الحرف الأول من « صاى » وإحلال الحرف الأول من « جنبى » محله ، نعرف أن الكلمة الثانية « جاى » . وبهذا تكون الجملة « أبوك جاى » . ولعله من الطريف أن نذكر لك ملاحظة نشاهدها بين عدد من الشباب ، وهى استعمال كلمة « صالون » للنفى . وأصل هذا الاستعمال ما ذكرته لك من تغيير الحرف الأول من الكلمة وإبداله بصاد ، ثم ورود كلمة تبدأ بهذا الحرف بعدها . وبتطبيق ذلك على أداة النفى « لا » تكون « صا » ، ويتجتم أن تليها كلمة تبدأ باللام . ولما كان كلمة « صالون » تحقق الغرضين معاً ، فقد استعملت هذه الكلمة الواحدة بدلا من أداة النفى . وأهمية هذه الظاهرة من وجهة نظرنا ، تنحصر فى نقل كلمة « صالون » من دلالتها المعروفة إلى معنى أداة النفى ، بتأثير « لغة السيم » المذكورة . ويلجأ كثير ممن يستعملون لغة السيم المصرية إلى إدخال حرف الزين بدلا من السين أو الصاد لتغيير معالم الكلمات . ولهم فى ذلك إحدى طريقتين :

(١) هجاء الكلمات المراد النطق بها ، ووضع كل حرف فيها في أول كلمة مصنوعة من حرف الزين مع حروف أخرى . وللتعبير عن الجملة « اعمل شأى » التى تتكون من الحروف ، ا ، ع ، م ، ل ، ش ، ا ، ي ، يقال إزلف عزتر مزمز لزمز شزتر ازلف يز هر .

(ب) تقسيم الكلمة إلى جزئين ووضع المقطع « زى » بعد كل جزء . وعلى هذا تكون « انت اتاخرت ليه » فى هذه الجملة هكذا : « ازي نترى اتازى خرتى ليزى هزى » . ومن هذا المثال نرى أن كلمة أنت قد قسمت إلى « ا » و « نت » ، وكلمة اتاخرت قد قسمت إلى « اتا » و « خرت » وكلمة « ليه » إلى « لى » و « ه » ثم أضيف إلى كل من هذه الأقسام المقطع « زى » .^(١)

ويلجأ الأطفال والشباب لاستعمال لغات التستر للهو والعبث ، ولكن مثل هذه اللغات قد تستعمل لغرض أكثر جدية من ذلك . وقد يستعملها الأطفال ، للاتفاق على أمر لا يرضاه آبائهم أو مدرسوهم ، حين يكونون فى حضرتهم .

إن ما ذكرت لك من أمثلة للغة التستر هو أبسط أنواعها . وذلك لأنها تعتمد على اللغة العادية اعتماداً أساسياً ؛ وكل ما تريده هو تحويل مختلف به مظاهر الكلمات . وقد يبلغ الأمر إلى حد اختراع ألفاظ وتركيبات بعيدة عن لغة الحديث الجارية . وتنشأ مثل هذه المحاولات كثيراً بين العشاق والأصدقاء ، الذين تدفعهم حماسة العاطفة إلى ابتكار وسيلة للتفاهم خاصة بهم . وقد روى المؤلف فى كتابه ، المسمى *Bornesprog* ص ١٤٥ ، قصة لغة ابتكرتها بنات أربعة فى الدانيمرك ، منذ قرن مضى . ولم تكن هذه اللغة تعتمد فى مفرداتها على لغة الحديث العادية . كذلك روت إحدى مدرسات الأصوات بجامعة لندن قصة مماثلة ، عن لغة اخترعها غلامان .

(١) استقيت هذه المعلومات والأغاني السابقة من طالبات كلية دار العلوم مشكورات .

انجليزيان ، كانت بعيدة بعداً كبيراً عن الإنجليزية العادية . وقد يقدر لمثل هذه اللغات الانقراض بمجرد تجاوز من يتكورها دور الشباب ، أو بمجرد زوال الداعي الذى دعى إليها . ولكن قد يقدر لها البقاء ، وذلك بأن تتسع دائرة استعمالها حتى تصبح لغة ذات كيان اجتماعى مقرر ، يعيش جنباً إلى جنب مع لغة الحديث العادية .

وفى فالسونا Valsoana (وهى مدينة صغيرة بجوار تورين Turin فى الأودية الخصيبة بشمال إيطاليا) يتكلم الناس اللهجة الإيطالية المستعملة فى بقية أنحاء المنطقة . ولكنهم يتكلمون لغة خاصة — تعتبر لغة تستر — لمجرد وجود أحد الغرباء فيما بينهم ، لا يريدون أن يفصحوا له عما يقولون . وتحتوى لغة التستر التى يتكلمونها على كثير من المفردات الخاصة التى يستعملها اللصوص . أما بقية المفردات فهى تحويل لمفردات لغتهم العادية بإضافة عدد من المقاطع إليها . كذلك تستعمل هذه اللغة عدداً من الكلمات للدلالة على معان يعبرون عنها بكلمة واحدة فى اللغة العادية ، فيقولون مثلاً « ذات الأسنان الثلاثة » يعنون بذلك « الشوكة » (التى تستعمل فى الطعام) ، كما يقولون عن الساقية « آلة الشخير » وغير ذلك^(١) .

ويشبه ذلك ما يفعله التوديون Toda فى جنوب الهند .^(٢) ولديهم عدد عديد من المفردات والعبارات لا يستعملونها إلا عند وجود واحد من جماعات التامل Tamils أو الباداجاس Badagas ، رغبة منهم فى ستر ما يقولون عن هؤلاء الدخلاء . ويمكن الحكم على هذه التعبيرات والمفردات بأنها ابتكار ، أو تعبير بالجملة عن الأفكار التى يعبر عنها بالمفرد . ومثال الابتكار كلمة kato وتستعمل بدلا من الكلمة العادية Pars بمعنى أسنان . ومثال التعبير بالجملة عبارة معناها

(١) انظر من ١٦٣ A. Niceforo Le Génie de l' argot. Paris 1912

(٢) انظر من ٦١٦ Rivers, The Todas

« الأشياء التي تسير » بمعنى الأرجل ، « ما ينزل من أضاء الجاموس العجوز »
بمعنى الماء وهكذا .

وفي مصر نوع من الاصطلاحات اللغوية تعرف بالفوازير تشبه هذه التعبيرات .
ومن أمثال ذلك هذه العبارات ، « أد الفيل ويتلف في منديل » بمعنى « الناموسية » ،
« أد الكف ويلف الدنيا لف » بمعنى التمر ، « يعدى البحر ولا ينبلس » بمعنى
« العجل في بطن أمه » الخ . ولكن مثل هذه التعبيرات لا تدخل في نطاق لغة
التستر ، لأنها لا تستعمل للتفاهم حول الأمور الجارية ، بل تستعمل لاختبار قدرة
السامع العقلية ، ومدى يقظته لتعرف الذوات التي تنطبق عليها هذه الأوصاف .
وهي بهذا الاعتبار لا تخرج عن اللغة العادية . ولكن لو فرض أن قلنا « الجاموسة
ولدت يعدى البحر ولا ينبلس » ، وكان معنى هذه العبارة خافياً على بعض الحاضرين
فإن ذلك يكون من لغة التستر . وبهذا نرى أنه لابد من وجود ركنين : أحدهما
في اللغة ذاتها والثاني في الظروف الخارجية التي تستعمل فيها اللغة . أما الركن
اللغوي فهو استعمال مفردات وتركيبات خاصة . وأما الركن الاجتماعي فهو وجود
شخص أو أشخاص يريد المتكلم عزلهم عن الدائرة التي تتداول الحديث .

وتستعمل عصابات اللصوص والمهربون والمتسولون لغات التستر الخاصة بهم .
وروى لنا المؤلف أمثلة عديدة من هذه اللغات التي كانت سائدة بين هذه الجماعات ،
في إنجلترا ، وإيطاليا ، وهولندا ، وسواها من بلاد أوروبا . ولا شك عندي أننا
لو تمسكنا في مصر ، من تتبع النشاط اللغوي الخاص بهذه الجماعات ، لعثرنا على
كثير من الأمثلة التي تفيدنا كثيراً في دراسة الأساليب التي تستعمل لابتكار لغات
التستر في مصر .

ويستعمل التجار في مصر لغة خاصة يتفاهمون بها فيما بينهم ، عند وجود
الزبائن حتى يطلعوهم على سر مهنتهم أو حقيقة أسعارهم أو أرباحهم . ومنذ أيام

فلائل كنت راكباً أحد أتوبيسات القاهرة ، وقد طرقت معنى قول غريب لأحد الراكبين فسألته أن يتكلم بتوضيح ما قال ^(١) .

سمعته يقول لزميل له هذه الجملة « الدبش الكبارى رابس » . وقد ذكر لي أن المعنى هو « رئيس الوزارة قادم » . ثم سألته أن يخبرني عن معنى « الشخص ده كويس » فى لغة التستر التى كان يتكلم بها ، فقال « الدبش يافت » . أما « الشخص ده وحش » فمعناها « الدبش شفر » كما أن معنى « مانجه » هو « امشى » ومعنى « اربص » هو « تعال » . وقد لاحظت فى هذه المفردات والعبارات ما يأتى :

١ — اختلاف المفردات عن المفردات العامية المصرية اختلافاً رئيسياً ، فليست محوياً لها بإضافة أو حذف أو تغيير وضع حرف أو حروف .

٢ — خضوع المفردات للقواعد العامة لتركيب المفردات العامية المصرية .

ولدينا مثلاً استعمال أداة التعريف « ال » ، وصيغة فاعل لاشتقاق اسم الفاعل فى كلمات « رابس » و « يافت » . وكذلك استعمال الوزن المصرى « افعل » لاشتقاق فعل الأمر مثل « اربص » بمعنى « تعال » .

٣ — استعمال التركيبات المصرية العادية ، كوضع الصفة بعد الموصوف ، مثل « الدبش الكبارى » ، والتركيب الإسنادى بدون وجود أداة ، بل بمجرد وضع الكلمات مثل « الدبش يافت » بمعنى « الشخص كويس » .

٤ — قلة المفردات واستعمال الصفة والموصوف للاستعاضة عن عدد كبير من المفردات ، مثل « الدبش الكبارى » بمعنى وزير ، رئيس الخ . ولهذا تعتمد

(١) اسم هذا الشخص يواقيم نجيب . وهو صائغ بحى « الصاغة » بالقاهرة .

هذه اللغة على الظروف الخارجية اعتماداً كبيراً ، فعبارة « الدبش الكبارى » كان معناها رئيس الحكومة عند ما سألته عن معنى الجملة التى قالها . والذى عين هذا المعنى هو وجود الحرس الذى يسير مع رئيس الحكومة ، ووجود ظروف أخرى منها أننا كنا نعرف أن رئيس الحكومة كان قادماً مع الملك سعود لزيارة بعض معالم القاهرة . وقد تكون معنى هذه العبارة نفسها فى ظروف أخرى ، « أبوك » « المعلم » أو غير ذلك .

ومن أساليب التستر اللغوى التستر فى الكتابة . ويلجأ كثير من الناس إلى طرائق كثيرة لتحقيق هذا الغرض . فمن ذلك الكتابة الفلسفية ، وذلك بأن تكتب الحروف من اليسار إلى اليمين . ويمكن فى هذه الحال قراءة هذه الكتابة من ظهر الصحيفة بتسليط الضوء على وجهها . وقد يلجأ الكاتب أحياناً إلى استعمال بعض الحروف الهجائية ، التى تكتب بها لغة غير لغته ، كما لو كتبت جملة عربية بحروف انجليزية ، أو جملة انجليزية بحروف عربية أو عبرية . كما قد يتكرر الكاتب بعض الرموز الكتابية الخاصة للأصوات التى يريد تمثيلها بالكتابة . ومن أنواع التستر فى الكتابة ، كتابة الأرقام العربية بالحروف الهجائية ، اعتماداً على أن لكل حرف هجائى قيمة حسابية ، فالألف تساوى « واحداً » والباء « اثنين » والجيم « ثلاثة » وهكذا .

الفصل الحادي عشر

خاتمة

العناصر المشتركة في اللغات الإنسانية

استعرضنا في هذا الكتاب تأثير الفرد على اللغة التي يتكلمها ، وتأثير الجماعة التي ينتمي إليها الفرد عليها . وقد قررنا أن للجماعة تأثيرها مهما بلغت من صغر أو كبر . ويختلف تأثير الفرد على اللغة باختلاف درجة استقلال شخصيته ، أو خضوعها ، للعرف السائد بين أفرار جماعته . وكما قويت شخصية الفرد كلما زادت مميزاته اللغوية . ولا تظهر هذه الميزات في الأصوات التي يستعملها — وإن كان لطريقة إلقائه للحديث علاقة بقوة شخصيته أو ضعفها — بل في الكلمات التي يستعملها ، وطرائق التركيب التي يصوغ على أساسها كلماته بعضها إلى بعض ، كما تظهر في طريقة كتابته الخطية كذلك . وهذا هو الذي نعينه عند ما نقول بأن لشخص من الأشخاص أسلوباً خاصاً يتميز به . وصدق المثل « أسلوب الإنسان صورة أخرى من شخصيته » . ومن دلائل صدق هذا المثل أننا نستطيع أن نتصور الأسلوب الذي يكتبه كاتب من الكتاب ، بل وأن نقلده . ولو كنا على معرفة بشخصية الكاتب لاستطعنا أن نسمع من خلال سطور ما يكتب جرس صوته وطريقة نطقه للكلمات والعبارات . وكثيراً ما نلاحظ ذلك عند قراءة خطاب أرسل إلينا من أب ، أو أخ ، أو صديق . ولقد بالغ بعض الكتاب في الخيال فتصور أنه من الممكن أن نتعرف من أسلوب كاتب من الكتاب القداى ، على طريقة نطقه لكلماته

وعباراته ، وهذا نوع من المغالاة التي نرفضها بادية ذى بدء . كذلك يحاول بعض اللغويين ، أن يتعرف على شخصية شعب من الشعوب والصفات المادية والعقلية السائدة بين أفرادها ، بدراسة المفردات والتركيبات التي تحتوى عليها لغته . وقد يكون في مثل هذا القول بعض الصحة . ولكننا لا نستطيع أن نقوم بمثل هذه الدراسة إلا بنوع من التضمين ، الذي لا يرتفع إلى مستوى الدراسة العلمية .

وليس هذا الموضوع أو ذاك ، هو ما أريد أن أختم به هذا الكتاب . ولكني أريد في هذه الخاتمة أن أتحسس العناصر المشتركة في نشاط الإنسان اللغوي ، بالرغم من تشعب فروعه وتعدد طرائقه ، وبالرغم من اختلاف وسائل التعبير اللغوي الإنسانى اختلافاً لا يمكن لمتكلمي لغة من اللغات من التفاهم مع من يتكلم لغة غير لغتهم .

لقد قال اللغوي الألماني الكبير هـ شوخارت H. Schuchardt بوجود شبه بين مختلف اللغات الإنسانية ، أعم من شبه لغة بلغة أخرى تنتمي إلى نفس العائلة اللغوية التي تنتمي إليها (كما هو الحال في الفرنسية والإيطالية ، والعربية والعبرية) . ومثل هذه العلاقة العامة ليست علاقة تاريخية (كعلاقة اللغات المنتمة لعائلة واحدة ، حيث أن مثل هذه اللغات قد تفرعت في الأصل عن لغة مشتركة ، كما حدث للهجات العربية المعاصرة التي يمكن أن نقول بأنها قد تفرعت عن العربية القديمة) ؛ بل إنها علاقة فطرية ، لم تخلقها الصلات التاريخية بين الجماعات اللغوية . إنها من نتاج الفطرة الإنسانية التي يشترك فيها بنو الإنسان على مختلف جماعاتهم وبيئاتهم وظروفهم . وأحب هنا أن أفسر معنى كلمة « العلاقة » وعبارة « التفرع عن أصل مشترك » تفسيراً يخرج بهما عما يمكن أن يظن من تشابه توالد اللغات والألفاظ بعضها عن بعض ، بتوالد الحيوانات والنباتات . ولو قلنا بأن الكلمة العربية « قتل » ذات علاقة بالكلمة العبرية « قَتَلَ » . أو أن اللغة العبرية ذات

علاقة باللغة العربية ، وأن كلا منهما قد نتجت عن نفس الأصل الذي نتجت عنه الأخرى ، فإن معنى ذلك أن الجماعة اللغوية التي تتكلم العربية والجماعة التي تتكلم العبرية ، كانت ذات يوم جماعة لغوية واحدة ، وأنه لم يكن هناك فروق جوهرية بين لغة أفراد هذه الجماعة ، تبرر الاعتراف بوجود أكثر من لغة تسود بينهم . وهكذا يمكن أن نقول إن كلمة « قتل » العربية وكلمة « قَتَلَ » العبرية ، ليستا سوى طريقتين متأخرتين لنطق كلمة واحدة .

وقد حدث عقب انقسام الجماعة اللغوية القديمة إلى جماعتين عبرية وعربية ، أن صار لكل جماعة طريقة خاصة في نطق هذه الكلمة ، كما تنوعت دلالاتها بشكل يختلف في كل من الجماعتين الحديثتين عما لدى الجماعة الأخرى .

وكما تأملنا اللغات الإنسانية وجدنا فيها عناصر عديدة متشابهة ، مما يوحي بوجود شبه أساسي بين أنواع التعبير اللغوي بين بني الإنسان ، على اختلاف مواطنهم وأجناسهم . وبعض هذه العناصر المشتركة يمكن أن يعزى إلى الاشتراك في النزعات والصفات الإنسانية . ونحن حين نقرر ذلك لا نريد أن نندفع مع خيالنا وتأملاتنا ، فتسائل عما إذا كانت هذه الأجناس الإنسانية التي تختلف فيما بينها كل هذا الاختلاف المبين ، قد تولدت في الإصل عن أبوين مشتركين . ولا نريد أن نتساءل بالتالي عما إذا كانت اللغات الإنسانية المتعددة هي في حقيقة الأمر نتاج لانقسام الجماعة اللغوية الإنسانية الأولى ، وأن هذه اللغات كلها بهذا الاعتبار تنتهي إلى أصل بدائي مشترك . لقد تساءل هذا النوع من التساؤل العالم الإيطالي ا . تروبيتي A. Tronbetti^(١) . وأعتقد أن مثل هذا النوع من التساؤل لا طائل تحته ، حيث أنه ليس لدينا من النصوص اللغوية القديمة ما يؤيد إثبات ذلك أو نفيه .

L' unità d' origine del Linguaggio, Bologna 1905,
La Glottologia, 1909.

(م — ١٥ اللغة بين الفرد والجمتمع)

(١) انظر له

وربما كان من النظريات التي تمس هذا الموضوع مساساً قريباً ، الرأي الذي قال به كثير من متقدمي علماء الدراسات الإنسانية (anthropology) ، من أن الحضارات الإنسانية قد نشأت متفرقة في بقاع مختلفة من الأرض ، وأن ما بين هذه المدينيات المختلفة من تشابه ليس راجعاً إلى تولدها عن أصل مشترك ، بل عن شبه الطبيعة الإنسانية التي نتجت عنها هذه المدينيات ، مستقلة كل منها عن الأخرى . وإلى جانب هذا الرأي يوجد رأي آخر يقول به كل من ج . اليوت سميث G. Elliot smith والدكتور و . ه . ر . ريفرز Dr. W. H. R. Rivers ومقتضى رأيهما أن التشابه بين المدينيات الإنسانية المختلفة يرجع إلى تقليد الجماعات الإنسانية بعضها لبعض ، واقتراض طرائق السلوك فيما بينها . وهما يقولان بأن المدينة الإنسانية قد نشأت في مكان خاص وبين جنس خاص ، ثم انتشرت إلى بقية الأجناس المختلفة والأمكنة النائية . وهما يقولون بأن حضارة مايا Maya ، التي سادت ذات يوم في أمريكا الوسطى ، قد أخذت عن حضارة الهند القديمة . ويدللون على هذا بوجود صور للأفيال وعلى بعض المباني القديمة في كوبان Gopan بهند ورس Hondures ، مع أن الفيل لا يوجد في هذه البلاد ، وليس هناك ما يدل على أنه كان موجوداً بها ثم انقرض^(١) . وليس لدى مثلي من الباحثين اللغويين الدلائل العلمية لترجيح أحد الرأيين السابقين . ولكنني أستطيع أن أقرر وجود شبه لغوي ظاهر ، بين بعض اللغات الإنسانية وبعضها الآخر ، بالرغم من وجود عوائق مادية تجعل من البعيد وجود اتصال بين الجماعات اللغوية التي كانت تتكلمها في عصر سحيق القدم . ولا مبرر لهذا الشبه عندي إلا أن هذه اللغات ليست سوى صورة خارجية للعقلية الإنسانية ، التي تتشابه في مختلف الأجناس .

(١) أنظر G. Elliot Smith, Elephant and Anthoropogy London 1924
وقد علقت عليه جريدة « الملاحق الأسبوعي لجريدة التيمس » ١٢ يونية سنة ١٩٢٤ .

وليس اختلاف هذه اللغات بعضها عن بعض دليلاً ينقض ما أقول . وذلك لأنه لم ينشأ عن اختلاف العقلية الإنسانية في عمومها ، بل عن اختلاف موضع نشاط هذه العقلية — أعني المادة اللغوية ذاتها . وبعبارة أخرى يمكن أن نقول بأن سبب الخلاف بين لغة وأخرى ، ليس هو الآلة الفعالة في النشاط اللغوي — أي العقل الإنساني — بل المادة التي تنشط فيها هذه الآلة — أي اللغات المختلفة .

وتشترك جميع اللغات الإنسانية في أنها تعتمد على أساس فسيولوجي (أي عضوي) . ونحن نلاحظ أن أعضاء النطق في جميع بني الإنسان ، مهما اختلفت أجناسهم ، متشابهة في خلقها وفي طرق استعمالها . صحيح إن هناك بعض الفروق العضوية بين فرد وفرد ، كأن يكون الفراغ الحنكي ، أو الأنفي ، أو سقف الحلق الخ . في شخص من الأشخاص أكبر أو أصغر منها في شخص آخر . ولكن مثل هذه الفروق ليست ذات أثر على نشاط الفرد اللغوي على الإطلاق ، ولذلك يمكن تجاهلها . ولم يستطع باحث لغوي واحد أن يثبت تأثير مثل هذه الفروق على النشاط اللغوي للأفراد . وكذلك لا يمكن القول بأن لاختلاف الجنس بين فرد وفرد ، أو جماعة وجماعة ، أية علاقة بالاختلاف اللغوي فيما بينهما .

وقد ثبت بالتجربة والملاحظة أن الطفل الأوربي الذي يترى بين جماعات الإسكيمو في جرينلاند ، أو بين قبائل البانتو في جنوب أفريقيا ، يتكلم لغة جرينلاند أو لغة الزولو ، بنفس الطلاقة التي يتكلم بها طفل من أبناء هذه القبائل ، بالرغم من غلظة شفاة أهالي البانتو بشكل واضح . وهذا يثبت بطبيعة الحال أنه لا علاقة بين الصفات العضوية وطريقة النطق بالكلمات في شعب من الشعوب .

وأما ما رواه بعض الباحثين من عدم استطاعة بعض القبائل النطق بالصوتين *b* ، *v* ، وذلك لأنهم يزنون شفاههم السفلى بثقبها وإدخال حلقة فيها ، ومن أن لغتهم تبعاً لذلك لا تحتوى على هذين الصوتين ، فذلك أمر لا يرجع إلى صفاتهم

الخلقية . ونحن نلاحظ كذلك أن من يصاب بشق في إحدى شفثيه لا يستطيع النطق بأحد هذين الصوتين . وذلك لا يعارض ما قررناه من أن شكل الأعضاء الصوتية الطبيعي ، ليس سبباً في الطريقة الخاصة التي تنطق بها جماعة من الجماعات . كذلك ظن بعض الباحثين أن اختلاف نطق اليهود أو الزوج للإجليزية عن مواطنهم من الأمريكيين ، سببه اختلافهم الجنسي عن سواهم ، هذا الاختلاف الذي كان من مظاهره اختلاف شكل أعضائهم الصوتية ، اختلافاً سبب هذا الفرق لديهم في طريقة نطق الأصوات . وذلك ظن لاصحة فيه . وكل ما في الأمر أن اليهود أو الزوج ، قد قلدوا في طفولتهم طريقة خاطئة للنطق ، لم تلبث أن تمكنت منهم فطبعتهم بطابع متميز . ويدل على ذلك أن الأجيال الناشئة من يهود وزوج أمريكا — بالرغم من انفصال الأجناس بعضها عن بعض — أقل اختلافاً ، بل وفي بعض الأحيان لا تختلف على الإطلاق ، عن بقية الأمريكيين .

من كل ما سبق نستطيع القول بأنه من الممكن أن يوجد علم يسمى علم الأصوات العام، يدرس الخصائص الصوتية المشتركة في اللغات الإنسانية ، ويوضح الطريقة التي يخرج بها الإنسان أصواته اللغوية . وسنجد من مثل هذا العلم أن النظام العام للأصوات ، مهما اختلفت اللغات التي توجد فيها ، سيكون واحداً . ولكننا سنجد فرقاً بين لغة وأخرى عندما نقارن بعضها ببعض ، كما سنجد فرقاً بين لهجة ولهجة ، وبين فرد وفرد . وفوق ذلك سنجد أن الظروف التي تتحكم في تطور الأصوات ، بانتقالها من جيل إلى جيل ، أو من فرد إلى فرد آخر من أبناء جيله ، هي ظروف متشابهة دائماً . وسيجد الباحث بالتالي أن تطور الأصوات اللغوية في مختلف اللغات ، بالرغم من استقلالها بعضها عن بعض استقلالاً كاملاً ، يخضع كذلك لقوانين ثابتة . وبهذا نستطيع أن نعين الاتجاهات العامة للتطور الصوتي التاريخي . ومن أمثال هذه الاتجاهات ميل الأصوات الساكنة المفردة ، إذا ما وقعت

بين حركتين ، إلى أن تكون مجهورة . ولذلك نجد صوتاً مثل « ت » في كلمة « أتنى » المصرية (بمعنى أنا أنتظر) ، يمكن أن يسمع قريباً من «د» هكذا « أدنى » . كذلك نجد أن الكاف قد تصير تاء وشيئاً ، عندما تسبق حركة من الحركات التي يكون وضع اللسان فيها أمامياً ، مثل الكسرة والفتحة . ولهذا نجد أن كلمة « kinn » السويدية (بمعنى ذقن) تناظر في الإنجليزية « chin » ، وفي الطليانية (cera) . وفي هذه الأمثلة نرى الكاف « k » في السويدية نظيرة « لتاء وشين » « ts » في كل من الإنجليزية والإيطالية ، ولكنها نظيرة « اللسين » في الفرنسية « Gire » . كذلك قد ينتج عن النبر الخفيف في بعض مقاطع الكلمة أن تصير حركة هذه المقاطع من حركات وسط اللسان (centralised) أو أن تخفى الحركة اختفاء تاماً . والنبر كذلك تأثيره في الأصوات الساكنة . ومن أمثلة ذلك القانون الصوتي المعروف باسم قانون قرنير « verner's law » ، حيث نشاهد انطباقه بملاحظة نطق حرف « f » في الكلمة الإنجليزية « of » والحروف « dge » في الكلمة الإنجليزية « knowledge » . ومثل هذا التطور الصوتي موجود في كثير من اللغات ، ولكن بدرجات مختلفة من الاطراد .

وفي الوقت الذي يقابل الباحث اللغوي هذا النوع من التطور الصوتي ، يندر — بل ويمكن أن نقول يستحيل — أن نجد تطور صوت مثل « p » أو « m » إلى « a » . وذلك لأن مخرج هذين الحرفين بعيد عن مخرج « a » تباعداً متبايناً . وزيد أن نحذر القارئ هنامن أن يظن أن قوانين التطور الصوتي قوانين ثابتة لا تتخلف . والحق أنها لا تريد على كونها تسجيل لبعض الاحتمالات الغالبة للتطور الصوتي ، أو تسجيل لتطور قد حدث بالفعل ، في لغة من اللغات ، في وقت من الأوقات . لقد ظن البعض أن موريس جرامونت Maurice Grammont ، قد

اكتشف، بعد أبحاث طويلة ، قواعد ثابتة للإدغام والفك^(١) ، يمكن أن تنطبق على جميع اللغات البشرية . ولا شك أن البحث عن قوانين عامة لعلم اللغة — كما هو الحال في أي علم من العلوم — مجهود مشكور . ولكنني أشك كثيراً في أن يكون جرامونت قد اكتشف بالفعل ما يمكن أن يسمى قانوناً على وجه التحديد . لقد قال جرامونت بقانون سماه « قانون الصوت الأقوى » . ومقتضى قانونه هذا ، أن بعض الأصوات أقوى من بعضها الآخر ، وأنها لذلك تؤثر فيما عداها من الأصوات بالفك أو الإدغام . ولكنه في نفس الوقت لا يبين لنا الطريقة التي نعين بها كيف يكون الصوت أقوى من سواء من الأصوات . وهذا النقص في توضيح قانونه يذهب بقيمته ذهباً لا رجعة بعده . وما أشبه القائلين بهذا القانون بمن يقول لك وأنت في حلبة السباق : « سيكسب هذا السباق أسرع هذه الخيول » ؛ ولكنك لا تدري أي هذه الخيول أسرعها ، حتى تراهن عليه^(٢) .

وعندما نترك الصيغة الخارجية للكلمات (الأصوات) ، وننتقل إلى المعنى ، نجد كذلك تشابهاً بينها ، على اختلاف مشاربها وبعد مواطنها . وذلك لأن المعنى عملية عقلية نفسية ، والنشاط العقلي لدى مختلف أبناء الإنسان متشابه تشابهاً رئيسياً . ولهذا السبب نجد مؤرخي الكلمات (etymologists) يؤيدون احتمال تغير معنى من المعاني إلى معنى آخر في لغة من اللغات ، بتغير مماثل في لغة أخرى

(١) الإدغام هو جعل الصوتين الساكنين المتواليين صوتاً واحداً مشدداً ، والفك هو جعل الصوت الواحد المشدد صوتين مختلفين .

(١) يلاحظ في بعض الكلمات ادغام أحد حرفين متواليين في الآخر ، مثل الكلمة barn (في جو تلمذا) حيث تنطق bar أي بادغام الراء في النون . ولكنها تنطق في بعض المناطق ban أي بادغام النون في الراء ، فأى الصوتين أقوى إذن ؟ ! . ونلاحظ كذلك في المصرية أن كلمة « اندلأ » (اندلق) تنطق في بعض المناطق (ادلاً) . وبناء على النطق الثاني تسكون الدال أقوى من النون . ولكن هذا يناقض النطق الأول الذي تتساوى فيه الدال والنون . وهكذا نرى أنه ليس من الصواب القول بقوة أحد الصوتين وضعف الآخر .

لا علاقة لها بها . ومقتضى هذا وجود قوانين إنسانية عامة للنشاط العقلي هي السبب في تشابه التطور في معانى الكلمات ، بالرغم من أن علم المعنى meaning لم يكتشف هذه القوانين حتى الآن . وليس لدى الآن فرصة كافية لمناقشة هذا ، ولكنى أستطيع القول بأنه ، في بعض الحالات ، يمكن افتراض قوة إنسانية عامة تعمل عملاً متشابهاً — في لغات مختلفة — بالرغم مما قد يبدو من اختلاف نتائج هذه القوة . ومن أمثلة ذلك ما نلاحظ من تخصص معنى عام بفكرة جزئية من هذا المعنى . وقد تبلغ درجة التخصص من القوة بحيث ينسى المعنى القديم (العام) نسياناً تاماً . ولديك الكلمة «corn» وهي في الإنجليزية «قمح» ، ولكنها في اسكوتلاندا «شعير» ، وفي أمريكا الشمالية «ذرة» الخ . ومن العجيب أن لهذه الحالة نظيراً في العربية . فكلمة «غلة» في العربية الفصيحة ، بمعنى «محصول» ، ولكنها في المصرية «قمح» ، وفي السودانية «ذرة» . وكذلك كلمة «عيش» ومعناها العربي «حياة» ، ولكنها في المصرية «خبز» وفي السودانية «الذرة الرفيعة» [التي نسميها في مصر «الذرة العويجة»] .

وفي هذه الأمثلة ترى ظاهرة تخصص المعنى العام ، كما ترى كيف تتشابه نتائجها في العربية ولهجاتها ؛ مع ما حدث في اللغات الجرمانية الحديثة (الإنجليزية والألمانية الخ) . ولثل هذا السبب نعتقد بوجود قوة إنسانية مشتركة ، يرجع إلى نشاطها هذا التشابه في تطور المعنى .

* * *

كذلك يجب علينا ، عندما ندرس اللغة ، أن ندخل في حسابنا أن الإنسان لا يخضع في سلوكه العقلي للمنطق السليم دائماً . ويبدو أن المدرسة اللغوية القديمة لم تكن تؤمن كثيراً بمثل هذه الدعوى . ولقد قال ساي Sayce ما يأتى ^(١) [يخوى

الاسم خلاصة المعرفة الإنسانية الخاصة بالشئ الذى يدل عليه . وهو رمز لكل المعلومات والتجارب التى يجيب بها الإنسان عن هذا السؤال الذى لا ينفك يراوده : « كيف ؟ » [

ويقول شبيه من هذا القول ، وإن كان أكثر تأثراً بعلم النفس ، يقول وندت Wundt . ولديه أن الشئ إنما يسمى بأهم خصائصه . ولمثل هذا السبب يسمى النجار فى الألمانية tischer (مأخوذة من Tisch بمعنى منضدة) . ولسنا ندرى لماذا يعتبر عمل « المنضدات » أهم خصائص النجار ؟ ولماذا لا يكون أهم خصائصه عمل الأبواب أو الخزائن مثلاً ؟ ! . قد يكون من الصحيح أن عمل المنضدة كانت فى نظر من ابتكر هذه الكلمة أهم خاصية للنجار ، فى اللحظة التى ابتكر فيها كلمته . ولكنه لا يمكن أن تكون أهم خصائصه على الإطلاق . إن ما يريده الإنسان هو أن يضع اسماً مألوفاً من الذوات . وليس من الضروري أن يشير الاسم إلى أهم خصائص المسمى أو لا يشير . وذلك لأن الاستعمال كفيل بأن يزيل ما قد يصادف من يسمع الكلمة ، لأول مرة ، من غرابة . ولا يهتم الإنسان كثيراً — بل لعله لا يلاحظ — إن كان الاسم ينطبق أو لا ينطبق على صفات المسمى . ولكن المهم هو أن المتكلم يجد اسماً يعنى شيئاً خاصاً ، وأن سواه من الناس يدرك ما يعنى به . ولعل من المستحيل أن تجد للباعة — بصفة خاصة — أسماء تشتمل كل أنواع نشاطهم فى أعمالهم ، فالبقال لا يبيع « البقول » فحسب ، بل إنها لا تكون إلا جزءاً يسيراً من تجارته (بائع « البقول » حقيقة هو الذى نسميه « العلاف ») . كذلك يبيع « اللبن » « البيض » ، وليس من « الألبان » فى شئ ، و « الدخاني » « التوفى » و « السكراملات » ، وهى أبعد ما يكون عن « الدخان » . وإذا أصبح أن كلمة « خضروات » منطقية فى تسمية « الملوخية » مثلاً ، فأى منطق فى أن نطلقها على الطماطم « و « الجزر » ، بينما لا نطلقها على « البطيخ » وهو أخضر اللون .

ومن خصائص التعبير الإنشائي أنه لا يقصد في تسمية الأشياء إلى أقرب الوسائل، فيعبر عن الأفكار بالألفاظ تتلاءم معها تلاؤماً كاملاً ، ولذلك فنحن نحس كثيراً بعدم تناسب الأسماء مع مسمياتها ، حتى يمتضى علينا زمن ننسى فيه المصدر الذي أخذنا عنه الاسم . ولديك مثلاً كلمة anecdote (بمعنى قصة) ، وقد كان معناها معناها الأصلي « غير منشور » . والقصص اليوم كما تعلم أغلبها مطبوع ومنشور . وكلمة Sport (بمعنى نشاط رياضي) كان معناها الأصلي « شخص غير عامل — كسول » وهي اليوم تعني عكس ذلك . والكلمة العربية « شكيمة » كان معناها الأصلي « الجزء الحديدي من اللجام الذي يوضع في فم الفرس » ولكنها اليوم تعني « المقاومة الشخصية » .

وفي كل هذه الأمثلة نرى كيف أن الشخص الأول ، الذي اختار هذه الأسماء ، لم يكن في الواقع موفق الاختيار . فقد عبر عن الشيء بلفظ يدل على ضد معناه ، أو على أمر بعيد عنه . وكان مقتضى المنطق أن يتسكر اسماً جديداً لنوع من النشاط أو المعاني جديد . ولكنه آثر الدوران وتلمس العلاقات على القصد الصريح . ولولا نسياننا للأصول التاريخية لهذه الكلمات ، لبدت لنا غريبة غير مستساعة .

وإلى جانب الاشتقاق العادي للكلمات بعضها من بعض ، يبدو أن هناك اتجاهين لابتكار الأسماء للمسميات . وأول هذين الاتجاهين هو التخصيص ، وذلك بأن نطلق الاسم الدال على أمور كثيرة ، على أحد هذه الأمور ولا غير . وثانيهما التعميم ، وهو أن نطلق الاسم الدال شيء واحد على عدد من الأشياء التي يشترك معها في أمر من الأمور .

وإليك على سبيل المثال كلمة « عجلة » وتطلق في المصرية على الدراجة . ومن الواضح أن « الدراجة » ليست « عجلة » فحسب ، ولكنها أجزاء أخرى إلى جانب ذلك ، منها « العجلة الثانية » و « المقعد » و « الجرس » وغير ذلك .

وهذا مثال للتعميم . ومثال التخصيص الكلمة المصرية «غداء» (أى وجبة الظهر .) و « الغداء » كما تعرف معنى عام ، لا يقتصر على الطعام الذى يتناوله الإنسان ظهراً . ولكن المصرية خصصت دلالة هذا المعنى العام بإحدى الوجبات . وأياً ما كان الأصل الذى تنبثق عنه الأسماء التى نطلقها على الأشياء ، فإن للصدفة المتوقعة وغير المتوقعة ، الاعتبار الأول فى اختيار الطريق التى نسلكها فى تعيين المسميات بأسمائها . وتشهد على ذلك القواميس التاريخية لألفاظ أية لغة من اللغات . إن أهم الاعتبارات فى إطلاق الأسماء على المسميات هو كفايتها لإرشادنا لمسمياتها . ولا يهم بعد ذلك إن كان إطلاقها عليها منطقياً أو غير منطقي ، شاملاً لجميع خصائصها أو غير شامل . وكما نكتفى فى التعرف على شخص من الأشخاص برؤية وجهه أو سماع صوته ، دون أن نحتاج لرؤية بقية أجزاء جسمه والتعرف على خصائصه العقلية والعاطفية ، فإنه يكفى فى دلالة الاسم على مسماه أن يكون إشارة تعيينه ولا أكثر . ومن هذه الإشارة تستطيع تجاربنا السابقة أن تمدنا ببقية الخصائص العقلية والنفسية والجسدية ، التى نعرفها لهذا الشخص . ولقد تكون الإشارة أمراً بسيطاً كل البساطة ، فنعرف شخصاً بمجرد سماع وقع أقدامه أو نقرات أصابعه على بابنا . ومادام اللفظ لا يزيد عن هذا النوع من الإشارات ، فلا شك أنه من الحق أن يغالى الناس فى جدلهم حول الألفاظ والمصدر الذى أوحى بها ، ظانين أن مصادر الألفاظ سوف تكشف عن حقيقة ما تدل عليه . إن مثل هذا الظن قريب من اعتقاد الأطفال والبدائيين ، بأن بين اللفظ ومدلوله علاقة طبيعية ، إن لم يكن اللفظ ذات المدلول . وكما نكون مخدوعين حين نظن أننا سنفهم ماهى الـ tragedy (أى المسرحية المؤلمة) ، أو ماهى الـ comedy (أى المسرحية المضحكة) ، بمجرد إرجاع الكلمتين إلى الأصل الإغريقى الذى أخذت عنه كل منهما . أن الأصل الإغريقى للأولى يعنى (أغنية العز) وللثانية « أغنية الوليمة » . وليس فى أيهما

ما يكفي ظمناً من يطلب معرفة المذاهب الفنية لكاتبى «التراجيدية» و«الكوميديّة» وممثلها ومخرجها .

وكذلك نجد بعض الكلمات متشابهة في صوتها ودلالاتها ، لدى الأطفال ، مهما اختلفت مواطنهم اللغوية . ومن هذه بابا ، ماما ، تانا ، نانا ، الخ ، للأب ، والأم ، والمرية ، والطعام . كما تتفق دلالة بعض الأصوات في كثير من اللغات البشرية بوجه عام . وفي كثير من اللغات توجد الكسرة في الكلمات التى تدل على أشياء صغيرة ، أو دقيقة ، أو سريعة .

ومن الظواهر العامة فى اللغات كذلك تكرار المقاطع أو الكلمات . ولهذا التكرار أنواع ؛ فنه تكرار الكلمات ، ومثله الإنجليزية « very very good » وفى المصرية « كويس أوى أوى » (قوى) ، وفى العربية ، « أخاك أخاك » ، « لا لا أبوح » الخ . ومنه أيضاً تكرار مقطع أو مقاطع دون تحوير على الإطلاق ، مثل « تكتك » ، « ههههه » ، « نونو » . ومنها التكرار مع تغيير بعض حروف المقطع . ويكثر مثل هذا النوع فى التلاعب بالألفاظ ، مثل « حكتك بتتك » ، « زعيط ومعيط » الخ .

وقد يبدو للكثيرين أنه من الاستحالة بمكان أن ثبت وجود شبه فى قواعد اللغات الإنسانية التى لا تنتمى إلى عائلة لغوية واحدة . ولكننا مع النظر الفاحص ، نستطيع أن تبين شها بينها رغم هذا . وقد يكون ديلاكروا Delacroix مبالغاً حين يقول «إن جميع لغات العالم هى فى حقيقتها واحدة ، مهما بدا فيما بينها من خلاف ، لأن هذا الخلاف لا يعدو أن يكون أنواعاً من الزخرفة ، ولكن على قطعة واحدة من القماش » . ولكن جميع اللغات تتشابه فى زرعها للتخلص — بمرور الزمن — من التعقيد فى قواعدها ، إلى بساطة واضحة ، تميز بين الأفكار المختلفة ، عندما توجد الحاجة المنطقية إلى التمييز وحسب . ولهذا نرى كثيراً من الصنيع التى

احتشدت بها كتب القواعد ، لسبب ولغير سبب ، تسير إلى زوال . لقد فرقت بعض اللغات في صيغها ، بين ما تدل على الأشياء الحية والأشياء التي لا حياة فيها^(١) ، وفرت بين المتكلم والمخاطب والغائب ، وبين المفرد والثني والجمع ، وبين المذكر والمؤنث وما ليس مذكراً ولا مؤنثاً^(٢) الخ . ولكن اللغات الإنسانية بصفة عامة تتخلص من هذا النوع من التعقيد في قواعدها ، وهو تعقيد لا طائل تحته . فرأينا اللهجات العربية قد تخلصت من صيغة الثني ، كما تخلصت المصرية من ضمير جمع النسوة متكلاً ، ومخاطباً ، وغائباً . وقد تخلصت الإنجليزية والفرنسية من التذكير والتأنيث تخلصاً يكاد يكون كاملاً . كذلك تخلصت اللهجات العربية وأغلب اللغات الأوروبية من حالات الإعراب ، وغير ذلك .

وهكذا ترى نزعة عامة متشابهة في تطور القواعد اللغوية على اختلاف اللغات . وأود هنا أن أدلى ببعض الأفكار المختصرة السريعة .

لا شك أن المراحل اللغوية التاريخية (substrata) التي تمر بها الجماعة اللغوية تؤثر في اللغة التي تتكلمها . فالجماعة اللغوية في مصر ، قد مرت بها مراحل تمثلت في وجود اللغة المصرية القديمة ، ثم القبطية ، ثم العربية في مختلف عصورها . واللهجة العربية المصرية ، ليست مجرد لهجة عربية ، ولكنها قد تكيفت بالمراحل اللغوية السابقة على وجود العربية — أعني المصرية القديمة والقبطية^(٣) . وبهذا الاعتبار

(١) انظر كتاب المؤلف Language ص ١٥١ . ونحن لانوافق على هذا القول بمثل هذا العموم .

(٢) توجد في بعض اللغات كالألمانية أسماء ليست مذكورة ولا مؤنثة .

(٣) تبين لي من دراستي للغة النوبية وجود شبه عظيم بينها وبين العربية المصرية في نظامها الصوتي والتركيب . وارجح أن يكون سبب ذلك هو أن المصرية العربية بالقبطية ، وهي قريبة الصلة بلغة النوبة . ونحتاج لسكثير من الأبحاث التاريخية لربط خصائص اللهجة المصرية بالأطوار اللغوية التي مرت بها مصر .

يمكن القول بأن اللغة في عصر من عصورها ، هي نتاج للأدوار التاريخية السابقة عليها .

وفي العصر الحديث دخل إلى حياة الإنسان اللغوية عنصر لغوى جديد ، هو عنصر الكلمات العالمية . وذلك لأنه من أهم مميزات العصر الحديث ، زعرة التوحيد الفكرى والثقافى بين مختلف بنى الإنسان . ولهذا شاعت ألفاظ كثيرة مشتركة فى كل اللغات ، وصارت تكون عنصراً هاماً من عناصر أى منها . ومن أمثال هذه الكلمات « قهوة » ، « سكر » ، « سيجارة » ، « تليفون » « ترام » الخ . وتوجد هذه الكلمات فى كل لغات العالم بنفس النطق والمعنى ، أو باختلاف طفيف فيهما . وإذا أضفنا شيوع مثل هذه الكلمات إلى ما ذكرنا من قبل ، من تشابه التطور فى قواعد اللغات الإنسانية — بتخلصها من الصيغ المتعددة التى تدل على أفكار عديمة الأهمية ، كالتثنية ، والتأنيث الخ — وجدنا أننا بقطرتنا نسير نحو لغة عالمية . وليس من العجيب إذن أن نحاول مساعدة هذه الزعرة بابتكار لغات صناعية ، تكمل ما يتخلف عنه هذا التطور الطبيعى نحو التوحيد اللغوى . وفيدنا معرفتنا بطبيعة تطور اللغات الإنسانية فى التعرف على الخصائص الجوهرية التى يتحتم وجودها فى اللغة الصناعية . لقد مهدت المحاولات السابقة ، لابتكار لغة صناعية ، الطريق لمن يحاول سد هذا الفراغ . وستكون مثل هذه اللغة ، لو تمكنت وسادت ، خدمة إنسانية جليلة .

لقد حرصت فى ثنايا هذه المحاضرات على أن أبين العناصر المشتركة بين اللغات الإنسانية ، بالرغم من اختلاف الظواهر اللغوية التى نشاهدها وتحدث عنها . ومن أهم هذه العناصر المشتركة التعاون بين الفرد وجماعته لخلق العرف اللغوى . ولكن هذا العرف ليس ثابتاً على مر الزمان ومختلف الظروف . وذلك لأن الظروف المادية والاجتماعية ، من سياسة ، إلى أدب ، إلى تواصل أو انقطاع ، تتدخل تدخلا

جوهرياً في انقسام الجماعة اللغوية ، وتعدد لهجات اللغة الواحدة من ناحية ، كما تعمل من ناحية أخرى ، على توحيد اللغات واللهجات المتعددة . وعندما ناقشنا العلاقة بين اللغة وبين العقائد والأفكار التي تسود المجتمعات الإنسانية ، وجدنا شبهة عظيمة بين أثر هذه العقائد على اللغات في مختلف الجماعات والوطن ، إلى درجة كنا معها نتبع الظاهرة من مصر إلى نيوزيلاندا أو جرينلاندا . وهل ترى يحق لنا بعد ذلك أن نقول بوجود نزعات إنسانية تبدو آثارها ، عندما يحاول الإنسان أن يعبر عن أفكاره أو عواطفه ؟!

إن واجب العلم أن يجمع الحالات الفردية ويلاحظ ما بينها من شبه أو خلاف ، ثم يحاول من بعد ذلك أن يستنبط القوانين العامة التي تسير على وفقها ، وأن يحاول التعليل للحالات التي لا تسير على مقتضى هذه القوانين . كل ذلك ابتغاء أن نتعرف الإنسانية ، في أدوارها اللاحقة ، على بعض ما نقصته معرفتها السابقة ، من فهم للقوانين العامة التي يسير عليها هذا الكون الضخم . ولقد حاولت هنا — على قدر ما يستطيع جهدي العاجز — أن أساهم في تحقيق هذا الهدف الإنساني الضخم ، في أحد فروع المعرفة الإنسانية . وإذا صح أن يكون هناك من فضل في هذه المحاولة ، فإن صاحب الفضل ، ولاشك ، هو «معهد الدراسات المقارنة للثقافات الإنسانية بالبروكسل» ، هذا المعهد الذي يعمل جاهدا للقيام بخدمة ثقافية إنسانية ممتازة .

الفهرس

صفحة

١	١ — الكلام واللغة
٣٤	٢ — تأثير الفرد في اللغة
٥٢	٣ — اللغة واللهجة
٨٥	٤ — اللغة واللهجة (تتمة)
٨٩	٥ — مقاييس الصواب اللغوى
١٣٣	٦ — الصواب اللغوى
١٥٧	٧ — أثر الطبقة في التعبير اللغوى
١٦٧	٨ — التعبير البلدى
١٨٤	٩ — الخرافة واللغة
١٩٧	١٠ — المراء اللغوى ولغة التستر
٢٢٣	١١ — خاتمة

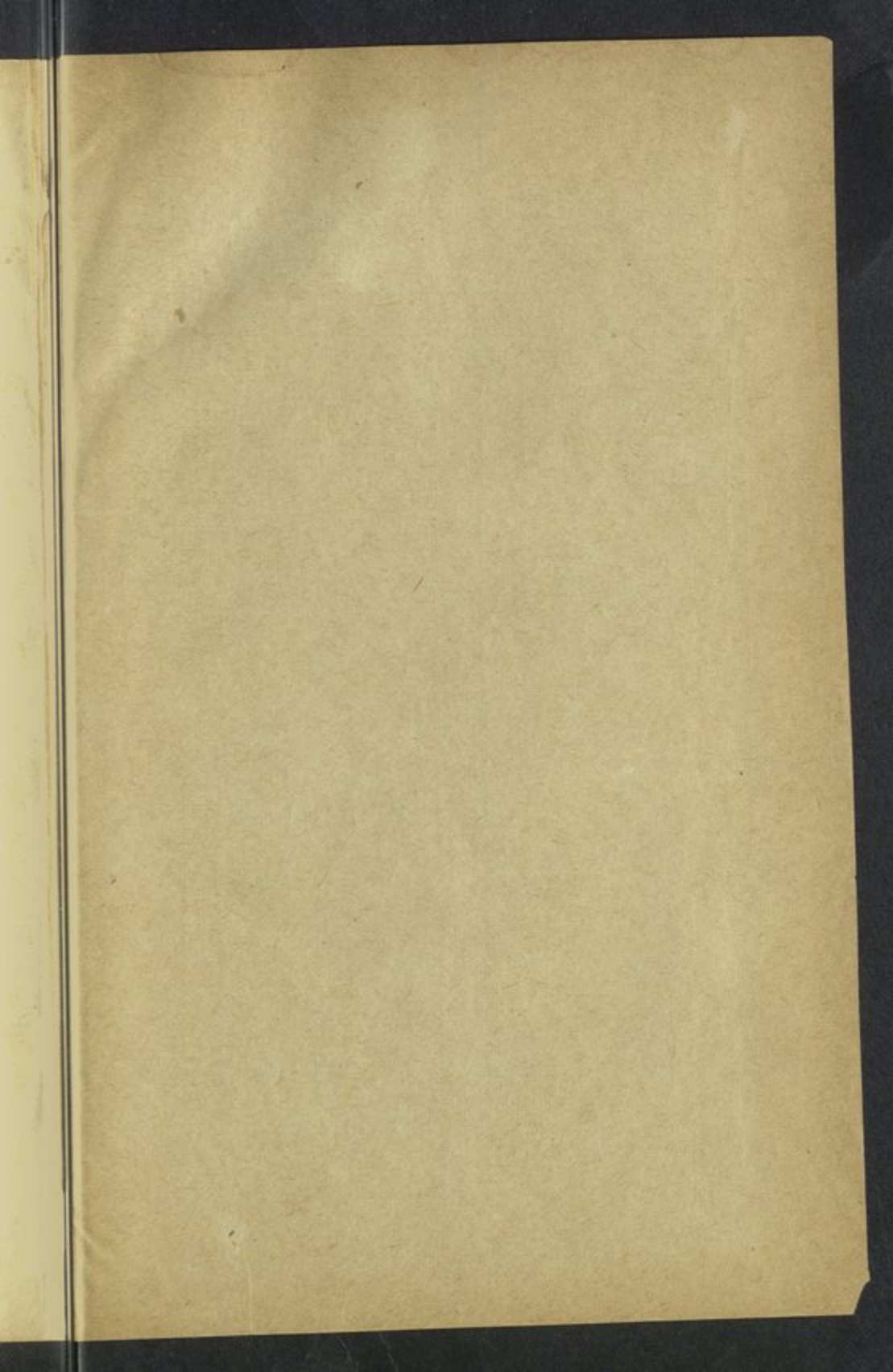
المراجع

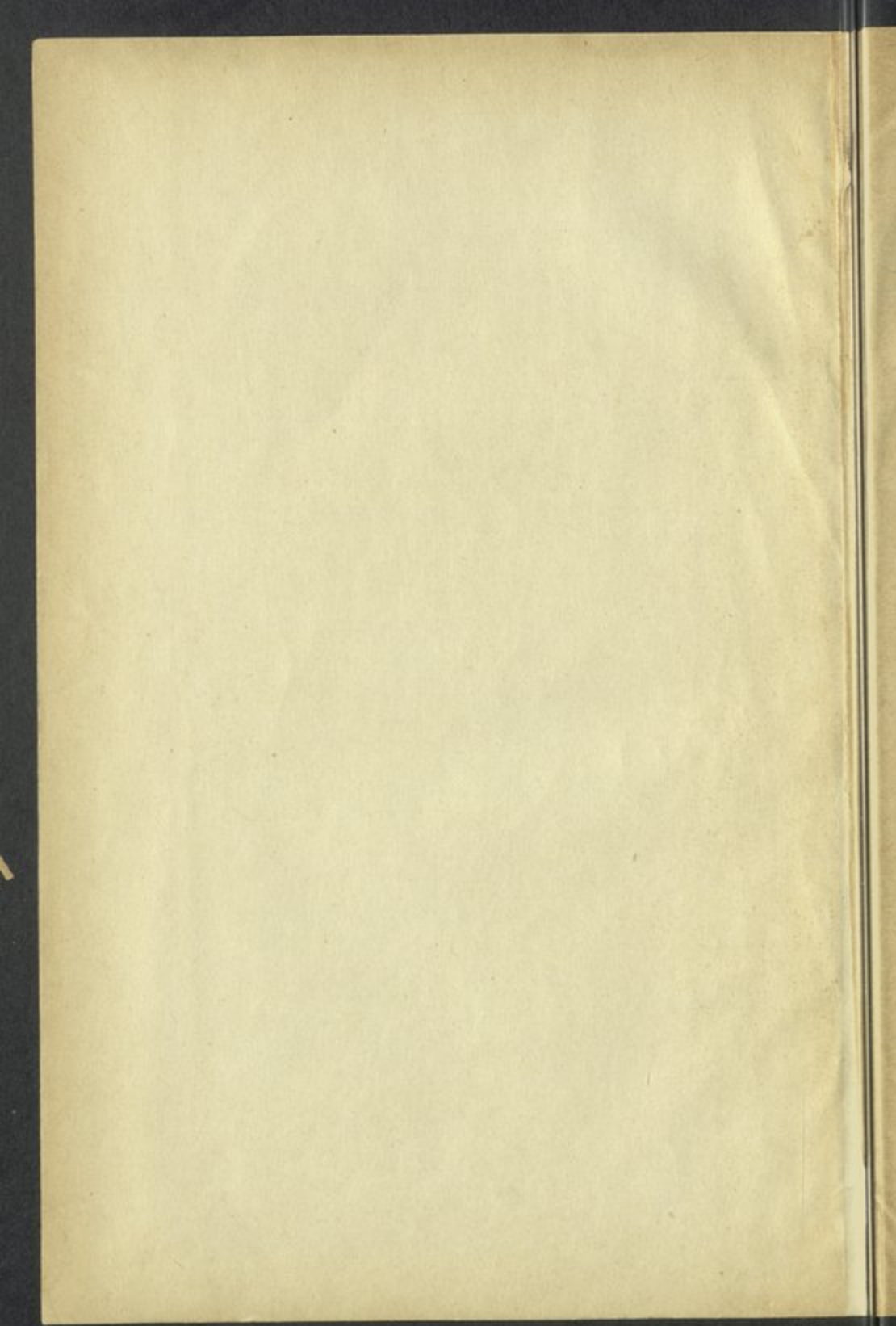
- 1 — H. Bauche, Le Langage Populaire, Paris 1920.
- 2 — Bulletin de la Société de Linguistique
- 3 — Karl Bücher, Arbeit und Rhythmus, 2. Aufl. Leipzig 1899
- 4 — H. Delacroix, Le Langage et la Pensée, Paris 1924.
- 5 — A. J. Ellis, Early English Pronunciation, London 1869 ff.
- 6 — O. Jespersen, Growth and Structure of the English Language.
4th ed. Leipzig 1923.
- 7 — Indogermanische Forschungen.
- 8 — O. Jespersen, Language its Nature, etc : London 1922.
- 9 — Levy-Bruhl, Les Fonctions Mentales dans les sociétés inférieures.
Paris 1910.
- 10 — Literaturblatt f. germ. u. rom. Philologie.
- 11 — J. N. Madvig, Universitetsprogram, København 1857.?
- 12 — A. Meillet, Aperçu d'une Histoire de la Langue Grecque.
Paris 1913.
- 13 — «Linguistique Historique et Linguistique Générale. Paris 1921.
- 14 — C. Meinhof, Die moderne Sprachforschung in Afrika, Berlin 1910.
- 15 — A New English Dictionary by Murray, etc. Oxford.
- 16 — A. Nicot, Le Génie de l'Argot Paris 1912.
- 17 — L. Sainéan, Le Langage Parisien au XIX^e Siècle, Paris. 1920.
- 18 — A. H. Sayce, The Principles of Comparative Philology, London 1875
- 19 — Streitberg Geschichte der indogerm. Sprachwissenschaft,
Strassburg 1916 f.
- 20 — K. Vossler, Frankreichs Kultur im Spiegel seiner Sprach-
entwicklung. Heidelberg 1921.

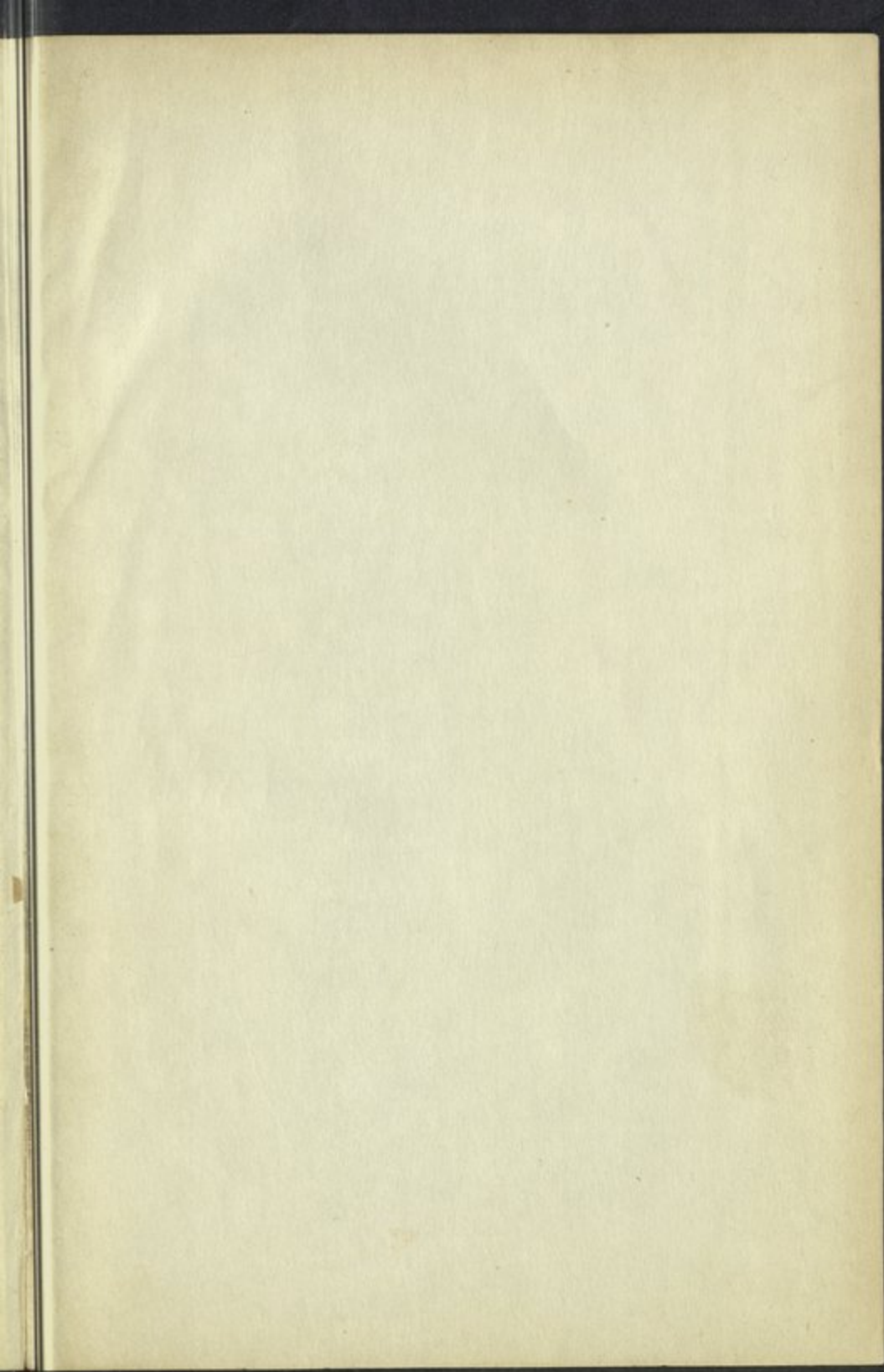
صواب الخطأ

وقعت بعض الأخطاء المطبعية في هذا الكتاب لا تخفى على القارىء .
وفىما يلى ذكر أهم هذه الأخطاء .

صفحة	سطر	الصواب	صفحة	سطر	الصواب
٦	٦	والتجولة	١٥٢	١٤	بين الصواب والخطأ هو
هامش [٢]	٦	تأليف Otto Jespersen	١٥٢	١٤	الاستعمال اللغوى .
٨	١٢	فكما نسير	١٥٢	١٥	فأمر فى المرتبة الثانية .
١٢	٩	Malinowski	١٥٢	١٥	زيادة عدد المترادفات .
١٣	٤	أى ارتباط أو تعاطف	١٥٢	١٥	Context of Situation
١٤	١٤	نفس المعنى الذى	١٥٢	١٥	أحدث الاستعمالات
١٥	٧	Ferdinand	١٥٢	١٥	تيجنر Tegnér
١٨	١٨	إمكانات تعبيرية	١٥٢	١٥	لا يفرض عليه
٢٤	١٦	التي فى صيغة الجمع	١٥٢	١٥	ويبدولى أن
٢٨	٢	بشكسير	١٥٢	١٥	فى التعبير اللغوى
١١	١١	Humboldt	١٥٢	١٥	Monsieur
٣٦	٣	فى جيلهن غيب	١٥٢	١٥	كانوا
٣٩	١٥	verandah	١٥٢	١٥	يونيسكو Unesco
٤٧	٦	منرى تأثر	١٥٢	١٥	United Nations Education-
٦٦	٦	على أى أساس	١٥٢	١٥	al and Scientific etc.
٧٨	٢	بين مانسيه	١٥٢	١٥	Uno
٨١	٣	فيما عدا	١٥٢	١٥	التعاون
٨٨	١٣	تتخلص	١٥٢	١٥	من الفعل القديم Slingan
٩٠	هامش [١]	modern colloquial of English.	١٥٢	١٥	dactyl
٩٦	١٦	Genneken	١٥٢	١٥	الكتابة العكسية
٩٨	١٥	على أساس منها أن نطلق	١٥٢	١٥	L'unità ...
١٠١	هامش [١]	ظروف التكلم ... بأعبارة	١٥٢	١٥	1905...1922
		الفصيحة .. مثلا وأصح يصلها	١٥٢	١٥	Trombetti
		مستوى الفلاح .. قواعد النجاة	١٥٢	١٥	Honduras
		ونصوص أصحاب القواميس	١٥٢	١٥	anthropologists







104
1861

DATE DUE



4
J
2

~~3 Aug 65~~

~~1 OCT 1981~~



JAFET LIB.

~~2 AUG 1975~~

JAFET LIB.

1 JUN 1993

[REDACTED]

جسیرسن ، اوئو

اللغة بين الفرد والمجتمع

AMERICAN UNIVERSITY OF BEIRUT LIBRARIES



01224764

